رامـــي عـلـيق

طريق النحل

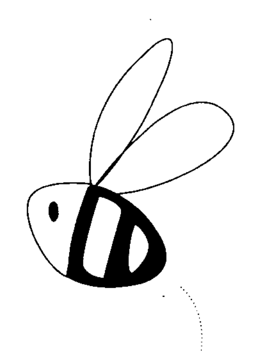
جمهوريـة
رامي علّيق







منشـورات طريـق النحـل



عِش حُرّاً، أو

مُتْ وأنتَ تحاول

الطبعة الثانية، آذار ٢٠٠٨

الغلاف والاخراج: عمر الهاشمي

www.beesroad.com
info@beesroad.com
بيروت - لبنان

إلى

أمــــــــي

وأبــــــــي

وإخــــوتــــي

وإلى

رفـــاقـــي

الــشــهــداء



شـكراً

لم ينتقل هذا الكتاب إلى حيّز الإعداد إلا بعد اعتصار الأفكار لسبع سنوات كاملة؛ أفكار تبعثر بعضها على أوراق متفرقة، لم يكتب لها أن تبدأ بالالتئام إلا منذ سنة.

تطلّب ذلك جهداً غير قليل، بذله معي عديدون، أخص منهم بالشكر ميرنا، ساندرا، لميس، هبة، جنان، كما صديقي إبراهيم.

كما أشكر الأستاذ علي غندور على ملاحظاته القيمة.

وأوجه شكراً خاصاً لعجرم عجرم وعمر الهاشمي على ما لقيته منهما من تشجيع ومساعدة.

تقديم

٣٠ كانون الأول / ديسمبر ٢٠٠٧.

زرتُ غريغوار حداد، المطران، في مستشفى بيت السيدة في بيروت لأطمئن إلى صحة ثائر في العقد التاسع من العمر.

طلبتُ إليه بضعة أسطر تقديماً لكتابي. اعتذرَ، استشرته، قال: «أثرتَ فيَّ وأثرتني. أؤيدك كثيراً، وأؤمن بأنه يمكنك القيام بالكثير. حزين أنا لأنني لا أستطيع أن أساندك ولو ببضع كلمات؛ أرغب في أن أبقى بعيداً عن أي التزام، حراً طليقاً كالمسيح».

التقت العيون ودمعت.

أضاف غريغوار: «أثر فيَّ التزامك بالحياة، إيمانك الكبير، رفضك للجمود. رأيتُ في ذلك كله، بثقة، زخماً كافياً لانطلاقة جديدة، لصنع كل شيء من لا شيء».

التقت الابتسامتان وخرجتُ مودّعاً.



«... وعلى خط السما الزرقا
مرسومة طريق النحل
... اذا رح تهجرني حبيبي
ورح تنساني يا حبيبي
ضل تذكّرني وتذكّر طريق النحل
طريق النحل الطاير فوق الضو المكسور
بيصير يرسم دواير يكتب علا الهوى سطور
من فوق القصور أعلى من القصور
أعلى من قبب العالية عم يكتب سطور
اذا رح تهجرني حبيبي
ورح تنساني يا حبيبي
ضل تذكّرني وتذكّر طريق النحل»

غنت فيروز طريق النحل، غنت لحبّ تحوّل هجراً ونسياناً، ورسم ذكراه طريق النحل. تبدد الحب ولم يتبدد طريق النحل، كتب سطوراً في السماء، علاماتٍ للذكرى.

غنت فيروز طريق النحل هوىً، غنيت طريق النحل هوىً وثورة.

كانت الثورة الأولى في الجنوب، ثورة البيت والمدرسة، والشارع الذي كتبت له الغلبة.

كانت الثورة الثانية في الجامعة الأميركية في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤. كانت امتداداً لثورة الشارع في مكان لا يشبهه الشارع. غيرت الجامعة مفردات الثورة الثانية، وهيأت لثورة ثالثة أنا الآن على أبوابها.

هي في الحقيقة ثورة واحدة، كانت في بعضها على الذات ومعها ومن أجلها.

طريق النحل قادني، فعلياً، إلى الخلية، إلى مملكة النحل. نسيج فائق الجمال، تنظيم متقن ودقيق، عالم لا مكان فيه للكسل. خلية النحل قوية ومنيعة ومنتجة، لا حياة للنحلة من دونها أو خارجها.

أعجبتُ بمملكة النحل لكنني، في الواقع، أردتها جمهورية.

الإطار في الخلية هو قرص الشمع. الإطار في حياتي هو بعض من الجغرافيا والتاريخ، والخلية هي الناس.

مدخل

تملكتني فكرة أن أبدأ حياة جديدة في ولاية فلوريدا الأميركية، فأعود ثانية إلى هناك وأعمل على الاستقرار في تلك البقعة من الأرض، بعد أن خطر لي أن أضع بين يدي أصدقائي هناك تفاصيل حياتي، من أجل أن يعرف أولئك الناس حقيقة من أنا. لكنني خلصت إلى عدم صوابية هذه الفكرة، وفضلت أن أكون أنا وقصتي بين أهلي وأصدقائي في لبنان.

لكن الموضوع تعدى أن يكون مجرد قصة للنشر، بعد أن قام عدد من الأصدقاء القدامى بالتحدث إليّ قبل بضعة أشهر من اندلاع حرب تموز ٢٠٠٦، إذ كانوا، كما كنت، يعيشون هموم المواطنين من أبناء الجنوب، ويؤمنون بأننا نستطيع، معاً، لعب دور مهم على صعيد حمل هذه الهموم، وإيجاد مخارج وحلول للمشاكل التي نتجت منها.

لا تقتصر تلك المشاكل على أهل الجنوب، بل تتعداهم إلى الوطن كله. وليست نتائجها ضحايا ودماراً واقتصاداً متداعياً فحسب، بل هي كذلك ما طفا على السطح من نزاعات تحولت في بعض مظاهرها إلى صراعات وانقسامات حادة في كل اتجاه.

كان علينا أخذ المبادرة في تأسيس تيار من المهتمين، يحمل مهمة الانتقال إلى مواقع تعزز حسّ الانتماء إلى الوطن والانصهار في مؤسساته بشكل فاعل، بدل أن يضعنا الساسة الحاليون في خانة المهمشين أو المضطهدين، وكأنّ لا خيار لنا إلا أن نكون وقوداً مستمراً لحروب تدور على أرضنا.

كانت أحاديثنا زاخرة بالتساؤلات: إذا نظرنا إلى التاريخ القريب، ألا نجد أننا في الجنوب، وفي لبنان كله، كنا وما زلنا وقوداً لكل الحروب الدائرة على أرضنا؟ ألم تضع الحروب والنزاعات مجتمعنا في وضع غير مستقر، يتعرض أهله للاستغلال والتشرد والقتل، وكأن ذلك هو مصيرهم «الموروث»؟

لماذا نضطرّ عند كل حرب ومأساة إلى الاصطفاف وراء ساسة لا يجرّوننا إلا إلى مزيد من الانغلاق والعزلة، في وقت نتوق فيه إلى الانفتاح والتواصل مع الآخر، كما عوّدنا على ذلك آباؤنا وأجدادنا؟ لماذا جرى إحلال التطرف والانعزال اللذين غذّتهما سياسات المحاور الإقليمية محل لغة الاعتدال والانفتاح الديني التي كانت سائدة، فبتنا نشعر بأننا لسنا سوى ضحايا عمليات التآمر علينا، المفبركة بإتقان والمربوطة زوراً بتاريخنا الديني؟

بعد الفرص والموارد التي أتيحت لنا للعلم والثقافة والإبداع، لماذا لا نستغل ذلك كله في سبيل تحقيق قدر أكبر من الرخاء الاجتماعي والاقتصادي؟ لماذا يلازمنا شعور بالانكفاء عن كوننا جزءاً لا يتجزأ من بنية هذا الوطن ومؤسساته، على الرغم من توافر كمّ كبير من الطاقات البشرية الجديدة بيننا؟ ولماذا بقيت مقاليد أمورنا بيد حفنة من الأزلام الفاسدين الذين قدّموا أسوأ النماذج في تمثيلنا في



السلطة؟ ألم نكن نعاني، نحن الجنوبيين، كغيرنا من اللبنانيين، من سطوة الوجود السوري وطغيانه قبل الانسحاب الأخير؟

ألم يكن وجود العمال السوريين بشكل غير منظّم عبئاً يومياً على اليد العاملة اللبنانية يتردد صداه بين أفراد أسرنا؟ لماذا نختار أن نصطف وراء هؤلاء الذين يجروننا إلى المزيد من التطرف في مواقفهم عبر إطلاق شعارات رنانة تدغدغ عواطفنا؟ لماذا صرنا نتحرك وفق خطاب يحاكي لغة العصور البائدة، فيتم تكريس مقدسات ليست مقدسة، ويحل جو من الإرهاب الفكري محل أجواء النقد الفعّال؟

هذه التساؤلات، وغيرها الكثير، طغت على أحاديثنا التي امتدت لشهور، ولا تزال؛ وقد أعادتني بالذاكرة إلى لحظات مؤثرة مررت بها إبان الانخراط في العمل الحزبي. لا أنسى لحظة التقيت أحد الأصدقاء المسؤولين في حزب الله، منذ أكثر من عقد خلا، بعد عودته من دمشق ساخطاً، إذ قال بأسى: «وكأننا لم نوجد إلا لنموت في الجنوب»، تعبيراً عن تأففه من طبيعة الدور الذي يقوم به الحزب في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي.

كذلك لا أنسى حديث مسؤول آخر حينذاك عن ضرورة وضع سلاح الحزب في إطار مؤسساتي حزبي واضح، وعدم تركه تحت سيطرة أفراد من العسكر يمكنهم التفرد بقرار استعماله. ولا أنسى كيف رفع مسؤول آخر صوته معترضاً على الذوبان في التحالف مع المسؤولين السوريين، الذين لا يؤمَن جانبهم ولا يتمتعون حتى بالحد الأدنى من الأخلاقية والاحترام في التعامل مع الآخرين، ولا ينفكّون ينهبون ثرواتنا؛ وغير ذلك الكثير مما يصب في الخانة نفسها.

لست هنا في موضع من لا يرى إلا سلبيات الأمور، أو يعتبر أن ما يقوم به الآخرون أفضل مما يقوم به القيّمون على أمورنا. فلا أحد يمكنه أن ينكر على المقاومين الأبطال إنجازاتهم غير المسبوقة في صدّ المحتل الإسرائيلي والصمود في وجه غطرسته، كما لا يمكن إلا أن يرى الكمّ الكبير من التجاوزات والأخطاء التي يرتكبها الساسة المنضوون تحت ألوية أخرى.

ليس الموضوع هنا ما يقوله هؤلاء أو أولئك، بل ما يعنينا نحن، كلبنانيين، وما ينبغي أن تكون عليه حساباتنا في مجالات النصر والهزيمة، الربح والخسارة، وضرورة أن تكون هذه الحسابات واقعية وحقيقية، بعيداً عن الشعارات والعبارات التي تلهب المشاعر دون أن تلامس الواقع.

كفانا ذوباناً في أولويات الآخرين ومصالحهم بعيداً عن اعتباراتنا الوطنية والاجتماعية، والتي لا يصح إلا أن تأتي من كوننا امتداداً لبعضنا البعض. دعونا ننقل مستوى العلاقات المستجدّة مع الخارج من درجة الذوبان الحاصل حالياً إلى درجة التحالفات الطبيعية التي تأخذ خصوصياتنا ومصالحنا الوطنية بعين الاعتبار، ولا تصادر بالتالي حقنا في تقرير مصيرنا.

في النهاية، أقول إن أمامنا تحدياً حقيقياً على صعيد اختيار الطريقة الفضلى لبناء وطننا، بما يؤمنه ذلك من استقرار وأمان ورخاء وغنى لمجتمعنا. كانت لدينا تجربة غنية، كتجربة الإمام موسى الصدر، رحمه الله لما أراده من خير لنا، تحفظ مصالحنا الوطنية دون انتقاص، وإنّ عبّر تثمير العلاقات مع الخارج.[1]

١- إن معظم أسماء الشخصيات الواردة أثناء السرد مختصرة، وأحياناً مستعارة، حفاظاً على الطابع الشخصي لعلاقتي بهم.

الإطار الأول

لبنان ١٩٧٢ - ١٩٩٩





المحطة الأولى

الجنوب
(١٩٧٢ - ١٩٨٩)

أولاً- الطفولة

ولـدت في الثاني من شهر تشريـن الثاني/نوفمبر ١٩٧٢ في بلدة الخيـام في جنـوب لبنان. يتحـدّر أبي من بلدة يحمـر الجنوبية من أسرة تعمل في الزراعة. وعلى الرغم من الطابع الريفي للبلدة، فقد أولى جـدّي لأبي موضوع تعليم أبنائـه وتثقيفهم اهتماماً لافتاً، مما دفـع والدي للتوجه يومياً إلى مدينة النبطية التي تبعد عن البلدة ما يزيـد عن ستة كيلومترات، سيراً على الأقدام بهدف الدراسة، ومن ثم العـودة عصراً للعمل مع والده في تحصيل لقمة العيش. تابع أبي تحصيله العلمي في المعهد التابع لوزارة الزراعة قرب فندق البريستول في بيروت. بعد تخرّجه، درس في معهد الهندسة الزراعية في جامعة دمشق لسنة واحدة، التحق بعدها بالعمل الوظيفي في وزارة الزراعة التي أرسلته للدراسـة في مصر حيث حصل على درجة اختصاصي في تنميـة المجتمع بتقدير ممتاز. ثم عاد إلى لبنان حيث تركّز عمله في قضاءي مرجعيون وحاصبيا في الجنوب.



تألفت أسرة والدي من جدي حيدر وجدتي نايفة وأولادهما الثمانية. عاشوا جميعاً من زراعة القمح والزيتون ومن تربية المواشي؛ ولم يمنع عمل الأسرة اليومي في الزراعة من متابعة الأولاد لتحصيلهم العلمي.

مارس جدي الشعائر الدينية باعتدال. حاول تربية أولاده على هذا النحو، فكان يحضّهم على الصلاة والصوم كتعزيز لعلاقة الإنسان بربه دون ربط ذلك بأبعاد سياسية. من هنا، كان أبي يؤدي الصلاة أحياناً، وغيرها من الشعائر، في الوقت الذي كان فيه مؤيداً للحركات اليسارية، كالحزب الشيوعي ومنظمة العمل الشيوعي، والتي تبنّت المقاومة ضد العدو الإسرائيلي حينذاك؛ كان هذا التأييد بعيداً عن أي التزام تنظيمي.

لم تستطع الأحداث ولا التناقضات السياسية والطائفية التأثير سلباً على التواصل بين أبي المسلم وبين أصدقائه المسيحيين، ولا على العلاقات الطيبة التي كانت تجمعهم، كما كانت عليه الأحوال بحكم طبيعة الحياة اليومية في الجنوب، وبالأخص في مكان عمله.

أما أمي، خديجة زيتون، فقد ولدت في بلدة كفرتبنيت، القرية المحاذية لبلدة يحمر الشقيف. تحدّرت هي أيضاً من أسرة ريفية تعمل في الزراعة، وخصوصاً التبغ. كانت الأسرة مؤلفة من جدي محمد وجدتي آمنة وأولادهما التسعة. كان الوالدان كذلك مهتمَّين بمتابعة أولادهما للتحصيل العلمي. تزوجت أمي بأبي في فترة عمله في وزارة الزراعة بينما كانت على وشك إنهاء دراستها الثانوية. تعارفا من خلال أخته فاطمة التي كانت صديقة أمي في المدرسة الثانوية في بلدة النبطية، فقصد أبي منزل أهلها وطلب يدها، ليتم

عقد قرانهما وتتوقف عـن متابعة دراستها، وهي في الصف الثانوي الثالث.

الأسرة والمدرسة

عاش أبي وأمي بعد الزواج في جديدة مرجعيون، البلدة المسيحية الواقعـة ضمن نطـاق عمل أبي الـذي اهتم، إلى جانـب وظيفته في وزارة الزراعـة، بتربية النحل، واستعان بخبراته العلمية للعمل على تطويـر هـذه المهنة في الجنوب. عاونته أمـي في عمله إلى حد كبير، إلى جانب عملها في تدبير شؤون المنزل.

في مرجعيـون، أبصرتُ النـور، وقضيت السنـوات الأربع الأولى مـن عمري في بيـت مستأجر اضطررنـا إلى تركه نتيجـة الاجتياح الإسرائيلـي الأول لجنـوب لبنـان عـام ١٩٧٦، حيـث أن قرب بلدة مرجعيـون من الحدود اللبنانية الإسرائيليـة كان يعرّضها للقصف المستمـر. في تلـك الفترة أيضـاً، انطلقـت شرارة الحـرب الأهلية اللبنانيـة التـي أرست أسسـاً للفرز الإسلامـي المسيحي في مختلف المناطـق. كانت النتيجة أن اضطر والـداي إلى ترك البلدة والتوجه إلى مناطق أكـثر أمناً في الداخل اللبنـاني، فعانت أسرتي التهجير إلى بلـدات يحمـر وكفرتبنيـت والنبطية وزفتا وغيرهـا من القرى الجنوبية.

رافق التهجـير مشاهد انتقال تكررت مـرات عديدة. كنا في كل مـرة نستأجـر سيارة شحـن لتحميل الأثـاث، من أسـرّة وخزانات وأدوات وغيرهـا، ونقلـه وترتيبـه بشـكل ينسجـم وتقسيـم المنزل الجديـد. لم يكن التغيير يقتصر على المنزل والأثاث، بل كان يتعداه إلى رفـاق الطفولـة والجيران والمدارس، ممـا لم يترك لي «صحبة



طفولة» تستمر حتى عمر الشباب وما بعده، لأركن إليها كما هو حال من يعيش طفولة مستقرة. أضف إلى ذلك ما كان يعيشه والداي من هموم ومشقات طلباً للأمان.

أصبح لي أخ وأخت، عادل ورلى، وكان همّ والديّ الأساسي إيجاد مدارس ذات مستوى جيّد، الأمر الذي تحكم بحركة تنقّل الأسرة. وكان لنا في المدرسة الإنجيلية في النبطية محطة بارزة.

استقرت الأسرة لخمس سنوات في بلدة جباع ثم في بلدة عين بوسوار، في إقليم التفاح في الجنوب، حيث التحقتُ وإخوتي بإحدى المدارس في مدينة صيدا، كان والدي يقلّنا إليها يومياً، بالإضافة إلى تلامذة آخرين ساهم ذووهم في تحمّل مصاريف النقل.

انعكست آثار الحرب وصور العنف وأخبار الموت والدمار على طفولتي وطفولة إخوتي، وظهرت في المفردات وأنواع الألعاب وأدواتها، كما كان وضع غيرنا من الأولاد. أذكر من الألعاب والمفردات صناعة البنادق الخشبية، والتراشق بالحصى، وإقامة الحواجز والمراكز، وشنّ الغارات، واستخدام لغة التدمير والقتل، واللجوء إلى العنف أثناء الاختباء في لعبة «الغميضة».

صدمة أولى

كنا مع أبي في الطريق إلى المدرسة. أوقفنا حاجز لحركة فتح بين قريتي جرجوع وعين بوسوار في إقليم التفاح. بعد كلام وجدال، اقتاد المسلحون أبي إلى مركز مجاور، حيث مكث قليلاً ليعود ويتابع قيادة السيارة. علمت في تلك الليلة أنهم ضربوه. عرفت ذلك وأنا أسترق النظر، فيما كانت والدتي تنظر إلى آثار الضرب على فخذه:

بقعة حمراء جعلتني أشعر بالدهشة والغضب الشديد لمشاهدة والدي المسالم يعاني ألم الاعتداء عليه دون ذنب يذكر.

كنت أرتاد مدرسة الاتحاد الحديثة في حي الهلالية في صيدا. مدرسة خاصة، ذات مستوى علمي جيد، وإدارة وأساتذة معظمهم من مدينة صيدا. في آخر سنة لي فيها، كنت في العاشرة من العمر في الصف الرابع الابتدائي على ما أذكر. تضمّن المنهج حصة أسبوعية للتربية الدينية كانت تدرّسها معلمة ترتدي الحجاب. علمتنا أداء الصلاة والشعائر الدينية على الطريقة الإسلامية السنية. لمّا رأيت والدي يؤدي الصلاة مرة من دون جمع يديه، أي بحسب الطريقة الشيعية، سألته عن الفرق بين الطريقتين، فأجابني بأنه ليس أمراً مهماً لأن الله يقبل الصلاة بأي من الطريقتين.

مما كان يسعدني تذكّره عند عودتي إلى البيت أيام المدرسة تلك، «مِس مَيسا»، معلمة اللغة الإنكليزية ذات الوجه الجميل والوجنتين المستديرتين والبشرة الناعمة والشعر الأسود. لطالما ردّدتُ عبارة «أحب مِس مَيسا» أمام أخي عادل الذي كان يضحك ساخراً. لعلها كانت المرة الأولى التي أنظر فيها، كصبيّ في العاشرة من عمره، إلى الجانب الأنثوي في فتاة ما. في المدرسة أيضاً، كنت أفضّل قضاء أوقات فرصة الغداء برفقة رفيقة الصف ديانا التي توددتُ إليها في تلك الفترة؛ قامة طويلة وشعر أجعد أسود وإطلالة ملفِتة وجريئة.

خلال إقامتنا في عين بوسوار، حصل الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢. كان عدد كبير من المسلحين الفلسطينيين منتشرين في المنطقة. لا يغيب عن ذاكرتي مشهد الطائرات الحربية الإسرائيلية وهي تغير على هذه المراكز من علو منخفض، فيما السكان يتفرجون، وفي أنفسهم، ربما، توق إلى رؤية المسلحين يرحلون عنهم

بعد أن عاثوا في الأرض فساداً عبر الاعتداء على حريات الناس، وفرض الأتاوات، واحتلال البيوت، وإقامة الحواجز المسلحة على الطرقات. أثّر ذلك سلباً على تعاطف الناس مع معاناة الشعب الفلسطيني.

كما تناهت إليّ أخبار عديدة مماثلة، كاحتلال منزل صديق للعائلة في قرية جرجوع المجاورة. وشهدت على العديد منها، كتجوّل المسلحين في سيارات عسكرية وإطلاقهم الرصاص بين الناس، ناهيك عن التحكم بمقدرات البلد وسلب استقلاله وثرواته. هذا ما يفسر ربما مشهد بعض الأهالي ينثرون الأرزّ على الدبابات الإسرائيلية لدى مرورها بمحاذاة بيوتهم. وكان الأطفال يتقدمون باتجاه هذه الدبابات ليحصلوا على قطع اللبان والحلوى من الجنود الإسرائيليين.

في عين بوسوار، وفي سن العاشرة والحادية عشرة، كنت أقضي أيام العطلة بصحبة أخي عادل وأولاد الجيران فؤاد وجهاد وخضر. من الألعاب التي أحببناها، والتي أظهرت نزعة القيادة لديّ، لعبة حرب العصابات. كان أولاد الحارة ينقسمون إلى فريقين أتزعّم أنا أحدهما. تضمنت اللعبة الاختباء في الجبال الواقعة على أطراف البلدة، واستيلاء كل فريق على مراكز العصابة المنافسة: خيام صغيرة فيها بنادق خشبية صنعها الأولاد وبعض الحبال والعصي.

كنا نتردد في أوقات أخرى إلى عين الماء في الضيعة للعب «الكلّة» في ساحتها أو لقطف ثمار الجوز والتفاح من الحقول المجاورة. في المنزل، كنت أهتمّ بمجموعات من الطيور طلبت من أمي ابتياعها لي من الباعة المتجولين.

سنة أولى على الاجتياح. عدنا إلى النبطية في خريف العام ١٩٨٣. التحقت وإخوتي مجدداً بالمدرسة الإنجيلية هناك. كنت متفوقاً في دراستي، أشارك على الدوام في النشاطات المدرسية، الأكاديمية وغير الأكاديمية، كالرياضة والانتساب إلى النوادي، نادي التصوير ونادي الشطرنج... نشاطات كان لأستاذ اللغة الإنكليزية، القس جورج حداد، الفضل في تشجيعي على ممارستها.

في النبطية، استأجر والداي مسكناً في حارة المسيحيين القريبة من المدرسة. كان معظم أصدقائي حينذاك من أولاد الحارة. في تلك المرحلة، سنة ١٩٨٣، كانت حركة أمل قد تسلمت زمام المقاومة اللبنانية ضد الاحتلال الإسرائيلي بعد أن كانت الحركات اليسارية قد فعلت ذلك في السبعينيات.

كان حزب الله قد ظهر إلى العلن للمرة الأولى في مظاهرات جرت في بلدة جبشيت في جنوب لبنان وفي ضاحية بيروت الجنوبية، وبثّت صورها وسائل الإعلام. شاهدت يومها في الصحف صورة امرأة تغطيها بالكامل عباءة سوداء. علقت الصورة في ذهني لأنني لم أكن قد رأيت شيئاً مماثلاً من قبل.

كان لافتاً في تلك المظاهرات وجود نساء بالشادور الأسود وشعارات تشيد بالثورة الإسلامية في إيران، الأمر الذي اعتبره معظم الناس ظاهرة غريبة عن مجتمعنا اللبناني في الجنوب في تلك الفترة، كما فهمت من كلام جيراننا وبعض الأساتذة في المدرسة وبعض رفاقي الذين رددوا ما تناقله أهلهم.

في تلك الفترة، قام الإسرائيليون باغتيال الشيخ راغب حرب في بلدة جبشيت الجنوبية. كان الشيخ راغب من أبرز المتصدّين



للاحتلال الإسرائيلي في سياق أعمال رفض الاحتلال ومقاومته، خصوصاً في ظل انعكاسات نجاح الثورة الإسلامية في إيران، والتي كان لها صدى كبير على الساحة الجنوبية في لبنان.

إذا كان معجم التصدي للاحتلال جزءاً طبيعياً من لغة أهل الجنوب، فإن معجم الثورة الإيرانية شكل منطقاً جديداً تسلل إلى أحاديث الناس والى وسائل الإعلام، مثل تلفزيون لبنان الرسمي، وحتى إلى قناة إسرائيل العربية وإذاعة سعد حداد. بدأ منطق الثورة يجذب الطاقات الشابة عبر لغة التحدي والتصدي والتضحية وغيرها من العبارات التي تذكي روح الانفعال لدى هؤلاء الشبان.

الأتراب

من المفيد عند التحدث عن رفاق الطفولة التوقف عند مجموعة التناقضات التي أفرزها محيط البلدة والحارة، والتي انعكست لدي أحاسيس متداخلة إلى حدّ التناقض في طريقة تفاعلي مع المحيط، بما في ذلك مع رفاقي. فأثناء اللعب مع أولاد من أسر شيعية قريبة من حركة أمل، كنت أسمع عبارات تفيد بأن المسيحيين عملاء للإسرائيليين. كان قسم من هؤلاء الأولاد رفاق صفي في المدرسة. وكان لهذا الجو الإعلامي المشحون بالتوتر وأعمال العنف والقتل والتصفية الجسدية للمتعاملين مع إسرائيل، والتي تناقلتها الألسن، ومن مظاهرات ومظاهر مسلحة لعناصر حركة أمل، أن دفع بنا إلى إظهار حماسة لما تمثله الحركة على الساحة الشيعية. أدت بنا هذه الحماسة سنة ١٩٨٤ إلى اعتبار إدارة المدرسة الإنجيلية وأساتذتها المسيحيين عملاء لإسرائيل.

في خضم تلك الأحداث المتسارعة، كنت لا أزال محافظاً على علاقات الصداقة مع أولاد الحارة، كأن حاجات الطفولة تخطّت ما أحاط بها من تناقضات. كان اللافت في حارتنا، حارة المسيحيين، وجود الفتيات اللواتي كنّ يجذبن الشبّان من الحارة والجوار، للمشي معاً في فترة غروب الشمس، ما يسمى «الكزدورة»، إذ تميزت تلك الفتيات عن غيرهن في البلدة بمظهرهن المثير ولباسهن الذي يماشي الموضة الغربية. وإن صحبتي مع أولاد الحارة الذكور، منهم توفيق وهادي وموني وطوني، جعلتني على تماس مع فتيات الحارة اللواتي أثرن إعجابي واستفزّين مشاعري، دون أن يصل الأمر إلى الصداقة الحميمة.

في المدرسة الإنجيلية، شعرت برغبة في التودد إلى فتاة في صفي تدعى رنا، أحببت مرافقتها في أوقات فرصة الغداء وحصة الرياضة ومباريات كرة السلة التي كنت كابتن فريق المدرسة خلالها. كانت رنا فتاة جريئة بالمقارنة مع بنات المدرسة، خلقت فيّ ثقتها بنفسها مشاعر تشبه الإعجاب، وحرّك جمالها في داخلي شيئاً من الإثارة.

في نهاية العام الدراسي، شعرت بضرورة أن أكون جزءاً من أجواء التعبير عن الغضب ورفض الاحتلال. تقاسمت هذا الشعور مع مجموعة من تلاميذ صفي، رفيق وعلي وعلي وحسن، وعلي أيضاً. عقدنا حلقة في ملعب المدرسة وتحدثنا عمّا يمكن فعله تعبيراً عن رفضنا لفكرة وجود عملاء للاحتلال بيننا. يبدو أن المبالغة في الحماسة قادتنا إلى القيام بعمل «بطولي»، تمثّل برشق زجاج نوافذ المدرسة بالحجارة وتحطيمه، من وراء سورها الخلفي. لحظة التنفيذ، ساور بعضنا شيء من التردد، بادرتُ إلى تبديده وإلى



تشجيع رفاقي على المضي قدماً، أنا الصبي الشديد الانفعال والتأثر بما تركته في الأجواء المشحونة بلغة العنف.

عند سماع صراخ من كان في المبنى، هربنا إلى أحد الحقول المجاورة. اجتمعنا لتبادل الإحساس بالفخر، واتفقنا على إبقاء الأمر سراً وعدم وشاية أي منا بالآخرين. توجهنا بعدها لمشاهدة فيلم فيديو عنوانه «قيام المستضعفين» يتناول حياة الإمام الخميني والثورة الإيرانية وإنجازاتها، وذلك في منزل أسرة علي ج. في حي التعمير في النبطية.

عرف المدير، منذر أنطون، أسماء المشاركين في العملية بفعل وشاية أحدنا، علي ح.، بضغط من أهله. فوجئ أستاذي القس جورج حداد بوجودي ضمن المجموعة، وهو الذي عرفني تلميذاً مهذباً ومجتهداً. في أحد الأيام، عند عودتي إلى المنزل بعد العمل مع أبي في تربية النحل، وجدته ينتظرني ليسألني عمّا حصل. شعرت بصراع داخلي؛ هل أعترف أو أتمسّك بعهد الكتمان، كما اتفقت مع زملائي؟ اخترت الكتمان، فوجدت نفسي أكذب بسبب تعهّدي لرفاقي. لازمت تلك الواقعة تفكيري، ولا أبالغ إذا قلت إنني أشعر بالذنب حيالها حتى الآن.

بعد أن اطّلع المدير على الأسماء، استدعانا، والدي وأنا، ليسأل عن الأمر. اعترفت له بما حصل بعد أن اتضح لي إلمامه بتفاصيل الحادثة، مما سبب لوالدي إحراجاً شديداً. قام المدير بفصل التلاميذ المشاركين جميعاً ما عداي، على اعتباري تلميذاً مهذباً ومتفوقاً ليس من عادته القيام بما يخلّ بصالح المدرسة، بحسب ما قال. تعهدت بألا أشارك في أي عمل مماثل مستقبلاً. في الطريق إلى المنزل، كنت متوتراً لعلمي بما ينتظرني من توبيخ وضرب.

في البيت، راح أبي يضربني بكفّيه وحزامه، بالرغم من احتمائي بوالدتي التي كانت تغلّب العاطفة في علاقتها بي. إلا أنني لم أبدِ أسفاً لما فعلت، واعتبرت تحمّلي للألم بمثابة التعرض للبلاء في سبيل خدمة الإسلام، وإن كان ما أبديته أقرب إلى ردة الفعل منه إلى حقيقة شعوري ببعض الحيرة والندم.

مع الأيام، نما لدي شعور بالانفعال والحماسة للأعمال الحربية ومقاومة الاحتلال. طغى ذلك على شخصيتي بفعل جو الشارع المكوّن من شباب لم يفارقهم الزي العسكري، ومن أخبار عن عمليات حربية وبطولات ضد الاحتلال، ومن أصحاب أكبر مني سناً انخرطوا في هذا كله، ومن دويّ المدافع والانفجارات. جاء هذا التأثر في وقت اتّسم فيه والداي بالاعتدال وبالبعد عن أي التزام حزبي، بحسب ما سمعتهما يرددان دوماً من انتقادات لدور السياسيين والأحزاب، وكان والدي يقول إن هذا كله لا يؤدي إلى نتيجة بنّاءة.

غلب عليّ التأثر، كما كل ولد وشاب حينذاك، بمحيط مفعم بالتشنجات الكلامية والفعلية ومفردات لغة الحرب والعنف، بدا أنه فاق أثره ما اكتنزته العائلة والمدرسة من اعتدال ودعوة إلى التسامح.

في تلك الفترة، انسحبت القوات الإسرائيلية من العمق اللبناني وأقامت حزاماً أمنياً في المنطقة الحدودية، وكانت أعمال رفض الاحتلال ومقاومته تتمّ بوتيرة متصاعدة. على الرغم من انفعالي واندفاعي لأكون جزءاً من هذه الأجواء، بقيت الحاجة إلى عيش الطفولة طاغية على حيّز من حياتي، حيث حافظت على اختلاطي بأصدقائي المسيحيين من أولاد الحارة الذين كنت أمضي أوقات اللعب معهم. لعل في ذلك انجرافاً لتلبية حاجات الطفولة، أو



تصرفاً من قبيل عاطفة غير ظاهرة، إلا أنني رفضت أن يطغى على هذه الطفولة تواجدي الدائم مع الأصدقاء المسلمين حصراً.

أمضيت أوقاتاً مليئة بالمرح مع أخي عادل ورفاقنا توفيق وهادي وطوني وموني، منها في صيد العصافير في الكروم المجاورة، والسباحة في بركة في طرف الحارة يملكها جد صديقنا توفيق. كنا نتنافس في القفز والغوص في الماء. وفي إحدى المرات، وكنا حينذاك ما بين سنّ الثانية عشرة والرابعة عشرة، وفيما نحن نتحدث عن العادة السرية عن طريق تحدي بعضنا البعض في القدرة على ممارستها بانتظام، بدا لي في حديثنا شيء من التحرر تخطّى أطر الكبت الأسري الذي اعتدناه في تربيتنا ضمن أسرِنا.

بالعودة إلى المدرسة، وعلى الرغم من انتهاء سنتي الدراسية من دون مشاغبات، لكوني قطعت وعداً للمدير بذلك، قام هذا الأخير، وبشيء من الافتراء، بفصلي من المدرسة. جاء قراره عندما بدأت تبدو عليّ بوضوح مظاهر الالتزام الديني، من خلال ملابسي وطريقة تعاطيّ مع الآخرين والتحدث معهم. أرسل حارس المدرسة ليطلب إليّ وإلى صديقي علي ك.، باستفزاز ونبرة عالية، مغادرة حرم المدرسة بعد أن أنهينا امتحانات آخر السنة. خضنا نقاشاً مع الحارس لسؤاله عن السبب، فارتفعت نبرة صوته، وخرج المدير من مكتبه المجاور، حيث كان يراقب المشهد، وأبلغنا من دون سابق إنذار بقرار فصلنا من المدرسة.

في صيف ذلك العام، وأنا في الثالثة عشرة من عمري، بدأت أمضي وقتي في الجامع بوتيرة متزايدة تأثراً ببعض أصدقاء الدراسة كحسن ط. وعلي ك. لكنني بقيت، من وقت إلى آخر، أشترك في اللعب مع أترابي من أصدقاء الحارة الآخرين، على

الرغم من اختلاف أجواء حياتهم المنزلية والاجتماعية عن أجواء التزامي الديني المستجد. كما بدأت أشعر بشيء من النفور تجاه ممارسات أفراد حركة أمل، كإقامة الحواجز العسكرية على الطرقات والاعتداء على الناس بالشتم والضرب، وصولاً إلى إطلاق النار عليهم، وغيرها من التجاوزات التي أبعدتني عن أجواء الحركة.

أذكر في هذا المجال حادثة حصلت أمامي، في ظهيرة يوم من أيام الصيف على شاطئ بلدة الغازية في الجنوب، والذي قصدته مع أهلي للسباحة والاستجمام. تلاسن شابّان بحدة، فأشهر أحدهما مسدسه وأطلق النار على قدمَي الآخر الذي علا صراخه. ابتعد الناس عنهما وهم يرددون بأن مطلق النار هو أحد المسؤولين في حركة أمل.

لم أكتف بإقامة الواجبات العبادية العادية كالصلاة، بل رحت أنفرد بنفسي في أحيان كثيرة أمضيها في أداء صلاة الليل المستحبّة والدعاء والتضرع إلى الله. ثم تكرّس الاعتقاد لديّ بضرورة فرض ما اعتبرته تعاليم دينية واجبة على غيري، لا سيما منهم أفراد أسرتي الذين كنت أدعوهم باستمرار إلى ترك ما اعتبرته منكراً، كشرب الكحول ولعب الورق. قمت برمي زجاجات الويسكي التي كان أبي يحضرها أحياناً إلى المنزل، ومنعت الاستماع إلى الموسيقى والأغاني في حضوري، ونعتّ أفراد العائلة بالكفار والفاسقين، وقمت حتى بإحراجهم مراراً أمام أصدقائهم.

لم أكتفِ بذلك، بل بلغ بي الأمر حدّ ضرب شقيقتي. كانت رلى، الهادئة الطباع، ابنة العاشرة، عائدة من المدرسة في لحظة كنت فيها شديد الانفعال بسبب ما اعتبرته أجواء فاسدة تحيط



بـي. لحظة دخولها المنزل، وبّختها لارتدائهـا «بنطلون الجينز»، ثم تناولت سكيناً وضربتها بها على يدها قائلاً: «الأفضل لك أن ترتدي الحجاب». ركضت أمي لتقف بيننا، ساخطة باكية.

فاقمـت هذه التصرفـات علاقتي بأفراد أسرتـي. تنوعت ردات فعـل الجميع تجاهـي، أبي وأمي وعـادل ورلى، حتـى أخي الصغير حيـدر، مـن شعور بالاستيـاء الشديد ممـا كنت أفعلـه، إلى ذهول أخوتـي وبكائهـم أحياناً من جـراء الحدة التي أبديتهـا في التعامل معهـم، إلى بكاء أمـي الدائم، وحتى بكاء أبي مرة تعبيراً عن مرارة في النفس. لعل الوقع الشديـد للأحداث عليّ خلال حداثة المراهقة نتج من ارتبـاط أفعالي بمضمون ديني وروحي كان له أبعد الأثر على شخصيتي، الانفعالية بطبيعتها.

الجامع

في جامع حي السـراي القديم في النبطية، كانت حلقات النقاش تعقـد جلوسـاً علـى حصير علـى الأرضـ. كان النقاش يـدور على الـدوام، وبحدّة، حول ما اعتبرناه في ذلك الحين مبادئ أساسية في الفقه الشيعي، كضرورة الالتزام بتقليد مرجع ديني شيعي في شؤون حيـاة الفرد جميعها، ومن ضمنها نظرية الإمام الخميني في تطبيق ولاية الفقيه. انعكست النقاشات على تصرفاتي وتصرفات الآخرين الملتزمين بهذه المبادئ، فكنا نراجع المشايخ في أدنى تفاصيل حياتنا اليومية.

تقـوم ولاية الفقيه على مبدأ الرجـوع إلى «الحاكم الشرعي» في كلّ شاردة وواردة من شؤون الحياة، وهو الفقيه الذي يستمد سلطته مـن إمـام الشيعة الثـاني عشر، المهـديّ الغائب بحسـب النظرية.

للحاكـم الشرعي أو الولي الفقيــه سلطة دينية وسياسية على تابعيه تخوّلــه إصــدار «التكليف الشرعي» الذي عليهــم التقيد به. من آثار تلك النظرية تحويل الحوزة الدينية في مدينة قُم في إيران إلى مركز ثقل على صعيد الاجتهاد في التشريع الديني لدى الشيعة، وذلك على حساب تراجع دور الحوزة الدينية في مدينة النجف في العراق.

تعلمــت في الجامع من عدد من المشايــخ أن أهل الكتاب، ومنهم المسيحــي واليهــودي، نجسون، ويجب تطهير الجســد بالماء في حال ملامســة أحدهــم. رغم ذلــك، استمــرت علاقاتــي وصداقاتي مع جــيراني وزملائــي المسيحيــين مــن الأولاد، لكــوني صبيّــاً مراهقاً يحتــاج إلى اللعب، ويضطر إلى ملامســة الآخرين، بطبيعة الحال. في إحــدى المــرات، وأثناء لعب كرة السلة مع مــوني وطوني، لامست يدي يد أحدهما فطلبت إليهما الابتعاد عني وعدم ملامستي لأنهما نجســان، ممــا سيؤدي إلى جعــل بشرتي نجسة، وطلبــت إليهما أن يلعبا بلا ملامسة.

كنــا نتلقى في الجامــع تعاليم أخرى، منها أن أمــوال المسيحيين واليهــود وأعراضهــم مباحة لنا لكونهم من غــير المسلمين. دفعتني هــذه التعاليم مرة إلى غــزو أشجار «الأكي دنيــا» الواقعة في أراض للمسيحيــين دون تلك التي للمسلمين وقطــف ثمارها خلسة. كذلك، كنــت أحاول أحياناً الاقتراب من الصبايا المسيحيات في الحارة وفي ذهنــي طلب «زواج المتعة» منهن للتنفيس عن الكبت الذي كنا نعاني منــه بسبب عــدم الاختلاط بالجنس الآخر وعــدم عقد الصداقات معه.

ممّــا تعلمته في الجامع أيضــاً أن زواج المتعة هو عقد زواج مؤقت تحــدد مدته قبل إجرائــه. المتعة حــلال للرجل المسلم مــع الفتيات



مـن أهل الكتاب فقط، ومع المسلمـات الأرامل أو المطلقات. كما يتمّ تحديـد «مهـر» مادي يعطـى للمرأة. لكـن هامشـ زواج المتعة أخذ بالاتسـاع شيئـاً فشيئاً، كما سمعته في حلقـات النقاش الدينية، من أجـل إشبـاع غريزة الجنسـ عند الشبـان، وكذلك الفتيـات، وكما شاهدته مـن تصرفات العديد من الشبـاب الذين تواجدت بينهم. كان هـؤلاء يلجـؤون إلى آراء عـدد من المشايخ الذيـن وسّعوا دائرة عقد المتعة، وأحلّوه على الفتيات المسلمات غير المطلقات ولا الأرامل، حالهن حال الفتيات من أهل الكتاب.

لعل وجود الفتيات المسيحيات في الحارة خلق في ذهني استعداداً لاقتناص الفرص لطلب زواج المتعة إليهن. لكن هذا الحظ لم يكتمل، بـل اقتصر على اسـتراق النظر إليهـن، خصوصاً في فـترة المساء عندما كنّ يخرجن للمشي في طرقات الحارة بلباسهن المثير.

أذكر هنا تحديداً فتاة تدعى رانيا كنت أدفع بنفسي إلى الاقتراب منها بغية التمهيد لسؤالها إقامة علاقة جنسية معي عن طريق زواج المتعة. إلا أنه نتيجة إحساسي بصعوبة الأمر وتوقّعي رفضها للفكرة، وخشية الحرج الشديد، لم يكن لي نصيب في اكتمال هذه الخطوة.

إلى جانـب التعاليـم الدينيـة ذات البعـد الاجتماعـي، تعلمـت أيضـاً من عدد من المشايـخ أن الفقه الديني، في إطار ولاية الحاكم الشرعـي، يجيـز تغليب المصلحـة السياسية في حـالات معينة على القيـم الأخلاقية، خصوصاً عندما يتعلّق الأمـر بمصلحة المسلمين التـي يحددها أوليـاء الأمر المعيّنـون من قبل الفقيـه الحاكم. كان الأمـر منوطـاً بشرط الحصـول على «فتـوى» أو إجازة مـن هؤلاء، ومنهم مثلاً المسؤولون في الحزب.

عاشوراء

خلقت لديّ هذه الأجواء الاجتماعية الجديدة نزعة إلى العزلة والذوبان في المذهب الديني، بدل الانفتاح والتفاعل مع الآخرين، مما انعكس تطرفاً في التعبير عن آرائي عند الدفاع عن معتقداتي. لم يأت هذا التطرف من الفراغ، بل عززه طابع الحدّة المرافق لطريقة أداء العديد من الشعائر الدينية. فطريقة إحياء ذكرى عاشوراء وغيرها من المناسبات الدينية الشيعية المتعددة المرتبطة بحياة أئمة الشيعة، أهل بيت النبي، مثلاً، أسّس لاعتقاد لدينا بابتعاد المسلمين السنّة عن طريق الإسلام الصحيح.

دفع بنا ذلك إلى ترداد عبارات الشتم واللعن ضد الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر لسلبهما الخلافة من الإمام علي، الخليفة الرابع، باعتبارهما من أئمة السنّة، ولو كان ذلك من باب المزاح، ناهيك عن النزعة العدائية تجاه غير المسلمين من مسيحيين ودروز، والتي كان يبررها لنا قسم من المشايخ بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، بحسب طريقة تفسيرهم لها.

ومن التقاليد التي كنا نمارسها ضرب الرؤوس وشطبها وإسالة الدماء ولبس الأكفان ولطم الصدور والبكاء خلال مجالس العزاء والمناداة بالثأر ممّن قتلوا الإمام الحسين، حفيد النبي وثالث أئمة الشيعة، والدعوة إلى استعمال العنف والقوة ضدهم من أجل رفع الظلم الذي حلّ بالشيعة على مرّ الأزمنة والدفاع عن مصالحهم. أدّت هذه الأعمال بشكل تلقائي إلى زرع فكرة وجود مؤامرة على الشيعة في نفوسنا، ممّا انعكس على تصرفاتنا اليومية سلوكاً عدائياً.

إن اشتراكي في تلك الطقوس الدينية جرى في جوّ غريب عن جوّ أسرتي التي كانت لا تزال تحافظ على مناخ عائلي يتسم بالاعتدال، في محيط كان لا بد أن يترك أثره عليها وعلى كل أسرة في الجنوب، وإن في وقت لاحق.

ثانياً- حزب الله

الانخراط في الحزب

بعد حادثة فصلي من المدرسة الإنجيلية في النبطية، التحقت بمدرسة حبّوش الدولية في قرية حبوش المحاذية للنبطية، والتي كان مستواها الأكاديمي مقبولاً. في تلك الفترة، كان الأفراد التابعون لحزب الله قد انتظموا في خلايا ومجموعات في أرجاء الجنوب والبقاع وبيروت، وكان نشاطهم الأبرز مقتصراً على العمليات العسكرية ضد الاحتلال الإسرائيلي، وعلى التغطية الإعلامية لهذه العمليات، وكذلك على بعض الأعمال التربوية في المدارس والجامعات.

تعرفت إلى مسؤول التعبئة الطلابية للحزب في منطقة الجنوب، صائب ن.، الذي اعتاد الحضور إلى جامع حي السراي للتحدث إلى طلاب كانوا يقصدون الجامع للصلاة وتمضية بعض الوقت. عندما التقيت به، تحادثنا فوجد لديّ الرغبة في الالتحاق بالحزب، ومؤهلات جعلت مني ممثل التعبئة الطلابية في مدرستي على الرغم من صغر سني، إذ لم أكن قد تعديت الرابعة عشرة وأنا في الصف الرابع المتوسط. شعرت بالفرح لاختياري من أجل العمل مع الحزب،

لكـن اندفاعي الأقوى كان في الحقيقة باتجـاه الالتحاق بمجموعات التعبئة العسكرية، الأمر الذي بدأ يلوح لي في أفق بدا قريباً.

بالفعـل، قمـت بـأول أعمالي التنظيميـة في الحزب مـع التعبئة الطلابيـة، من خلال حضوري المنتظم لاجتماعات تثقيفية ومحاولة عرض لوحة حائط في المدرسة تحوي أقوالاً وصوراً للإمام الخميني وبعض المقالات الدينية الأخـرى. من أجل ذلك، كان عليّ أن أتوجه إلى مديـر المدرسة في حبوش، أحمد ن.، لإقناعـه بالسماح بالأمر، لكنه رفض الفكرة لكون المدرسة خاصة ولا تتعاطى بالشؤون الدينية والسياسيـة. لم تفلح محاولاتي العديـدة، وكذلك محاولات المسؤول الطالبي في الحزب صائب ن. في ثني مدير المدرسة عن رفضه.

قـررت بالاتفاق مع صائـب أن أعرض اللوحة رغمـاً عن المدير، مـا دفع بالأخـير إلى إزالتها. دار شجار بيننـا في مكتبه وفي الملعب، وبادرته بالقول: «من غير الجائز أن ترتدي زوجتك الجينز واللباس غـير المحتشم، ولا يجوز لـك إقامة الحفلات الفنيـة ولا رفع صوت الموسيقـى في المدرسـة. كيف تقبل على نفسك منـع عرض شعارات دينية في الوقت الـذي يستشهد فيه المقاومون في تلال منطقة إقليم التفاح المجاورة؟».

أغاظـت جرأتـي المديـر، فأبلغنـي بطردي فـوراً مـن المدرسة. أتذكـر هنـا أنه طلب إليّ مغـادرة المدرسة في الحال، لكنني بقيت في مـكاني وصرت أردد عبارات التحدي التـي استفزته فبدأ بالصراخ في وجهـي. رحت أتراجع تدريجاً باتجـاه باب المدرسة، فتبعني حتى الحقـل المجاور، مكـرراً طلبـه إلي بالمغادرة والابتعـاد، ونحن نكيل لبعضنـا عبـارات غاضبـة، حتى وصلنـا إلى مسافة تجـاوزت سور المدرسـة بحوالى مائـة متر. مباشرة بعد ذلـك، قصدت صائب ن.



وأخبرته بما حصل، فأظهر إعجابه بالتزامي وإصراري على موقفي وشجاعتي، ووعدني بأن الحزب سوف يعيدني إلى المدرسة رغم إرادة المدير.

بعد أيام، زارني زميلي في المدرسة علي ج.، وأخبرني بأن المدير أعلن إقفال المدرسة والإضراب لثلاثة أيام لأنه تلقى تهديداً بالسلاح أثناء توجهه إلى المدرسة. كانت ردة فعلي أن ابتسمت، وكأنه تعبير عمّا جال في خاطري من أن المدير نال ما استحقه، دون أن يكون لي أي دراية مسبقة بالموضوع. إزاء ذلك، لم يجد المدير بدّاً من اللجوء إلى حركة أمل لكونها مسؤولة عن الأمن في الجنوب.

أظهرت لي الأحداث لاحقاً وجود صراع حول النفوذ، كان لا يزال خفياً، بين حزب الله وحركة أمل. لكن الأمر أصبح واضحاً عندما أرسل جهاز الأمن في الحركة عنصرين مسلحين إلى بيتنا ليطلبا إليّ الحضور برفقة أبي إلى مكتب الحركة في النبطية. هناك، تحدث إلينا أحد عناصر المركز، «أبو الرعب»، وطلب إلى والدي الانصراف، ثم أدخلني إحدى «الزنزانات» التي بقيت محتجزاً فيها من فترة بعد الظهر حتى الليل.

كانت الغرفة صغيرة لا تتسع إلا لبضعة أشخاص، مظلمة، جدرانها متسخة ومغطاة بكتابات مختلفة تركها وراءهم من احتجزوا فيها قبلي، وفي أرضها فراش عليه أغطية تفوح منها رائحة العفن. تملّكني سكون لم أعشه من قبل نتج من شعور بالصدمة، كانت تقطعه عبارات بذيئة صادرة عن «السجانين» في الخارج، طغى عليها السباب وشتائم للعرض والنسب. في منتصف تلك الليلة، حضر مسؤول المركز، نور ع.، برفقة عنصرين مسلحين، وكان بالزي العسكري والمسدس على وسطه. أنّبني بشدة مدعياً أنني

كنت على وشك التسبب بنزاع عسكري بين الحزب والحركة. أخلى سبيلي وسلمني إلى مسؤول التعبئة الطلابية في الحزب صائب ن. الذي كان بانتظاري في المركز.

كانت المرة الأولى التي أدخل فيها غرفة اعتقال، وأنا ما زلت حديث السن، لكن الأمر ترك لديّ انطباعاً بأنني على درب أئمة الشيعة الصحيحة، تلك الدرب المليئة بالمعاناة والظلم كما كانت قناعتي حينذاك.

بعد أيام قليلة، رافقت مسؤول التعبئة لمقابلة الشيخ عبد الكريم عبيد في منزله في بَلدة جبشيت، بحضور كاظم م.، أحد القياديين في الحزب. أظهر الشيخ إعجاباً بالتزامي الديني والحزبي، وبمقدرتي على تحمل المشقة في سبيل الله، كما قال، ووعد برفع أمر حادثة فصلي من المدرسة وما تعرضت له من ضغوط إلى مجلس «شورى الجنوب» في الحزب، أعلى هيكلية تنظيمية في ذلك الوقت.

كان السيد عباس الموسوي يرأس المجلس وكان الشيخ عبد الكريم عبيد نائباً له. عند عرض القضية عليه، أخذ المجلس قراراً تكفّل بموجبه تحمل كافة مصاريف تعليمي حتى إنهاء دراستي الجامعية. أبلغني بالقرار صائب ن. وعضو المجلس عباس ف. أثناء زيارتي له برفقة الأول واجتماعنا به في مكتبه في جبشيت. قال لي أيضاً إن هذا القرار هو تعبير عن الإشادة بالجهود التي بذلتها في العمل الحزبي في التعبئة التربوية.

بما أن ما حصل سبّب مشكلة سياسية بين حركة أمل وحزب الله، فقد حال دون إعادتي إلى المدرسة. لكنني حصلت رغم ذلك على



إفادة بإتمام السنة الدراسية بنجاح، نتيجة تفوّقي في المواد الدراسية قبل فصلي. خلق لي ذلك شعبية كبيرة بين أفراد الحزب.

على الأثر، التحقت بثانوية الصبّاح الرسمية في النبطية لمتابعة الدراسة الثانوية. لم أستفد مادياً في تلك الفترة من قرار مجلس شورى الجنوب إلا بشكل محدود لشراء بعض الكتب، حرصاً على أموال الحزب التي كنا نعتبرها أموال العمل الإسلامي المقدسة.

راودتني في هذه المرحلة فكرة أن أترك الدراسة وألتحق بالحوزة الدينية لأصبح شيخاً؛ لم يتحقق ذلك، ربما بسبب تفوقي في الدراسة والرغبة في إكمالها، وبفعل النصائح التي أسداها إليّ، بعد والديّ، مسؤولون في الحزب كصائب ن. وناصر ع.، بحجة أن الحزب بحاجة إلى متعلمين أكثر منه إلى طلاب العلوم الدينية.

كان العديد من الشباب قد التحقوا بالحوزات الدينية، منهم من فضّلها على المدرسة ومنهم من اختارها بعد الفشل في الدراسة. كما ترك المدرسة عدد كبير من الشبان للالتحاق بصفوف العسكر في الحزب. كان لنصائح المسؤولين الحزبيين صدى لديّ لدرجة أنها تعدّت تأثير أبي وأمي، لاعتقادي بقدسية ما يصدر عن أصحاب الشأن في الحزب، بالمقارنة مع ما يصدر عن أي شخص آخر.

التدريب والقتال

في الفترة نفسها، أي في العام ١٩٨٦، كان القتال محتدماً بين حركة أمل وبين الفلسطينيين في المخيمات. كنت أشاهد العديد من عناصر حزب الله يغادرون ويعودون من والى جامع حي السراي في النبطية للاشتراك في القتال إلى جانب مسلّحي أمل. ورأيتهم في مناسبات أخرى يتخذون من الجامع نقطة انطلاق للاشتراك

في الحــرب العراقيــة الإيرانيــة إلى جانب مقاتلي الحرســ الثوري الإيــراني. خلقت تلك المشاهد لديّ رغبــةً في الانضمام إلى صفوف المقاتلين الذين نظرت إليهم بعين الرهبة والتقدير، لما أذكته فيّ من حماســة رؤيتهم باللباس العسكري، متقلديــن بنادقهم في طريقهم لتأديــة الصــلاة. إن الجمع بين صــورة الشباب النابضــ بالعزيمة والمدجــج بالسلاح وبإرادة العسكر، والملتزم بالدين، لم يترك مجالاً لمراهــق في الرابعــة عشــرة مــن عمــره إلا أن يدخــل في نسيج تلك الحبكات المنمّقة.

انتشرت مجموعات التعبئة العسكرية التابعة للحزب في الأحياء، فقررتُ متابعــة دورة عسكرية محلّية تسمّى دورة «تعبئة»، وهي غير تلك التي تعقد في منطقة البقاع في معسكر جنتا أو ثكنة الشيخ عبد الله تحــت الإشــراف المباشر للحرســ الثوري الإيــراني، وهي دورة «مقاتل».

كانــت دورة التعبئة تُجرى في جامع حي التعمير في النبطية، بعد ظهــر كل يوم لمدة شهر كامل، وتقســم إلى قسمين. القسم الأول هو التكتيــك، أي كيفيــة التعامل مــع الأسلحة التــي كان المشرفون على الــدورة يحضرون نماذج منهــا إلى الجامع: «كلاشنكــوف»، «آر بي جي»، «بي كي سي» (التي أذكر كيف انطلقت منها رصاصة مرة عن طريق الخطأ أثنــاء التدريب على فك الأسلحــة وتركيبها). القسم الثــاني هو التخريب، أي كيفية التعامــل مع المتفجرات التي كان يتم إحضار عيّنات صغيرة منها إلى الجامع أيضاً: «تي أن تي»، «سي ٤». وقد حضر في بعض المــرّات مسؤولون إيرانيون للمشاركة في تدريس مواد الدورة. كنا خلال الحلقات التدريبية نقوم بإقفال باب الجامع



لتأمين بعض الخصوصية، حتى في وجه الأشخاص الذين كانوا يحضرون إلى المسجد لأداء الصلاة.

أثناء الدورة العسكرية، توجهنا إلى وادي بلدة شوكين قرب النبطية لإجراء بعض المناورات الليلية الحيّة. استخدمنا الأسلحة الفردية والقنابل اليدوية، وتدرّبنا على أساليب التخفّي والاحتماء والدفاع والهجوم والمباغتة والنجاة من كمائن العدو، كما جرى تفجير عدد من العبوات.

حضر أفراد الأمن في حركة أمل بعد انتهاء المناورات لسماعهم طلقات الرصاص ودويّ الانفجارات، وحصل تلاسن بينهم وبين عناصر الحزب المشرفين على الدورة، فصادروا الأسلحة والمتفجرات التي كانت بحوزتنا دون حصول أي اشتباك. لزمنا الصمت أمام هذا الاستفزاز، بحسب الأوامر التي تلقيناها من المسؤولين في الحزب هناك، منهم علي ح. و نزار س. أظهرت هذه الحادثة بدورها الأجواء المشحونة بين حزب الله وحركة أمل في ذلك الحين.

بعد انتهاء الدورة، كنا على وشك التوجّه إلى البقاع لإجراء بعض التدريبات العملية وللتخرّج، إلا أن التشنجات بين الفريقين أدّت إلى إطلاق نار من قبل حاجز عسكري للحركة عند تقاطع بلدات حاروف والنبطية والدوير على موكب للحزب يضم شخصيات إيرانية كان متجهاً إلى بلدة جبشيت.

شكّل هذا الحادث الشرارة الأولى لاندلاع القتال بين الفريقين. طُلب إلينا البقاء في حالة الاستنفار في أماكن تواجدنا، فلبّيت الطلب الذي أبلغني به أحد الجيران في الحارة، وهو مسؤول في الحزب

يدعى أبو ساجد. اشتركت في عمليات الحراسة الليلية في البيت الذي يقطنه هذا الأخير، وهو من البيوت التي تعود ملكيتها لعائلة مسيحية مهجّرة من النبطية. اندلعت الاشتباكات الفعلية في اليوم التالي، شاركتُ فيها وأنا على عتبة الخامسة عشرة من العمر، أي أنني كنت قد تجاوَزتُ بسنة أو سنتين سن الرشد بحسب الشريعة الإسلامية.

توليت مع رفاقي حراسة المركز وإطلاق النار من بنادق الكلاشنكوف باتجاه مقاتلي الحركة المتواجدين في الشوارع المحيطة، بالإضافة إلى متابعة تفاصيل سير المعركة في أحياء أخرى عبر أجهزة اللاسلكي. قمنا بعد فترة وجيزة بالتقدم باتجاه مواقع جديدة، وتم دفع عناصر الحركة إلى إخلائها بالتنسيق مع مجموعات مقاتلة أخرى تابعة للحزب. استمر تقدمنا حتى بلغنا مشارف النبطية الفوقا، بعد اشتباكات سيطر فيها مقاتلو الحزب على أبرز النقاط المطلة على النبطية.

كانت الأوقات التي قضيتها في تلك الاشتباكات أكثر أوقات حياتي إثارة حتى ذلك الحين. سمعت بعدها ثناء كثيراً من رفاقي علي ص. وقاسم ص. والمسؤول العسكري في النبطية حسين ح. الذي امتدح في «القدر العالي من الروح القتالية والشجاعة». لعل هذا الوصف أتى بعد قيامي بالمبادرة أمام رفاقي ببعض الخطوات العسكرية العملية أثناء المعركة، حيث نجوت من عدة طلقات نارية اخترقت إحداها قميصي بمحاذاة ذراعي، واخترقت أخرى حذائي.

لكن الحادث الأبرز التي تعرضت له بعد أن خفّت حدة التراشق وحل الظلام، كان سقوطي في فتحة المصعد في مبنى قيد الإنشاء اختبأنا فيه بعد الغروب. كنت أسير محمّلاً بذخيرة بندقية رشاشة



مـن نوع «مـاغ». كان الظلام حالكاً. سقطت مـن الطابق الأول على أرضيـة من الحجـارة. استغرقنـي الأمر برهة، بعـد صمت وظلمة حالكة، قبـل أن أحرك جسمي وأجد أننـي أصبت برضوض كثيرة. قطعت الصمـت أصوات رفيقيّ علي ص. وحسـن ص. اللذين راحا يصرخـان: «الشيخ»، وهو لقبـي العسكري، وقـع في فتحة المصعد. قاموا بحملي إلى أحد البيوت المجاورة، حيث اهتمت بي ربة الأسرة التي علمتُ لاحقاً أنها والدة أحد الرفاق المقاتلين.

في وقـت متأخـر من ليل ذلك اليـوم، طُلب إلينا فجـأة التراجع والانسحـاب من مواقعنـا. أبلغني أحد «الإخـوة» بذلك، فعمدنا إلى تنفيـذ الأوامر دون فهم الدافع إليهـا. والغريب أن ذلك حصل بعد أن سيطـر عناصر الحزب خلال يوم واحد على معظم أنحاء مدينة النبطية. أثناء المعركة، وصلـت إلينا معلومات عبر جهاز اللاسلكي تفيد بأن عناصر الحركة قاموا بتصفية عدد من الأشخاص المنتمين إلى الحـزب في المدينة بعد أن أسروهم أثنـاء القتال، عرفت منهم علي ك. وإبراهيم خ. وغيرهما، في وقت لم يقم فيه عناصر الحزب بالمثل رغم أسرهم للعديد من عناصر الحركة.

شعبية داخل الحزب

في اليـوم التالي، انتقلت سيراً علـى الأقدام، لكن بصعوبة نظراً إلى الرضوض في قدمي، إلى منزلي الواقع في الحي المجاور، بعد أن انسحـب عناصر الحزب من الشوارع وانتشر فيها عناصر الحركة. التقيت بعض المقاتلين من الحزب في الطريق، وأخبروني أن الأوامر بانسحابنـا جـاءت نتيجة ترتيبـات سياسية تهـدف إلى عدم إراقة المزيد من الدماء. كما أخبرني علي ص. أن زميلي في المدرسة عباس ع. استشهـد بعدمـا أصابه أحد قناصي الحركـة في عنقه، وأنه ظل

ينزف لساعات بسبب العجز عن نقله إلى المستشفى. كان عباس في سنته الثانوية الأولى، وحيد أهله، ووالدته متعلقة به إلى حد كبير. حزنت للخبر وحاولت تخيّل حالها في تلك اللحظة، لكن فكرة «وجوب التضحية إلى حد الشهادة» كان لها تأثير أكبر عليّ في ذلك الوقت.

عند وصولي إلى المنزل، كانت أمي بانتظاري أمام المدخل. بدا لي ترقبها هناك كما لو أنه طال دهراً، وهي متلهفة لرؤية ولدها يعود سالماً. عانقتني بشغف ودموع وأسى، لعلمها بأنه ليس بيدها حيلة لردعي عن تعريض نفسي لمخاطر الحرب. بعد سؤالي عما حل بساقي، اتصلت بالطبيب الذي عاينني وطلب إليّ أخذ قسط من الراحة.

لم تكن الأحداث أقل وقعاً على أبي وإخوتي، فقد كانوا مذهولين. اجتمعت الأسرة حولي، ولم تعرف كيف تتعامل معي، بفعل التوتر الذي سببته؛ وقد عرفوا أنهم غير قادرين على ثنيي عن مواصلة مغامراتي نظراً إلى العناد الذي تميّزت به منذ الصغر.

بعد انتهاء القتال، باشر مسلحو الحركة باعتقال كل عناصر الحزب الذين شاركوا في الاشتباكات. في إحدى الليالي، داهمت منزلنا مجموعة من خمسة مسلّحين. استقبلتهم أمي التي لم تجد محاولاتها نفعاً ليتركوني وشأني، فدخلوا إلى غرفتي وطلبوا إليّ مرافقتهم. ما هي إلا أمتار، حتى غطوا عينيّ بعُصابة وصاروا يدفعونني بأعقاب البنادق ويكيلون لي الشتائم، وينادونني باسم «رامبو» ساخرين، وهو الاسم الذي لقبني به رفاقي المقاتلون في الحزب على إثر معركة النبطية، تيمناً ببطل فيلم «رامبو» الذي كان يعرض حينذاك في دور السينما. وضعوني في سيارة جالت بنا



حوالي عشر دقائق قبل أن تصل إلى أحد مراكزهم. طلب أحدهم إلى من كان يمسك بذراعي إدخالي إلى «غرفة التحقيق».

كان الوقت متأخراً والعُصابة لا تزال على عينيّ. بدأ بعدها مسلسل أسئلة وأجوبة عمّا قمت به خلال القتال، وبأي اتجاه كنت أطلق النار، وكنت أردّد دائماً أنني صوّبت باتجاه «نادي الشقيف» في النبطية الذي كان يستعمله عناصر حركة أمل مركزاً للقنص. لم أبح أثناء التحقيق باسم أحد من رفاقي، على الرغم من الضرب الشديد على وجهي وقدميّ وسائر أنحاء جسدي. علا صوتي بالبكاء والصراخ من شدة الألم ومن الحالة النفسية التي جعلوني أعيشها.

بعد حوالي ساعتين من التحقيق، تم نزع العُصابة عن عينيّ. قام المحقق الذي كانت بين يديه أوراق كثيرة بالطلب إليّ الخروج إلى الشرفة ومحاولة التعرف إلى المبنى الذي نحن فيه. اتضح لي بعد برهة أنه نادي الشقيف نفسه الذي كنت أطلق النار عليه. بعد ذلك، تمّ اقتيادي إلى غرفة اعتقال في المبنى. كانت صغيرة، فيها أكثر من عشرة شبان معتقلين بدوا في العقد الثاني أو الثالث من العمر، كنت أعرف بعضهم من الجامع، وتعرفت إلى البعض الآخر ممن أتوا من قرى مجاورة. كان الجميع لا يزال مستيقظاً بانتظار قدومي إثر سماعهم الصراخ أثناء التعذيب الذي جرى في غرفة مجاورة.

صحيح أنني قبعت رهن الاعتقال حوالي أسبوع، وأنا صبي لم يتعدّ الخامسة عشرة من العمر بين مجموعة ممن يكبرونه سناً، لكن صحبة السجن بدت حميمة لدرجة أنها أبقت معنوياتي عالية، وعرّفتني إلى شباب منهم الطالب والعامل، العازب والمتأهل. جمعتنا قضية انتمائنا للحزب، وصار كل منا يحاول التخفيف من

حالـة الضغط النفسي الـذي يعيشه الآخرون عـبر التحدث إليهم، وإضفاء شيء من الفكاهة على الحديث أحياناً.

أعطـت مراجعـة والـديّ لبعضـ النافذين في الحركـة ثمارها، إضافة إلى التذرّع بضرورة عودتي إلى المدرسة، فتمّ إطلاق سراحي. عاودت دراستي الثانوية، وفي الوقت نفسه مهامي مع كل من التعبئة الطلابيـة والتعبئـة العسكريـة في الحزب، في أعمـال المرابطة على محاور إقليم التفاح في مواجهة الاحتلال الإسرائيلي كما في التدريب في مخيمات الحرسـ الثوري الإيراني في منطقة البقاع، كانت عادة لا تتعدى عشرة أيام في كل مرة.

بعـد عام على أحداث القتال والاعتقال، أي سنة ١٩٨٧، حصلت معركة الضاحية الجنوبية بين الحركة والحزب. حافظ الحزب هذه المـرة على مواقع تواجده هنـاك، وأقام عدة محـاور عسكرية ثابتة لـه. قام أمن حركة أمل في الجنوب باعتقـالي مع آخرين من أفراد الحزب اعتقالاً احترازياً استمر عشرة أيام، والهدف منه التأكد من عدم مشاركتنا في قتال الضاحية.

كان التواجـد داخل المعتقل أقل دراميـة وتشويقاً في ذلك الحين منـه في المـرة السابقـة، وبـدا كفصل مكـرر لا بد منه مـن فصول صقل الشخصيـة الحزبية لديّ. خلا المشهد هذه المرة من التعذيب والشتائم وأعمال التنظيف المنهكة والشحّ في وجبات الطعام. سهّلت علـيّ تجربتـي السابقة الاعتيـاد على الأجـواء، ما جعـل الأمر أقل إثارة.

كان مـن الموقوفـين معنا مدير عـام مؤسسة الشهيـد في لبنان، والتـي تهتم بعائلات شهداء الحزب، علـي ح. (أبو حبيب)، اعتقله

أفراد من حركة أمل من بلدته جبشيت غرب النبطية. بعد خروجنا من هناك، قال لي إن طريقتي المرحة في الحديث للتخفيف عن رفاقي أعجبته، وحثّني على متابعة دراستي الأكاديمية بأي ثمن. المهم أنه قطع لي وعداً، بصفته الرسمية بحسب كلامه، بالتكفّل بكل مصاريف دراستي حتى نهاية الدراسة الجامعية. أخبرته بأنه سبق لمجلس شورى الجنوب أن اتخذ قراراً بذلك، لكنه أجاب بأن قراره هو يأتي بمعزل عن ذلك القرار.

زيارات

في تلك السنة، كانت صداقاتي مع صبية الحارة المسيحيين كما مع الشيعة غير الحزبيين قد توقفت، واقتصرت على رفاقي في الحزب، مما أدى بي إلى رؤية ما يدور حولي من منظار واحد. قضيت بعض الوقت في تنظيم حملات سياحة دينية إلى سوريا، هدفها زيارة مراقد مقدسة لذرية أئمة الشيعة. قمت بذلك بمعاونة صديقي قاسم ص. (أبو ذر)، وقد نظّمنا معاً أكبر الحملات في منطقة النبطية، وصل عدد الزوّار في كل منها إلى بضع مئات.

أثناء الرحلات، كنت أعرّج ليلاً برفقة عدد من أصدقائي الشباب، سراً، على محلة المرجة في دمشق. كنا نقصد أحد الفنادق من أجل ممارسة الجنس مع فتيات الليل مقابل خمسمائة ليرة سورية لكل نصف ساعة. لكن أياً منا لم يكن يباشر بالاتصال الجسدي إلا بعد الطلب إلى الفتاة التي اختارها إجراء عقد زواج المتعة معه، وباللغة العربية الفصحى.

في أحد الأيام، كنت متوجهاً برفقة أحد أفراد الحزب، علاء ص.، إلى محور القتال في إقليم التفاح؛ وبالرغم من محاولتنا تفادي

نقـاط تمركز أفراد حركة أمل القريبة من الطرقات التي سلكناها، صادفنا مرور دورية لهم اعتقلتنا قبل وصولنا إلى المحور، واقتادتنا إلى مركـز للحركة في بلدة صربا. أخلي سبيـل رفيقي بسبب مركز والـده، وبقيت رهن الاعتقال لخمسـة أيام تعرضت خلالها للضرب المـبرّح، في محاولة لم تكن مجديـة لدفعي إلى البوح بأسماء الرفاق الذيـن كانـوا يتوجهـون إلى المحـور للمشاركة في العمـل العسكري هناك.

كالعـادة، أخلـي سبيلي بعد عمليـات توسل قام بهـا والدي لدى نافذين في الحركة.

أثنـاء عمليـة التحقيـق والتعذيـب، صـادف وجود أحـد عملاء الحزب المتخفّـين، علمت بأمره لاحقاً من خلال أحد المسؤولين دون معرفتـي لاسمه. كانـت شهادته عـن ثباتي وتمسكـي برفض البوح بأسماء رفاقي، بالرغم من التعذيب الشديد، سبباً لاتصال المسؤول في جهـاز أمـن الحـزب ربيع ب. بـي لاحقاً. قـال لي بـأن «صفاتي الريادية» كانت سبـب مراقبته لتحركاتي منذ مدة. طلب إليّ العمل مـع جهـازه، والابتعاد قـدر الإمكان عـن الخطر عنـد المشاركة في الأعمال العسكرية. غمرتني فرحة عارمة في تلك اللحظة. أصبحت مؤهـلاً للانضمام إلى الجهـاز الأمني الذي كنا نعي كحزبيين أن له الأمر والنهي في شؤون الحزب.

أقدار

في السابعـة عشرة من عمري، قبل المعركـة الكبرى بين الحزب والحركـة، والتي جرت في منطقة إقليـم التفاح عام ١٩٨٩، شاركت في أعمـال المرابطـة من مبيت وحراسة وغير ذلـك في محور القتال



هنـاك لمدة عشرة أيام. في اليوم العاشـر، حصل شيء غريب، وهو إصـراري على ترك المحور والعـودة إلى منزل أهلي في النبطية على الرغم من حالة الاستنفـار القصوى ومنع المغادرة لأي كان. دفعني إصراري هذا إلى مقابلة مسـؤول المحور «أبو محمد» للطلب إليه أن يسمح لي بالمغادرة مع رفيقيّ بسام ك. وخضر م. من النبطية. وافق بعد إلحاح شديد.

مشينـا تائهـين عـبر الحقـول والهضـاب باتجـاه النبطيـة، في ظـلام الليل الحالك. تخطّينا مخاطر الطريـق ووصلنا عند الفجر إلى منازلنـا بأعجوبـة، وكأن يـداً خفيةً توجهنـا، إذ كان القتال قد بـدأ بالفعل صبيحة ذلك اليوم، وكان مسلحـو حركة أمل على أعلى درجات الاستنفار في تلك الليلة.

المصادفـة الغريبـة هي أن شرارة القتـال الأولى في تلك المعركة انطلقـت بعـد تسلل عناصر الحركـة من قرية عين قانـا إلى مركز للحزب في قرية عين بوسوار، وقاموا بتصفية عناصر الحزب الثلاثة الذيـن تواجدوا هنـاك بدلاً منـي ومن رفيقيّ. لا أنسى منهم مهدي، الشـاب العشريني الذي لم تكـن البسمة تفارق وجهـه أبداً. حصل ذلك ليلة مغادرتنا المركز.



المحطة الثانية

الضاحية الجنوبية
(١٩٨٩ - ١٩٩١)

النزوح إلى العاصمة

طلب إليّ مسؤولون في الحزب، ومنهم عباس ص.، مغادرة الجنوب على الفور بعد اندلاع القتال في إقليم التفاح. توجهت وحيداً، وعلى وجه السرعة، إلى ضاحية بيروت الجنوبية؛ كانت المرة الأولى التي أسكن فيها العاصمة. استمرت إقامتي في الضاحية ما يقارب سنة ونصف، وذلك في مركز للحزب في محلة بئر العبد، كما في مساكن أخرى مشابهة. لم أكن أملك المال ولم آل على نفسي طلبه إلى أحد، ولم تتوافر لي إلا المقومات الدنيا للمعيشة، المقتصرة على الطعام والمبيت في المراكز الحزبية.

علمت أنه بعد مغادرتي إلى بيروت داهم عناصر الحركة بيتنا في النبطية ليضعوا أيديهم على أوراق هي بالفعل تقارير حول تحركات رفاق لهم من أبناء حارتنا، كتبها أخي الأصغر مني عادل. كان أخي يعمل مع الحزب متخفياً، فيما كان يتابع دراسته في المرحلة المتوسطة في المدرسة الإنجيلية في النبطية. سرّني كثيراً أن أعرف

بنشاطـه، بعد أن اعتقدت أنه علـى طريق الانحراف عن «الصراط المستقيـم» المتمثّل بنهج الحـزب، بسبب رؤيتي لـه باستمرار برفقة الأولاد المسيحيين في الحارة.

توجّـه مسلحو الحركة على الفـور إلى المدرسـة، وأخرجوا أخي بوحشيـة من الصف أمـام رفاقه واعتقلوه لمدة أربعـة أشهر. طوال الشهر الأول، لم يكن أهلي يعلمون بمكان وجوده. قام مسلحو الحركة بعـد تلك الحادثة بمحاولات ضغط عديدة علـى أسرتي لدفعها إلى تـرك منزلنا، منها تفجير سيارة أبي وإلقـاء القنابل الصوتية على شرفة المنزل، وغيرها من وسائـل الترهيب. لكن والديّ آثرا البقاء في المنزل وتحمل الضغوط، بدل التشرد في أماكن أخرى.

بعد ستة أشهر على مغادرتي إلى بيروت، قابلت والديّ وأختي في الضاحيـة حين أتوا لزيارتي للمرة الأولى بعـد رحيلي عن الجنوب. سررت كثـيراً لرؤية أمي وأختي ترتديان الحجـاب، ولرؤية مظاهر التديّـن لدى أبي. اعتـبرت أن التضحيات المتتابعة التي قمت بها قد أتت ثمارها في خلق جو جديد داخل الأسرة ينسجم مع قناعاتي.

خـلال فـترة الإقامـة في الضاحيـة، انتسبـت إلى ثانويـة حارة حريك الرسمية للعـام الدراسي ١٩٨٩-١٩٩٠، لكـن طغيان أجواء الحـرب منعني مـن مواصلة دراستـي بشكل طبيعي، ومـن النجاح في الامتحانـات الرسميـة في ذلك العـام. التحقـت في العام التالي بمدرسة خاصة في برج البراجنة هي ثانوية الآداب، أنشأها المسؤول في التعبئـة الطلابية سابقـاً صائب ن. مع مجموعة مـن أصدقائه، وتمكنت من إنهاء دراستي الثانوية بنجاح.

توجّهت إلى إقليم التفاح حيث شاركت في المعارك الطويلة الدائرة هناك، وبقيتُ أربعين يوماً في محاور القتال، تنقّلت أثناءها بين قرى جرجوع وعين بوسوار وجباع وكفرفيلا وكفرملكي. قادتني الحماسة إلى نقاط القتال المتقدمة في تلّة جرنايا على تخوم كفرملكي. كنا، من جهة، في مواجهة قوات من حركة أمل وعناصر مرتبطة بجهات عسكرية وأمنية نظامية، إضافة إلى عدد من الأحزاب الأخرى، وفي مواجهة قوات لحد والاحتلال الإسرائيلي من جهة أخرى.

نجوت من الموت بعد إصابة في رأسي من جراء قذيفة مدفعية انفجرت فوقي مباشرة على حافة خندق تمددت فيه، في حين قضى عدد من رفاقي على تلك التلة وعلى تلال مجاورة، كان منهم «أبو ساجد» الذي شاركت قبل ذلك في معارك النبطية تحت إمرته.

بطبيعة الحال، تغيبت عن المدرسة أثناء المشاركة في القتال. لكن الإصرار على النجاح في امتحانات البكالوريا الرسمية دفع بي إلى تعويض ما تخلّفت عنه بمضاعفة الجهد في الدراسة، مما جعلني في ذلك العام الناجح الوحيد في الامتحانات على صعيد مدرستي.

في تلك الأثناء، قصدت منزل عمّي أحمد في بلدة جب جنين في البقاع الغربي لعشرة أيام، ابتعاداً عن أجواء التوتر ومناخ الحرب في الضاحية، وطلباً للراحة. كان عمّي يسكن في الجزء المسيحي من البلدة التي تضمّ مسلمين ومسيحيين. كان الفتيان والفتيات هناك يلتقون بشكل عادي، في أجواء لم أكن معتاداً عليها بسبب غياب الاختلاط مع الفتيات في إطار العلاقات الاجتماعية التي كنت أعيشها، زد عليه ضغط العمل الحزبي والبعد عن الأهل والعيش في بيئة عسكرية ذكورية بالكامل، تحولت فيها صورة المرأة عندي إلى مجرد رغبة جنسية. أدى بي ذلك كله إلى أن أطلب إلى ابنة



الجيران، لكونها تجاوزت التاسعة من عمرها، ومن أجل أن أتمكن من مصافحتها وملامستها، إبرام عقد زواج المتعة معي انسجاماً مع ما يفرضه عليّ الالتزام الديني. وقد تطلّب مني الأمر الكثير من الشرح والتبرير.

الالتحاق بالجامعة الأميركية في بيروت

قبل نهاية العام الدراسي، أخبرني رفيق لي عن الجامعة الأميركية في بيروت. زرتها للاطلاع على شروط الدخول إليها، وأعجبت بجوّها. تقدمت إلى الامتحانات المطلوبة في العلوم واللغة الإنكليزية، وجرى قبولي في كلية الزراعة سنة ١٩٩١. عند ذلك، واجهتني مشكلة ارتفاع الأقساط التي كانت سوف تشكّل عبئاً على والديّ، أو عليّ إذا ما حاولت الاستدانة لتغطية النفقات.

كان لا بدّ لي من اللجوء إلى المطالبة بتطبيق مفاعيل قرار مجلس شورى الجنوب بتغطية تكاليف دراستي. راجعت المسؤول في التعبئة الطلابية سابقاً، صائب ن.، وطلبت إليه مساعدتي على تنفيذ القرار عبر الاتصال بمكتب الأمانة العامة للحزب، ففعل وحصل على موافقة السيد عباس الموسوي الذي كان يشغل منصب الأمين العام، بعد أن كان رئيس مجلس شورى الجنوب. ذهبت مباشرة برفقة صديقي أبي ذر من النبطية إلى مقر الأمانة العامة لمقابلة السيد الموسوي الذي تعهّد بدفع المبالغ المطلوبة لتغطية نفقات الدراسة عند استحقاقها.

عند حاجتي الفعلية إلى هذه المبالغ، كانت طائرات العدو الإسرائيلي قد اغتالت السيد الموسوي، وأصبح السيد حسن نصر الله أميناً عاماً للحزب. عاودت الاتصال بصائب ن. الذي راجع

مديـر مكتب الأمانة العامة الجديد. أخبرني بعد عدة أيام أن مدير المكتـب، بعد مراجعة السيد نصر الله، أجابه بأن القرار الذي وافق عليـه السيـد الموسـوي قرار شخصي غـير ملزم للحـزب. شكل رد السيـد نصر الله صدمـة بالنسبة إلي، لمعرفتي بـأن القرار لم يكن شخصياً على الإطلاق، بل هو أتى في سياق أدائي لمهامي التنظيمية في الحزب، وصدر عن مجلس شورى الجنوب وقتها وليس عن السيد الموسوي شخصياً.

رأيت في هذه الحادثة، وأنا على أبواب التسجيل لسنتي الجامعية الأولى، صـورة عن الخلافـات داخل الحزب وعن فقـدان التواصل ضمن مكتب الأمانة العامـة، وبات منطقياً سماع أخبار من نافذين عديديـن في الحزب، منهم أحمـد د. وربيع ب.، تفيد بوجود خلاف في إدارة الحـزب بين الأجنحـة المحسوبة علـى السيدين نصر الله والموسوي.

في النهايـة، بقي لديّ انطباع بأنه ما مـن سبب وجيه يبرر قرار السيـد نصـر الله. كان رأي أحـد الأصدقـاء في الحـزب، عبد ع.، مـرةً، أن أقوم برفع دعوى ضد السيد نصر الله أمام جهاز القضاء في الحـزب، بسبب مخالفته لقـرار تنظيمي. على خـط آخر، قمت بالاتصال بمديـر عام مؤسسة الشهيد سابقـاً، أبو حبيب، لمطالبته بتنفيـذ قراره هـو أيضاً بتغطيـة تكاليف دراستـي، لكنني لم أخرج بنتيجة لكونه لا يستطيـع الوفاء بتعهده. «وكأن التعهد لم يكن»، كما قال. زاد ذلك من خيبة الأمل لديّ.

اضطررت في النهايـة إلى تحميل والديّ الأقساط الجامعية، مع ما في ذلك من عبء كبير عليهما.



شهداء في كل مكان

في تلك الأثناء، انتهت الحرب بين أمل وحزب الله بترتيبات سياسية، أتى إثرها وزير الخارجية الإيرانية علي أكبر ولايتي إلى لبنان ليتوّجها بقراءة العزاء على أرواح ضحايا الفريقين. كان الحديث في ذلك الوقت بين أفراد الحزب يدور حول أن الحرب التي حصلت ما هي إلا محاولة إيرانية للتأثير على الساحة اللبنانية بشكل مباشر من خلال حزب الله، من دون المرور بسوريا والتنسيق معها، مما أدى، ولاعتبارات أخرى عديدة، إلى استعمال سوريا لحركة أمل للوقوف في وجه هذه المحاولة. لكن في النهاية، تشكلت القناعة لدى الإيرانيين بأن دخول لبنان والتأثير الفاعل فيه لا يمكن أن يتم إلا من خلال البوابة السورية.

خلال وجودي في الضاحية، أعلن الجنرال ميشال عون «حرب التحرير»، وكان للسوريين مراكز عسكرية في الضاحية، في العام ١٩٩٠، ولم يكونوا قد دخلوا بعد إلى مناطق تواجد قوات عون في بيروت الشرقية. في تلك الفترة، كنت أقوم بين الحين والآخر بأعمال المرابطة على محاور القتال المحاذية للمنطقة الشرقية.

تضمنت هذه الأعمال المبيت في مراكز حزبية مدعّمة بسواتر ترابية، وفي مواقع للأسلحة تحيط بها الدشم وأكياس الرمل، بالإضافة إلى أعمال الحراسة ورصد التحركات العسكرية في الجهة المقابلة، والتدرّب على فنون الرماية عندما تكون الفرصة متاحة. كما أن مشاهد المناوشات الحربية بين قوات عون وجعجع، والتي كانت تصيبنا بعض شظاياها أثناء حرب الإلغاء، لم تغب عن ناظري، خصوصاً عندما أصاب صاروخ، عن طريق الخطأ مبدئياً، نقطة مراقبة في موقع كنت فيه.

في إحدى الليالي، وعلى مرأى من الناس، حشد السوريون قواهم وبطاريات مدافعهم تحضيراً لاجتياح مناطق تواجد قوات عون. أذكر أنني استيقظت في تلك الليلة على أصوات المدافع وهدير الطائرات الحربية التي كانت مقدمة لقيام الجيش السوري باحتلال هذه المناطق في اليوم التالي. دفعني فضولي إلى أن أحمل الكلاشنكوف وأسير باتجاه إحدى المناطق التي كانت قوات عون تتواجد فيها سابقاً، على محور الصفير.

اجتزت خطوط التماس لأشاهد آليات عديدة من مخلفات قوات عون محترقة مع من بداخلها من شباب لبناني قضى في هذه الحرب، وسط مشاهد تفوح منها رائحة الموت والدمار. كما رأيت الشاحنات السورية تقوم بتحميل ضحايا الجيش السوري الذين بدا لي عددهم مرتفعاً. على الرغم من هذه المشاهد، أحسست بسعادة أثناء تجولي بعد ظهيرة ذلك اليوم، سببها تمكّني من الدخول إلى منطقة بيروت الشرقية للمرة الأولى، قبل أن أعود أدراجي إلى مركز الحزب في محلة بئر العبد.

انتهت الحرب بين الحزب والحركة. عدت إلى منزل الأهل في الجنوب، تاركاً خلفي ما يناهز سنتين من العيش في ضاحية بيروت الجنوبية، وكان الحذر لا يزال يلفّ الأجواء بسبب النفوس المشحونة. كانت الفرحة عامرة عندما عدت فاجتمع شمل العائلة مجدداً. استمرت الأعمال الاستفزازية بين عناصر الحركة والحزب، إلا ان تعليمات المسؤولين في الحزب كانت تفادي ردات الفعل تجاه أي استفزاز، والتركيز على مضاعفة الجهود لمواجهة الاحتلال الإسرائيلي.



قبل الالتحــاق بالجامعة، كانت نشاطاتــي السياسية والعسكرية كثــيرة إلى درجة أثــارت قلق الأهل مجدداً. شملــت هذه النشاطات الانتظــام في مجموعــات التعبئــة العسكرية في النبطيــة، والمشاركة في إحيــاء المناسبات الدينية، وأعمــال المرابطة العسكرية في محاور إقليــم التفاح ناحيــة جبل صافي ومحــور اللويزة، ورصــد نشاطات العــدو الإسرائيلي التي شملت مواقع تحركاته لنصب الكمائن فيها، إضافــة إلى المهــام اليومية من نقــل المياه والطعام علــى الظهور أو تحميلاً على البغال والحمير.

قــادني الاندفاع إلى استعمــال مقدرات أسرتــي في سبيل العمل الحزبــي، كسيــارة والــدي والأموال التــي كنت أطلبها منــه لتغطية التكاليــف الكثــيرة لهذا العمــل، بغض النظر عن تعبــير والدي عن قبول الأمر أو رفضــه. بالنتيجة، أقول إنني دفعت أفراد أسرتي إلى قبــول ما تبنيتــه لنفسي وكأنــه فرض عليهم، ساعــدني في ذلك ما أبديته من عزيمة وعناد.

اعتقال من نوع آخر

قبــل أيام قليلة من انتقــالي إلى الجامعة، كنت متوجهاً إلى بلدة كفرتبنيت للعمل في إحدى المناحل، فأوقفني حاجز للجيش اللبناني عنــد مدخــل البلــدة، وتم اقتيــادي إلى ثكنة مخابــرات الجيش في صيدا، حيث تمّ احتجازي في معتقل ضمّ خارجين على القانون، كما فهمــت من أحاديثهم. كانت غرفة الاعتقــال وسخة تعجّ بالجرذان، وفيهــا فرشــات للنوم لا تكاد تكفي نصــف المحتجزين، مما أدّى بي إلى النوم أرضاً بلباس النحالين الأبيض ومن دون غطاء.

جعلتني تلك الحادثة أترحّم على أيام الاعتقال لدى حركة أمل. قضيت ثلاثة أيام في السجن؛ لم توجّه إليّ أية تهمة أثناء التحقيق، بل طرح عليّ المحقق أسئلة عن نشاطات عدد من المسؤولين والأفراد داخل الحزب وعن تحركاتهم.

في اليوم الثالث، وبعد اتصالات عديدة أجرتها اللجنة الأمنية للحزب، تم إحضاري إلى مكتب الضابط م. الطفيلي، حيث جرى تسليمي إلى مسؤول اللجنة الأمنية في الجنوب. أتى هذا المسؤول لتسلّمي برفقة المسؤول العسكري في الحزب ناصر ع.، وفهمت عندئذ أن الاعتقال كان سببه مذكرة توقيف صادرة عن قيادة الجيش، وأن ذلك كان مجرد وسيلة ضغط لم ترافقها تهمة محددة، والسبب كان نشاطي المتزايد داخل الحزب. أخبرني مسؤول اللجنة الأمنية بأنه تلقى عدداً كبيراً من الاتصالات من المسؤولين في الحزب للعمل على إطلاق سراحي بسرعة. لم تزدني هذه الحادثة إلا اندفاعاً على صعيد الأعمال الحزبية، وإن كان بدأ يظهر عليّ بعض التعب أحياناً من جراء النشاط المستمر.





المحطة الثالثة

الجامعة الأميركية في بيروت (١٩٩١ - ١٩٩٩)

أولاً- السنوات الأولى

قبيل بداية العام الدراسي في الجامعة، شعرت برغبة كبيرة في الدراسة، والانتقال بالتالي إلى أجواء مختلفة من التفاعل مع الآخرين. كان مصدر هذه الرغبة أن الجامعة تضمّ العديد من الاتجاهات السياسية والعقائدية والدينية المنتشرة في المنطقة. انتقلت إلى بيروت مع بداية العام الدراسي ١٩٩١-١٩٩٢ للسكن داخل حرم الجامعة في الغرف المعدة للطلاب، في مبنى «كير هول».

لا أنسى يوم هزّ المبنى انفجار كبير، بعد فترة قصيرة على انتقالي، تطاير على أثره زجاج نوافذ الغرفة. هرعت مع الطلاب إلى وسط الحرم الجامعي بعد سماع البعض يتحدّثون عن سقوط مبنى هناك. اتضح لاحقاً أن الانفجار ناتج عن تفجير «كولدج هول»، أقدم مبنى في الجامعة، والذي كان يضمّ مكاتب الإدارة. وجدنا أنفسنا نقف على ركام المبنى الذي دمِّر بالكامل، وسط كلام بعض

الطـلاب عن وجود جثـة الحارس الليلي تحـت الأنقاض. انصرفنا بعد وقت قصير، تحت وقع الصدمة والتساؤل عن مغزى ما حدث.

خـلال السنة الجامعيـة الأولى، اقتصرت نشاطاتـي العسكرية على أيام العطل، كمـا كنت على علاقة ودية غير تنظيمية مع أفراد التعبئـة التربوية للحزب في الجامعة. كان هؤلاء على علم بارتباطي بأعمـال حزبية سابقة ومتنوعة، ولم يكونوا يتوقعون مني مشاركتهم العمـل بشكل تنظيمي. قام أحد الأصدقاء القدامى التابعين للجهاز الأمنـي في الحزب، وكنت أعرفـه باسم بسّام، بالاتصال بي في تلك المرحلة بهدف سؤالي عن إمكانية العمل معاً في الجامعة. بقينا على اتصال، لكنني لم أشعر برغبة في العمل معه.

في نهاية العام ١٩٩٢، كانت سنة قد مرت على التحاقي بالجامعة، حاولت خلالها أن أتفهـم طبيعة الأجواء المحيطة بي، وتشكلت لديّ فكرة وافية عن ظروف الإدارة والأساتذة والطلاب. غالباً ما نزعت إلى الابتعـاد عن الطابع الجدي الذي كان قد طغى على شخصيتي، من قبيل ردة الفعل ربما، لأظهر عوضاً عنه نوعاً من الفكاهة والمزاح في طريقة التعامل مع الآخرين.

علـى صعيـد علاقتـي بإخوتي، ونتيجـة ما اختبرته مـن الحياة الجامعية، شعرت بالرغبة في زرع الحافز فيهم للالتحاق بالجامعة، بالرغـم ممـا كان يحول دون ذلك من عقبات ماليـة. ساعد اعتبار والـديّ تعليمنـا مـن أولى أولوياتهمـا، وحصـول أختـي على منحة ماليـة مـن مؤسسة الحريري، على تذليل بعض هذه العقبات، ممّا مكّننـي وأخي عادل وأختـي رلى، ولاحقاً أخي حيـدر، من الالتحاق بالجامعـة الأميركية، الأمر الذي لم يكن معتـاداً أو متوقعاً مع دخل والديّ المحدود. يمكن القول إن مصاريف الدراسة استنفدت موارد



الأسـرة بالكامل، لدرجة أنها لم تتمكن مـن امتلاك منزل للسكن. لكـن ما حقّقه أبي وأمي من تأمين أفضـل فرص التعليم لأولادهما، كمـا كانـا يأملان دومـاً، كان بمثابـة تعويض لهما عـن أمور أخرى فاتهما تحقيقها.

إن أجـواء العيش المستجدة في الجامعـة لم تحل دون محافظتي علـى الالتزام الديني، بل أصبح التزامـي العقائدي والسياسي أكثر عمقـاً. تشكلت لـديّ القناعة أيضاً بـأن بيئة الجامعـة بيئة فاسدة لكونهـا تشكل نموذجـاً أميركياً للحيـاة ولوجود المنكـرات العديدة فيها، من ضمنها قيام الشباب والصبايا بجلسات العشق الحميمة، وغيرهـا من مظاهر السلوك غير المحتشم، مما أوجد لديّ ردة فعل سلبية.

في تلـك الفترة، ارتبطت بعقد زواج متعـة سرّي لمدة تعدّت عاماً كاملاً مع فتاة في العقد الثالث من العمر تدعى فاطمة، كانت تقطن في النبطيـة حيث تعرّفت بها في أحـد المحال التجارية أثناء ابتياعي لبعض الملابس الصيفية. حدّثتها بجرأة وثقة بالنفس، وطلبت إليها أن نلتقي سراً لنتحدث. ابتسمَت، فتنهدتُ، وتواعدنا، ثم كان اللقاء في بيـت أحـد الأصدقاء. تجـدّدت اللقـاءات الحميمـة بيننا بشكل متواصل أثناء العطل.

هكـذا كنت أرفض مـا كان يحصل في العلـن في حرم الجامعة، وأسعى وراءه في السرّ. لطالما سألت نفسي فيما بعد، ولو بصمت: أيّ نفاق هذا، ومن أين أتى، وكيف دخل إلى حياتنا ليصبح نمطاً؟ على أي حـال، كانت الحرب الأهلية اللبنانية قـد انتهت، وبدأت مفاعيل السلم الأهلي وحلّ الميليشيـات، مما انعكس على جوّ الجامعة: خفّت أنشطـة القوى الحزبية، واختفـت بعض المظاهـر السابقة كإدخال

السلاح إلى الحرم الجامعي والتدخل بشؤون الإدارة والأساتذة والطلاب بشكل سافر. وعملت إدارة الجامعة جاهدة على فرض قدر أكبر من النظام.

ممثل التعبئة التربوية للحزب

بعد تخرّج القسم الأكبر من الطلاب الذين كانوا ينشطون حزبياً، تراجعت قدرة الطلاب الجدد على الاستمرار بالزخم نفسه. شمل ذلك طلاب حزب الله الذين كانوا يبحثون عن ممثل كفء للتعبئة التربوية في الجامعة. كان ذلك في أواخر سنتي الدراسية الأولى. ونظراً إلى الفكرة التي تكونت لديّ حول أهمية الجامعة الأميركية كساحة للتفاعل والتأثير في المنطقة، اعتبرت أن تكريس وقتي للعمل الطالبي أكثر أهمية من القيام بالأعمال الحزبية الأخرى، العسكرية منها والأمنية. على ضوء ذلك، زرت مركز التعبئة التربوية في محلة بئر العبد في الضاحية، واجتمعت بمسؤولين هناك، منهم سيِّد ج. وأحمد ع.، وعرضت استعدادي لأن أكون ممثل التعبئة في الجامعة، فرحبوا بذلك.

بعد اجتماع آخر مع المسؤولين المركزيين في التعبئة، وعلى رأسهم حسين ح.، لمست أن نظرتهم إلى الجامعة الأميركية لا تتلاقى مع نظرتي. كانوا يعتبرونها كباقي الجامعات ولا يعيرونها الاهتمام الكافي، وكأن الأمر ناتج من شعور بالنقص لديهم تجاه الجامعة لكونها أميركية، مع ما يعنيه ذلك من إنجازات على المستويات التربوية والثقافية والسياسية والاقتصادية. وربما ساعد على تشكّل هذا الموقف إعلان الحرب على كل ما هو أميركي بعد وصف الإمام الخميني لأميركا بالشيطان الأكبر.



كان جهاز التعبئة التربوية المرجع التنظيمي لي كممثّل للتعبئة في الجامعة، ومع وجود تلك النظرة لدى المسؤولين هناك، وجدت نفسي أمام العديد من القيود التي اعتبرتُ أنها ستشكل عائقاً أمام نجاح مهامي الحزبية والأهداف المتقدمة التي رسمتها في ذهني، ما يتعدى نظرتهم تلك ويتناسب مع أهمية الجامعة.

في ظل ما اختبرته خلال عملي الحزبي، عرفت أن من الصعوبة بمكان إحداث تغيير في الهيكلية التنظيمية للحزب في وقت قصير لتتماشى مع أهمية العمل الطالبي في الجامعة الأميركية. قرّرت الاستعانة بمعاريفي الحزبيين السابقين، كربيع ب. وعامر ش.، لمساعدتي على تخطي العقبات التنظيمية التي قد تعترضني، وذلك بعد أن شرحت لهم ما أحمله من توقعات لتطوير العمل الحزبي هناك. وهكذا اتبعت طريقة مزدوجة في العمل: سلوك القناة التنظيمية الرسمية من خلال التعبئة، والاستفادة من الدعم الممكن من خارجها.

قبل استلام مهامي فعلياً، وبحسب مشورة أصدقائي من خارج التعبئة بهدف الحصول على التأييد اللازم، أخذ هؤلاء الأصدقاء على عاتقهم ترتيب لقاء لي مع الأمين العام السيّد حسن نصر الله لعرض الموضوع عليه. لكنه كان مسافراً إلى إيران لفترة تتعدى أسبوعين كما قيل لي، فعرضوا عليّ مقابلة نائبه الشيخ نعيم قاسم كسباً للوقت.

مع نائب الأمين العام

بالفعل، حصل اللقاء في منزل الشيخ قاسم، عرضت عليه خلاله بشكل مفصّل رؤيتي للعمل في ساحة تتفاعل فيها الفئات المختلفة،

عدا عن كونها أميركية، مما يضفي على الموضوع طابع المواجهة والتحدي. قلت له إنني إذا حظيت بدعم كاف واستطعت العمل كما كنت أخطط، يمكن عندئذ التحكّم بأهم المفاصل الرئيسة في الجامعة، والمتعلقة بالطلاب والأساتذة والإدارة، وخلق دائرة تأثير مهمة وغير مسبوقة للحزب هناك.

أذكر أنني استعملت في الحديث حرفياً عبارة «أستطيع أن أجعل الجامعة في قبضة يدنا». كما تحدثت عن ضعف في البنية التنظيمية للتعبئة التربوية بسبب تفوّق الأجهزة الأمنية والعسكرية عليها، مما لا يمكّنني بالسرعة والمستوى المطلوبين من تلقي الدعم اللازم في حال حصول ما يستدعي التدخل بفاعلية.

استمع الشيخ قاسم إلى الحديث باهتمام لافت، ووعدني بأنه سيوفر لي الدعم الكافي أثناء ممارسة مهامي، في الوقت الذي طلب فيه مني أن أحافظ على علاقتي التنظيمية ضمن التعبئة. انتهى اللقاء بعد أن شعرت بوجود الحد الأدنى من الاهتمام الذي كنت أتطلّع إليه. إضافةً إلى ذلك، وقبل أن أتسلم مهامي الرسمية في التعبئة التربوية، كان لي شرط أساسي وافق عليه المسؤولون هناك، تمثّل بألا يقوم أحد من الحزب بالتدخل في تفاصيل العمل في الجامعة إلا بعد إطلاعي على الموضوع.

بعد ملاحظتي أن هامش عمل القوى الحزبية في الجامعة، وبالأخص حزب الله، قد ضاق، كان لا بد لي أن أعمل على تشكيل نواة قوية تعطي الدفع اللازم للانطلاق في العمل قبل القيام بأي نشاطات واسعة. عملت على إعداد هذه النواة عبر الاستفادة من العدد القليل من الطلاب الحزبيين الموجودين وقتئذ، بالإضافة إلى التركيز على استقطاب طلاب من خارج الحزب. استمر الأمر على



هـذا المنوال لفـترة تعدّت السنة، أي حتى أواخـر ١٩٩٣، حين وصل العـدد إلى أكثر مـن خمسين طالـب وطالبة من ضمـن مجموعات تنظيمية.

في هذه الفترة أيضاً، لم تكن هناك من حاجة لأي تدخل أو دعم مـن الأصدقاء خـارج التعبئة التربوية، بسبب غيـاب الأنشطة التي تتطلـب الاحتكاك بـالإدارة وبالقـوى الحزبية الأخـرى. كذلك، لم تحصل أية إشكالات تنظيمية مع المسؤولين في التعبئة.

بالرجـوع إلى بعض القضايا التـي كانت عالقة عنـد استلامي لمهامي التنظيمية في العام ١٩٩٢، قامت إدارة الجامعة بإقفال نادي التراث العربي الذي كان محسوباً على حزب الله. فشلت كل محاولات مسؤولي التعبئة السابقين لثني الإدارة عن قرارها، ولم يروا بالتالي بـداً من اللجـوء إلى لغة التهديد كوسيلة أخـيرة. طلبت إليهم مهلة قصـيرة لمحاولة حـل الموضوع قبـل اللجوء إلى العنـف. زرت عميد الطلاب حينذاك، فوزي الحاج، لأفاوضه حول الأمر، فأحالني على رئيسـ الجامعة بالوكالـة إبراهيم السلطي الـذي استطعت إقناعه بالعودة عن قرار إقفال النادي. بعد اطّلاع المسؤولين في التعبئة على النتيجـة، عبّروا عن دهشتهم لمعرفتهم بأن الرئيس كان صلباً لجهة تنفيذ قرارات الجامعة.

أذكـر قضية أخرى، وهي توجيه دعـوة إلى السيّد محمد حسين فضـل الله لإلقـاء محاضـرة في الجامعة في خريف عـام ١٩٩٢. لم يكـن السيّد يوافق على الحضور إلا بدعوة من إدارة الجامعة، والتي رفضت توجيهها بالرغم من إلحاح مسؤولي التعبئة السابقين. قمت بترتيـب لقاء خاص مع السيد فضل الله، وطلبـت إليه الموافقة على المشاركـة في حال لم تمانـع الإدارة، حتى لو لم تقـم بتوجيه الدعوة

بنفسها، فوافق. ثم قابلت رئيس الجامعة، واتبعت معه طريقة التفاوض نفسها التي اعتمدتها بالنسبة إلى موضوع النادي، ولا أدري إذا كان يصحّ اعتبارها من باب الترغيب والترهيب، إذ طلبت إليه عدم رفض حضور السيد فضل الله إلى الجامعة. جاء جوابه ابتسامة عريضة واهتماماً أبداه، ولو من دون كلام، ما كان كافياً لأعتبره عدم الممانعة.

ألقى السيد فضل الله المحاضرة في قاعة المحاضرات الكبرى في الجامعة، وقد لقيَت نجاحاً باهراً، من أهم مؤشراته تدافع جمهور الجامعة للحضور بأعداد كبيرة. انتزعت في ذلك اليوم من مكتب الحماية في الجامعة مهمة تسلّم الأمن على المداخل وفي قاعة المحاضرات، وأوكلتها إلى طلاب الحزب. أبدى لي المسؤولون في التعبئة تقديراً كبيراً لإنجاحي هذا الأمر، لكنهم صنّفوني إثر ذلك في خانة المتعاطفين مع السيّد فضل الله، كما تبيّن لي لاحقاً، في وقت لم يكن الأمر أبداً على هذا النحو.

لعلّ سرعة تواصلي مع السيّد وسرعة تجاوبه كانتا من أسباب هذا التصنيف. لكن حساباتي كانت مختلفة، فقد كان همّي الأساسي إنجاح المحاضرة نظراً إلى أهميتها، بغض النظر عن أي اعتبارات أخرى. لم أكن حينذاك على علم بعمق الخلاف بين حزب الله والسيد فضل الله، بل عرفت بذلك لاحقاً من خلال ما سمعته من أحاديث ونقاشات جرت بين الحزبيين، أظهرت لي تمايزاً بين الاثنين بسبب رفض السيّد الانحراف ضمن الإطار الحزبي، وتمتعه بنوع من الاستقلالية بخصوص العلاقة مع السلطات الإيرانية، على عكس الحزب.



بعد مرحلة تنظيم الصفوف، والتي دامت ما يقارب السنة، شعرت بأن النواة المؤلفة من طلاب الحزب باتت جاهزة لخوض نشاطات قد تحمل نوعاً من الصدام مع الإدارة أو مع جهات أخرى في الجامعة. اعتمدت في تعبئة الأفراد على تثبيت فكرة التكليف الشرعي في أذهانهم، كامتداد لولاية الفقيه الممثّل بولي أمر المسلمين في إيران، وكان اعتقادنا بأنها تستمد حجيتها من الله، إلى درجة مصادرة هامش المناقشة والنقد في سبيل تنفيذ الأوامر بشكل صارم.

خصصنا في تلك الأثناء إحدى الغرف في سكن الطلاب في «كير هول» لتكون مصلى، رغم عدم موافقة الإدارة. قمت كذلك بتخصيص غرفة أخرى مكتباً للحزب في الجامعة، واستقدمت لهذا الخصوص خطاً خارجياً للهاتف وتجهيزات مكتبية وهاتفاً نقالاً. أثارت هذه الأنشطة الاستعراضية حفيظة الصحافة اللبنانية المعارضة لها، فأشار إليها جبران تويني في مقالات ساخرة كتبها في صحيفة النهار في العام ١٩٩٤، بصفتها مظاهر قوة أردت تحدّي الإدارة من خلالها.

نالت كذلك ضرورة الاستعداد لمحاربة ما سميناه بالفساد المنتشر في الجامعة حيّزاً هاماً من تركيزنا. تمثّل أول تصدّ علني للموضوع بمحاولة منع نشاط «Open House» في ربيع العام ١٩٩٣. كان النشاط عبارة عن تقليد سنوي يقوم على زيارة الطلاب والطالبات إلى حرم سكن الطلبة لفترة ساعتين بهدف الاطّلاع على نمط عيش الجنس الآخر. وكان ذلك يجري ضمن ضوابط محددة درجَت الإدارة على مراعاتها.

في الوقت المخصص للنشاط، طلبت إلى طلاب الحزب التجمّع على مداخل «كير هول» و«بنروز هول» المعدَّين لسكن الطلاب الذكور، ووجّهت إليهم تكليفاً شرعياً يقضي بعدم السماح لأيّ طالبة بالدخول، وكذلك بعدم ترك مواقعهم بغض النظر عمّن سيواجهون.

لم يقتصر الأمر على ردّ من الطالبات، بل تعداه إلى حضور حوالي ثلاثمائة فرد وضابط من قوى الأمن الداخلي والجيشين اللبناني والسوري، محاولين عبثاً دفعنا إلى التراجع عن موقفنا. لجأ بعض عناصر القوى الأمنية إلى إطلاق الرصاص أمام مبنى «كير هول» على مرأى من مئات الطلاب في محاولة لتفريق طلاب الحزب. لم يتزحزح هؤلاء قيد أنملة، بل قابلوا كل ذلك بأن راحوا يرددون الشعارات الدينية، باعتبارهم يقومون بمهمة مقدسة في النهي عن المنكر.

كما حضر إلى المكان أعضاء إدارة الجامعة، أهمّهم عميد الطلاب فوزي الحاج ونائب الرئيس مخلوف حدادين، برفقة الضباط الذين حضروا، وطلبوا إليّ السماح بإجراء النشاط. قالوا إنهم تلقوا تعليمات صارمة من إدارة الجامعة في نيويورك بضرورة إجرائه، لكن ذلك لم يفلح أيضاً في استجابتي لطلبهم.

وردت الحادثة في عناوين الصحف في اليوم التالي، وجاء في صحيفة الديار أنها سابقة من نوعها منذ تأسيس الجامعة. اضطررت إلى الاستفادة من مساندة أصدقائي الحزبيين من خارج جهاز التعبئة التربوية، عبر إجراء الاتصالات المباشرة مع مسؤولين رفيعين في الحزب للتنسيق معهم. أقول بثقة إنه لولا هذه الاتصالات وما رافقها من تنسيق مع نافذين من القوى الأمنية، لكانت هذه



القـوى اعتقلت طلاب الحـزب الموجودين في المـكان وزجّت بهم في السجون.

الغاية تبرّر الوسائل

بعـد جو التوتر الذي برز في حادثـة الـ «Open House»، شعرت إدارة الجامعـة بوجـود تحـدّ حقيقي لهـا من قبل طـلاب الحزب. شعرنـا بدورنا بثقة كبيرة بالنفس دفعتنا إلى توسيع هامش نشاطنا الحزبـي، ليبلـغ إقامة صـلاة الجمعة داخل الحـرم الجامعي أمام الطـلاب بشكل متواصل، أحيانـاً في باحة مدخل «كير هول» وأحياناً أخـرى أمام «وست هول» مـكان تجمّع الطلاب عادة، حيث كان يبلغ عدد المشاركين في الصلاة حوالي خمسين طالباً. كما كنا نقوم بنشر اللافتـات الدينية بكثافة في أرجاء الجامعة في كل مناسبة إسلامية شيعية.

بلغت الأمور ذروتها عند إحياء ذكرى عاشوراء، ما استفز وسائل إعـلام أشارت إلى أن حزب الله يحتـل الجامعة، منها إذاعة مونت كارلـو على ما أذكر، والتي وصفت حـرم الجامعة في إحدى نشرات الأخبار على أنه «متّشح بالسواد».

رأى طلاب الحزب في الجامعة أن الحرص على مصالحهم كان في مقدمـة أولوياتي، مهما تعقّدت الأمور، مما أشعرهم بالطمأنينة عنـد تنفيذهـم التعليمـات الموجّهـة إليهـم، وجعلهـم يتأكدون من استعدادي لفعل كل ما يمنع تعرّضهم لأيّ أذى جراء إنجاز المهمات. لم يكـن هـذا الحرص كلاماً فارغاً، بل إنه تُرجـم أفعالاً وتهديدات طالـت عـدداً من الأساتـذة والإداريـين عندما وقعـت أيديهم على تجاوزات لأنظمة الجامعة قام بها طلاب الحزب.

أذكـر هنا مثالاً معـبّراً؛ اعتقاداً منا بأن الشيعـة هم في تعرّض مستمر لمؤامرة تهميشهم، قمنا بمحاولات اختراق أنظمة امتحانات الدخـول وملفاتهـا مـن أجل تمكـين أكبر عدد ممكن مـن الطلاب الشيعـة مـن الانتسـاب إلى الجامعة. عندمـا انكشفـت بعض تلك المحاولات، طلبت، بلغة لم تخلُ من الترهيب، إلى الإداريين المسؤولين عن ملفات الالتحاق عدم إثارة الموضوع، فلم يفعلوا.

من المهام التي أوكلت إليّ كإرث أسلافي الحزبيين، ودون أن يكون لي شرف السبق في ابتداعها، مهمة الطلب إلى الأساتذة في نهاية كل فصل دراسي زيادة علامات طلاب الحزب الذين كانوا بحاجة إلى رفـع معدلاتهم. أتت هذه المهمة ضمن ما سميناه بالعلاقات العامة، وكنت أضطر في بعض الأحيان إلى تهديد الأساتذة لتحقيقها.

في حادثـة من نوع آخر، قمت مرة بالإصرار على إدخال سيارتي الخاصـة إلى حرم الجامعة بصفتي ممثلاً للحزب هناك، بما يعني ذلك من تمييزي عن ممثلي الأحزاب الأخرى جميعاً، لإظهار القدرة علـى فرض مـا نريده رغماً عـن الإدارة، وبغض النظـر عن تقيّدنا بالأنظمة. ولا يسعني الآن إحصاء جميع التجاوزات لكثرتها.

نهي عن المنكر

لم تقتصـر النشاطـات التي قمنـا بها على الأمـور المذكورة، بل تعدتهـا إلى أمور لا يمكـن إلا أن تصنّف في خانة التطرّف في تحدّي الآخريـن. كان منها لجوؤنـا، بعد إصرار منـي، إلى تسيير دوريات طالبيـة في أنحاء الحـرم الجامعي، في حملة قمنـا بها تحت عنوان «الأمـر بالمعروف والنهـي عن المنكر»، لمنـع الشبـاب والصبايا من الجلوس بشـكل حميم على المقاعد المنتشـرة في الحرم. لم تقتصر

هذه الدوريات على أوقات النهار، بل كانت تتمّ في الليل أيضاً وبشكل منتظم، وتعدّت أماكن الجلوس المكشوفة فبلغت الأماكن المخفية بين الأشجار وخلف المباني. كما حملنا الإدارة على إصدار تعميم تطلب فيه من الطلاب الامتناع عن إقامة تلك الجلسات، تجنباً لإشكالات قد تحصل بيننا وبينهم.

لا تغيب عن بالي حادثة رشّ إحدى الساحات الخضراء في الجامعة، وتسمّى «غرين أوفال»، بمبيد للأعشاب في إحدى الليالي من أجل إزالة طبقة العشب التي كان الطلاب والطالبات يستلقون عليها بأشكال بعيدة عن الحشمة أحياناً. تطلبت هذه العملية الكثير من الجهد في رصد محيط الساحة والتواصل عبر الأجهزة اللاسلكية لتجنب ملاحظة حرّاس الأمن للمنفّذين ينقلون كميات كبيرة من المبيد ويرشّونها، بعد حلها بالماء بالقرب من المكان.

لماذا لم تخطر على بالنا في تلك الأثناء تساؤلات عن سبب رفضنا للعلاقات الحميمة بين الشبان والشابات؟ ما كانت أسبابنا ودوافعنا، حين كنا نسعى سراً وراء العاطفة والجنس، ونرفض أي تعبير عنهما في العلن؟ لا شك في أننا لم نكن في انسجام مع أنفسنا؛ وفي الأمر مفارقة كبيرة، لأن غياب ذلك الانسجام كان يكرس ازدواجية في معايير التقييم لدينا، لا تنسحب على النظرة إلى العلاقة بين الرجل والمرأة فحسب، بل كذلك على ما عداها من سلوك في الحياة.

الموت لأميركا!

على صعيد الأنشطة ذات الطابع السياسي، كنا نقوم في العديد من المناسبات بالتعبير الحاد عن مواقفنا السياسية، إن لم يكن بواسطة إلقاء الخطب، فمن خلال توزيع المناشير ونشر الملصقات

في أرجاء الحرم. دعَونا مرة إلى مظاهرة للتنديد بالسياسة الأميركية، لبّاها عدد كبير من الطلاب، وقاموا خلالها بحرق العلمين الإسرائيلي والأميركي في وسط الحرم، وبترديد شعار «الموت لأميركا»، دون الاكتراث لممانعة عميد الطلبة. كما قمنا بدعوة العديد من الشخصيات الحزبية لإلقاء المحاضرات في الجامعة، دون إذن الإدارة. حاضر السيد فضل الله مجدداً لمرتين مثلاً، ما بين عامَي ١٩٩٣ و١٩٩٤.

ومن الأنشطة التي عارضتها الإدارة وحاولنا التصدي لها أيضاً، إحضار آلة تصوير مستندات خاصّة بنا إلى مبنى السكن في «كير هول»، وتقديم خدمة نسخ الأوراق للطلاب بأسعار رمزية. كان هدفنا تقديم خدمات متنوعة إلى الطلاب بهدف استمالتهم، كما كنا نستعمل الآلة لنسخ منشوراتنا.

قمنا كذلك بتأمين خدمة التخابر الدولي وبيعها للطلاب، عبر جهاز الهاتف النقال الذي أحضرناه إلى الجامعة، قبل اعتماد نظام الهاتف الخلوي في لبنان. بلغت بنا الأمور حدّ التأثير بشكل كبير على قرارات إعطاء المنح الدراسية من قبل مكتب شؤون الطلاب في الجامعة، والتحكم بتوزيع عدد من الغرف في مباني السكن على طلاب «كير هول» و«بنروز هول» بشكل أساسي، خصوصاً في الطوابق العليا ذات الأفضلية.

أذكر هنا تقديم غرفة سكن لأحد الطلاب الوافدين من الجنوب، بعد عجز النائب بهية الحريري عن تأمين غرفة له رغم اتصالها بعميد الطلبة، بحسب ما نقله إلينا المشرف على «بنروز هول».

بفعـل شعبيّـة خلقناها بين الطـلاب، بالرغم ممـا قمنا به من تعرّضـ لحرياتهم الشخصية وفرض أنماط سلوك معيّنة عليهم في أحيان كثيرة، استطعنا السيطرة على إدارة معظم النوادي الثقافية في الجامعـة مـن خـلال المشاركة في عمليـات الاقـتراع. حصل في مناسبـات عدة عراك بالأيدي مع طلاب ينتمون إلى أحزاب أخرى، كالحزب السوري القومي الاجتماعي، صبّ فيها طلاب الحزب جام غضبهـم عليهم، مما استدعى تدخّل رئيس الجامعة المنتدب سمير مقدسي وعميد الطلبة فوزي الحاج لفض الخلافات.

شاركنـا أيضاً، ولو بشكل محدود، ونتيجة الطلب إلينا من بعض المستخدَمـين في الجامعة، في انتخابات نقابـة عمّال الجامعة، عبر المساهمة في حملات الدعاية الانتخابية. كل ذلك جعل عامَي ١٩٩٣ و١٩٩٤ مفعمَين بالأحداث المتتالية التي مهدت لأحداث أكثر درامية في أواخر العام ١٩٩٤، كما سآتي على ذكره لاحقاً.

مكّنتني إدارة الأحداث مـن أن أحظى باحترام مجتمع الجامعة الأميركيـة، ممّا جعل العديد من الأساتـذة والإداريين يبادرون إلى الاتصـال بـي لإطلاعي على الكثير مما يـدور في الأقسام المختلفة، وأحياناً لتزويدي بملفات إدارية أو مالية معينة، وللطلب إليّ التدخل وإظهار الدعم في مناسبات عديدة.

على سبيل المثال، كنت من أوائل مَن كُشفت لهم تفاصيل «صندوق الحريـري السـري» في الجامعة، والـذي كان العديـدون يتلقون من خلاله أموالاً من خارج الإطار الإداري الرسمي. كذلك كنت مرجعاً لحل الخلافات بين عدد من الأساتذة، وبخاصة الشيعة. وقد حاولت جمعهـم ضمن دائرة مصالـح واحدة، بعد التـذرّع بتعرض الشيعة لمحاولات إقصاء عن الساحة الجامعية.

إزاء كل ما سبق، لم تنفع محاولات الإدارة التصدّي لنا بفعل العدد الكبير من الطلاب الذين وقفوا في وجهها. في إحدى المرات، وفي ردة فعل على محاولات من هذا القبيل، توجّهت مع عدد من الطلاب إلى مكتب عميد الطلبة وسألناه إخلاء المكتب مع موظفيه.

مكثنا لمدة ساعتين في المكتب بعد أن أقفلنا الباب. لم يبادر العميد إلى الاتصال بقوى الحماية، ولست أنسى الجملة التي ردّدها على مسمعي حينذاك: «طوال فترة عملي كعميد للطلبة، والتي قاربت العشرين عاماً وشملت أيام الجميّل وجعجع، لم يمرّ على رأسي أحد في الجامعة مثلك ومثل أخيك».

كان التأثير الكبير على مجريات الأمور في الجامعة محطّ أخذ وردّ كبيرين بين الإدارة الأميركية في نيويورك والإدارة المحلية. حاولت الأخيرة الحد من هذا التأثير عبر اتخاذها القرار بإعادة إحياء انتخابات المجالس التمثيلية للطلبة، بعد توقف دام طيلة سنوات الحرب الأهلية، وعملت على دفع مجموعات طالبية منتخبة إلى الوقوف في وجه امتداد تأثير طلاب الحزب. لم تنجح هذه المحاولة، خصوصاً بعد تمكّننا من التأثير على قرارات أعضاء المجلس الطالبي المنتخب، إلى درجة استقالة معظم هؤلاء الأعضاء في وقت لاحق كما سيأتي ذكره تباعاً.

لم يقتصر نشاطنا على ساحة الجامعة كطلاب حزبيين، بل كان المسؤولون في التعبئة يطلبون إلينا المشاركة في مناسبات سياسية وعسكرية عديدة، مثل المساعدة في تنظيم الانتخابات النيابية في الضاحية في دورتها الثانية بعد انتهاء الحرب الأهلية، حيث لا أنسى العدد الكبير من إخراجات القيد التي عملنا على إصدارها في مركز التعبئة التربوية الرئيس في بئر العبد.



أثناء العطل الطويلة، كنا نشارك في أعمال المرابطة العسكرية على جبهات القتال في البقاع الغربي والجنوب بهدف تعريف طلاب الحزب على طبيعة أعمال المقاومة العسكرية. كما كنا من أوائل المبادرين إلى تنظيم زيارات للطالبات والطلاب غير الحزبيين من الجامعة إلى محاور القتال، على الرغم من صعوبة الحصول على إذن بذلك من قادة المقاومة.

في النهاية، أقول إنه على الرغم من وجود حوالي مائة شخص في صفوف الطلاب المنضوين تحت لواء حزب الله في الجامعة الأمريكية، إلا أن إعداد الأنشطة الحزبية وتنفيذها كان يعتمد بشكل رئيس على عدد قليل منهم، عادل وطلال وخليل وعبد الله وفادي، إن لم أنسَ أحداً، ممّن أبدوا قدراً عالياً من الالتزام الحزبي. وعلى الرغم ممّا بدا في تلك الأحداث كلها من تألّق وأهمية، إلا أنها كانت تخفي وراءها بعض الحقائق المؤسفة على مستوى علاقتي التنظيمية الداخلية بجهاز التعبئة.

الاستقالة من جهاز التعبئة التربوية

حصلت عدة تطورات هامة على صعيد علاقتي التنظيمية بجهاز التعبئة التربوية، كان سببها حالات النجاح التي تحققت على ساحة الجامعة وانتشرت أصداؤها بين مختلف الفئات السياسية وتصدّرت عناوين الأخبار في أكثر من مناسبة.

كان أصدقائي في الحزب من خارج التعبئة على اطلاع مستمر على مجريات الأحداث، حيث وفّروا لي الدعم اللازم باستمرار، إن على مستوى القرارات التنظيمية المواكبة في الحزب، أو على مستوى الاتصال بالمسؤولين السياسيين والأمنيين خارج إطاره.

حصل ذلك في وقت كنت فيه على تنسيق دائم مع المسؤولين في جهاز التعبئة، سّيد ج. وأحمد ع. و حسين ح.

لكن بدل أن يقوم بعض هؤلاء المسؤولين بتعبيرهم عن التقدير لما تحقق من إنجازات صبّت بشكل مباشر أو غير مباشر في مصلحة الحزب في الجامعة، كانت خشيتهم أن ترتبط هذه الإنجازات باسم رامي عليق أكثر منه بجهاز التعبئة التربوية، الأمر الذي اعتبروه إحراجاً لهم أمام من علاهم رتبة في التنظيم. لست هنا في مقام الافتراء أبداً، لأنه في وقت لاحق قام عدد من طلاب الحزب، منهم عادل وعبد الله، بإخباري بما كان يحاك في مركز التعبئة بهذا الخصوص، دون أدنى علم لي به.

انطلاقاً من حسابات شخصية ضيقة وادعاءات بأنني محسوب على السيد فضل الله تارة، وبأنني لا أقوم بتنفيذ العديد من التكاليف الشرعية الموجّهة إليّ من قبل جهاز التعبئة تارة أخرى، أوعز هؤلاء إلى أعضاء في جهازَي شورى القرار والتنفيذ في الحزب، افتراءً، بأنني لست من أتباع الخط «الأصيل» في الحزب، الخط النابع من التقيد الكامل بولاية الفقيه. عملوا على حبك الموضوع بشكل متواصل، مما أدى في النهاية إلى نجاحهم في تحقيق هدفهم عن طريق فتح قنوات اتصال تنظيمية مع طلاب الحزب في الجامعة، من دون علمي ولا مواجهتي بالأمر ولا مناقشته ضمن القنوات التنظيمية الصحيحة.

أتت محاولاتهم تلك للتسلل إلى ساحة الجامعة الأميركية وتبني الإنجازات وإضافتها إلى رصيدهم لدى القياديين في الحزب. بعد معرفتي بما كان يحصل، قادني انفعالي، وبمرارة كبيرة، إلى تقديم استقالتي من العمل ضمن جهاز التعبئة، وذلك في منتصف العام

١٩٩٤. قُبلت الاستقالة على الفور، وسرت مفاعيلها على صعيد مجموعات الحزب داخل الجامعة. الغريب في الأمر أن أولئك المسؤولين حرصوا على ألا يعرف مجتمع الجامعة الاستقالة، ظناً منهم بأن ذلك سيُحدث بلبلة وتساؤلات قد ترتد سلباً على قوة الحزب وتأثيره. أتت الاستقالة من ضمن ما يمكن تسميته «الإحراج فالإخراج».

أمام تنحيتي عن مركز المسؤولية، شعر طلاب الحزب بشيء من الضياع، إذ كانوا على قناعة بأهمية وجودي على رأس التعبئة في الجامعة، لما أضيفه من عامل الثقة والقوّة لديهم. إلا أن قناعتهم بضرورة التقيّد بالتكليف الشرعي الجديد الصادر عن جهاز التعبئة التربوية وقوة الالتزام به كانت أهم من الاعتبارات الأخرى.

على الرغم من أنني لم أقم بأي مهمة ذات طابع تنظيمي التزاماً بمفعول الاستقالة، إلا أن تعلّقي بالعمل المنجز في الجامعة دفع بي إلى أن أبقى مطلعاً على أجواء الطلاب وقريباً منهم.

إن ما شاركت في إنجازه من مهمات حزبية ونشاطات طالبية، أو ما اختبرته من تجنّ عليّ، أو الأهم من ذلك، ما كنت أتوق إلى إنجازه خارج الإطار الحزبي الذي كان يقيّدني، قد يكون كله سبباً لمبادرتي إلى إطلاق وقيادة أحد أهم النشاطات الطالبية في تاريخ الجامعة الأميركية، بحسب اعتراف إدارتها. حصل ذلك في بداية السنة الدراسية، في العاشر من شهر تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤، وكانت استقالتي من العمل في جهاز التعبئة سارية المفعول، ولو لم يكن قد تم الإعلان عنها بعد.

تساؤلات عابرة

في صيف ذلك العام، وفي الوقت الذي حافظت فيه على التزامي الديني والحزبي، كانت قد مرّت في ذهني تساؤلات عابرة عن جدوى ما كنت أمارسه من تزمّت ديني ونزعة نحو خلق حواجز مع من لا ينتمي إلى حزبي وطائفتي وديني. كان سبب هذه التساؤلات هو التأثر بأجواء الجامعة الأميركية، لجهة التحفيز على الاختلاط بين أصحاب المشارب المختلفة، ونتيجة تساؤل شخصي عن إمكانية وجود مفاهيم وعناصر خيّرة، غير تلك التي تربّيت في ظلالها دينياً وحزبياً.

تجدر الإشارة هنا إلى أن نموذج العيش الذي خلقته الجامعة الأميركية لا بد أنه ترك أثره الإيجابي فيّ، ولو بشكل غير مباشر، في الوقت الذي كنت أعبّر فيه عن التطرف في رفض كل ما يأتي من أميركا. لم تتعدّ تلك التساؤلات حينئذ إطار الأفكار والتأملات، إلى ما بعد حادثة العاشر من تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤، والتي كان لها عليّ أثر جليّ، فإذا بتلك التساؤلات تنتقل إلى حيز السلوك الشخصي والتطبيق الفعلي.

كانت معظم الأنشطة في الجامعة تُجرى خلال أيام الدراسة. أما خلال العطل، وعندما لم يكن يشغلني أي نشاط حزبي، فكنت أعود إلى منزل الأهل في النبطية، وأتبادل الزيارات مع الأصدقاء من الحزب هناك، فضلاً عن اللقاء السري الحميم الذي كان يجمعني بصديقتي في ظل زواج المتعة. خلال الفرص الطويلة بشكل خاص، تابعت العمل على تنظيم الحملات السياحية إلى سوريا مع صديقي الأخ أبي ذرّ، بوتيرة أقل من قبل، ولازمت هذه الحملات سياحة «الجنس المدفوع»، عن طريق «المتعة».



في الجامعة، تركزت أحاديثنا على أهمية تأمين حالة من الاستقرار العاطفي لطلاب الحزب، عبر حثّهم على الارتباط بالفتيات من خلال عقد زواج المتعة، بهدف تخفيف الاحتقان الناتج من أجواء الجامعة المحيطة بهم. بهذا الخصوص، كان البعض يطلب إليّ تسهيل تعرّفه إلى الفتيات، إلا أنني لم أتمكن من المساعدة الفعلية، ربما لحرصي على إظهار الجدية الكاملة في علاقتي بهم.

ثانياً- اعتصام العام ١٩٩٤

كان قسم من ممثلي الطلاب في كلية الآداب والعلوم قد بدأوا توقيع عريضة تطالب بالحوار مع الإدارة بخصوص زيادة على الأقساط بنسبة عشرة بالمائة علموا بها تواتراً، كما دعوا الطلاب إلى عدم استلام الإشعارات بالدفع. لم تتجاوب الإدارة مع طلبهم تجميد مفعول الزيادة، مما دفع بهم إلى الاستقالة.

ديمقراطية الطلاب

تحدثت إلى طلاب الحزب في الجامعة، وإلى آخرين من أحزاب مختلفة، بشأن إطلاق تحرك طالبي واسع بهذا الشأن. لم يوافق أحد على الانضمام إلى الخطوة خشية أن نفشل بدورنا. على الأثر، قرّرت المبادرة إلى إطلاق شرارة التحرك منفرداً عبر إلحاحي على أخي عادل وعلى عبد الله صوفان أن يحثّا الطلّاب على عدم استلام الإشعارات، وأن يعملا حتى على منعهم من استلامها إذا اقتضى الأمر، إضافة إلى القيام باستفزاز الضابط المسؤول عن القوى

الأمنيــة، الرائد بيضون. كنت مصراً على الأمر، حتى لو قامت هذه القوى بالتدخل.

قام عــادل وعبدالله بذلك في ظل تجمّع عــدد كبير من الطلاب أمــام المبنى المخصص لتسليم تلــك الإشعارات، بالقرب من «وست هــول»، مما أثار جلبة بين الطلاب الذيــن كان قسم منهم منزعجاً مــن الزيادة المقررة. ضاعف من وطأة الجلبة قيام خريج جديد هو وليــد حيدر بتأييد الدعــوة بصوت مرتفع عبر إلقــاء كلمة أمامهم، فاعتقلــه عناصر الأجهــزة الأمنية بعــد ترددهــم في اعتقال عادل وعبدالله لانتمائهما إلى الحزب.

تقدمت على الفور باتجاه مدخل المبنى، وألقيت كلمة دعوت فيها الطــلاب جميعاً إلى الإضراب المفتــوح احتجاجاً على الزيادة، وإلى الامتنــاع عن حضور الدروس. كمــا أمهلت إدارة الجامعة ساعة من الوقت لإطلاق سراح وليد. بعد انقضاء المهلة، طلبت إلى المعتصمين التوجّه إلى مكتب رئيس الجامعــة في «ماركواند هاوس» للاعتصام أمامــه، فلبّوا الدعوة، وكانوا بضع مئات. ســرت في المقدمة، ورحنا جميعــاً نردد شعــارات مناهضة لزيادة الأقساط، حتــى وصلنا إلى الباحة الخارجية للمبنى.

إن تقيّــد طــلاب من خلفيــات وانتمــاءات مختلفــة بالاعتصام أثــار حفيظــة الإدارة، فحاول البعضــ فيها استغــلال تلك الحادثة للاقتصاصــ مني ومن الطلاب المتجمّعــين، بحجة أن في تحريضنا على عدم دفع الأقساط مخالفة لأنظمة الجامعة وإثارة للشغب. كما أن ما دفع بهــذا الاتجاه كان العجز عن التصدي لامتداد حزب الله في الجامعة وتأثيره فيها، في ظل الضغوط الكبيرة التي كانت تتعرض لها الإدارة من قبل الإدارة المركزية للجامعة في نيويورك.

بالفعـل، وبخطـوة اتسمت بالكثير مـن التسرع، قـررت الإدارة الاستعانـة بقوى الأمـن الداخلي عـبر الطلب إليهـا الحضور لقمع الاعتصـام، تحت ذريعة أن المعتصمـين يعبثون بممتلكات الجامعة، بعـد أن ركل طالـب غاضب بـاب «ماركواند هاوس»، وقـام البعض بالوقوف على ظهر سيارة كانت متوقفة أمام المبنى.

مـرّ النهار والطـلاب معتصمون بشكل سلمـي، وقاربت الساعة الخامسـة والنصف عصراً. البعض يـردّد الأغاني، والبعض الآخر يلعـب «ورق الشدّة»، وإن بدا عليهم الانفعال. استقال خلال ساعات الاعتصـام، وبشـكل جماعـي، طـلاب شغلـوا مناصـب في المجلس التمثيلـي الأعلى للطلبة بعد أن فشلـت مفاوضاتهم مع الإدارة، كما دارت نقاشات محدودة مع رئيس الجامعة المنتدب سمير مقدسي.

حضر إلى المـكان أثناء النهار العقيد جهـاد، ضابط المخابرات السوريـة الـذي كان نائبـاً لرستـم غزالي علـى ما أذكـر، بصحبة مسلّحـين مـن مرافقيه. مـن الواضح أنـه كان مكلّفـاً بالتعامل مع التطورات الأخيرة على ساحة الجامعة. اقترب مني، وطلب إلى أحد مرافقَيـه مناداتي. التفتّ إليـه وقلت له إننـي منشغل مع الطلاب، ويمكنـه بالتـالي التحدّث إلى أخـي عادل. استشـاط غضباً ورحل، بسبـب إهمالي له، في وقـت كان كبار السياسيين مـن وزراء ونواب وغيرهم يتسكّعون أمـام مكتبه في محلة الحمرا طالبين رضاه. وقد أخبرني طالـب من «النادي الثقافي السوري» أنه أرسل بعض أزلامه لاعتقالي في ما بعد.

كنـت أشارك في اعتصـام طالبي أمام «وست هـول»، وعرضتُ الأمـر بشـكل علنـي أمام الطـلاب، فبـادروا إلى إطـلاق شعارات

مناهضة لأي تدخل سوري في أحداث الجامعة، وراحوا يهتفون: «كلنا معك يا رامي».

قبل نصف ساعة من قيام القوى الأمنية بعملية القمع، معززين بعناصر من أجهزة المخابرات اللبنانية والسورية، حضر مسؤول اللجنة الأمنية في الحزب وفيق صفا برفقة النائبين نجاح واكيم ومحمد برجاوي، وأخبرني بأن قراراً اتّخذ على أعلى المستويات الأمنية والسياسية بقمع الاعتصام بصرامة وبما يتطلبه ذلك من استعمال للقوة ضد المعتصمين.

أبلغني النائب برجاوي بضرورة الانسحاب من الاعتصام برفقة طلاب الحزب استجابة لتكليف شرعي صادر عن الأمين العام السيّد حسن نصر الله. طلب إلى مرافقه إحضار السيارة إلى مكان الاعتصام، فتح بابها، وقال لي: «اتصل بي الآن سماحة الأمين العام طالباً ألا أترك المكان إلا برفقتك، قبل أن يضع السوريون يدهم عليك». بادرته بالقول إن لا نية لدي بمخالفة التكليف الشرعي، لكن من الخطأ الانسحاب لأن فيه انقلاباً غير أخلاقي على الطلاب المعتصمين من غير الحزبيين.

استمع إليّ النائب برجاوي بشيء من التفهم. عاد واتصل بالسيّد نصر الله شارحاً موقفي، ثم أخبرني في الخلاصة بأن الأمر يعود إليّ.

تعزّز لديّ تساؤل في الأيام التي تلت عن مغزى تقديس «التكليف الشرعي»، إذا كان يصدر نتيجة عوامل سياسية أو اجتماعية غالباً ما ترتبط بمزاج من يصدره. كذلك، ما الذي يمنع المشاركة في إصداره، أو إمكانية تغييره إذا تم إخضاعه للنقاش؟ ولماذا، كما

ظهر لي لاحقاً بوضوح، لا يُرحِّب بفكرة مناقشة هذا التكليف، ويُلام من يحاول تطبيق هذه الفكرة، من قبل ساسة الحزب النافذين؟ علماً أن تفهم النائب برجاوي والسيد نصر الله كان له أثر إيجابي كبير عليّ في ذلك الحين، مما ساهم في إنضاج وتطوير فهمي للتكليف الشرعي على صعيد المساهمة في تعديله بما يتناسب مع الواقع العملي المباشر. فهمت أنه بذلك ترتفع عن التكليف الشرعي القدسية التي تحيط به.

بنادق وهراوات

في الساعة السادسة مساء، شهد الحرم الجامعي والطلاب المعتصمون، بمن فيهم طلاب الحزب، أكثر عمليات قمع الطلاب شراسة ووحشية رأتها عيناي. لم يكتف عناصر القوى الأمنية بتفريق الاعتصام، بل تجاوزوه إلى ضرب الطلاب بأعقاب البنادق بعد محاصرتهم في باحة «ماركواند هاوس». أدت شدة التدافع إلى تحطّم بوابة الباحة، فركضنا باتجاه الطريق. تبعَنا ما يزيد عن مائتين من عناصر قوى الأمن، وأبقونا محاصرين بين جانبَي الطريق، حتى وصلنا إلى بوابة الجامعة لجهة شارع «بلس». بلغ الأمر بهم حدّ شد الطالبات من ثيابهن وسحبهن من شعورهن، وكسر أيدي عدد كبير من الطلاب وأرجلهم ومطاردة آخرين حتى شارع الحمرا في بيروت.

لا يمكنني نسيان ذلك المشهد، مشهد طالبة شقراء يسحبها أحد العناصر بشعرها، تصرخ وتتخبّط على درج «ماين غايت». وأخرى أسفل الدرج يضربها أحدهم بعقب بندقيته كمن يحاول تحطيم صخرة. كنت في وسط المعتصمين، محمولاً على أيدي طلاب الحزب ومحاطاً بهم، دون أن أتمكّن من القيام بأي عمل آخر. قرّروا حمايتي

وتلقـي الضربات عني، وقاموا بعـد بلوغ شارع «بلس» بتأمين وصولي إلى مكتبة مالك المقابلة لبوابة الجامعة، وبإخفائي في غرفة جانبية في الداخـل. هدأت العاصفة بعد حـوالي نصف ساعة على بدايتها، وانتهـت بوقوع أكثر مـن أربعين جريحاً بـين الطالبات والطلاب تم نقلهم إلى مستشفى الجامعة الأميركية.

كان ذلـك اليوم بحـقّ «الاثنين الدامي» في الجامعـة الأميركية، كما وصفته «نهـار الشباب» (صحيفة النهـار، ملحق نهار الشباب، ١٨-٢٤ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٩٤)، وغطت كامل الصفحة الأولى عبارة «ديمقراطية الطلاب لَوَت البنادق والهراوات».

بعـد لقاءات جرت ليل ذلك الاثنـين، وفي جوّ فريد من التكاتف، قررنا، وعلى اختلاف انتماءاتنا، الاستعداد لتحرك واسع ابتداءً من اليوم التالي. لبّى الطلاب جميعاً الدعوة إلى التوقف التام عن حضور الدروس، وإلى التجمع أمام «وست هول» ثم أمام مكتب الرئيس في «ماركواند هاوس» للتعبير عن التضامن مع رفاقهم الذين تعرضوا للضرب. تدافعت فئات الطلاب جميعاً للمشاركة في هذا الاعتصام المفتوح الذي استمر حتى نهاية الأسبوع.

حضـر إلى الجامعة عـدد من الشخصيـات السياسية المختلفة، منهـم نـواب ووزراء، للتعبير عن تضامنهم مـع الطلبة، وكان منهم الوزيـر بشـارة مرهـج ممثلاً الحكومـة. كما حضر عضـوا مجلس الأمنـاء سليم الحص وعلي غندور. اشـترك الحاضرون، بالتنسيق مع إدارة الجامعة ورئيسها سمير مقدسي، في مفاوضات جرت معي بعد أن قمت باختيار عدد من الطلاب لحضورها.



كان من بين الطلاب حسين عواضة ووائل بو فاعور ومها واكيم وعمر زريقة وغيرهم. لم يكن أحد من الإدارة يريد أن يتفاوض معي في الأصل، كما أخبرني النائبان نجاح واكيم وعلي عمّار، ثم اضطروا إلى الرضوخ بفعل ما حظيت به من تأييد عارم من قبل الطلاب جميعاً، دون استثناء، ومن تفويض لأكون ممثلهم أمام الإدارة.

جامعة واحدة، يد واحدة

إن أكثر ما يعبّر عن جوّ الجامعة في ذلك الحين ما قاله لي أحد الأساتذة، رامي زريق، من أنه لم يرَ أحداً قبلي في الجامعة وخلفه كل هذا المزيج المتنوع من الناس وهم يرددون شعاره بصوت واحد «جامعة واحدة، يد واحدة». أذكر عبارته، قال: «شخص آت من الجنوب، يمشي وراءه العوني والقوّاتي والاشتراكي معاً!» كما قال لي عضو مجلس أمناء الجامعة علي غندور مرة: «ما هو سر قدرتك على جمع هؤلاء الطلاب ذوي الانتماءات المتعددة خلفك؟»

إزاء هذه الثقة التي أودعني إياها الطلاب، قمت بتمثيلهم في المفاوضات مع الإدارة بصدق ومن دون أن أساوم للحصول على أي منفعة خاصة. لم أرضخ لعمليات الإغراء والضغوط الهائلة التي مورست عليّ، إن من قبل الشخصيات الحاضرة أو من قبل المسؤولين في الحزب.

عُرضت عليّ مبالغ وصلت إلى مئات الآلاف من الدولارات توضع بتصرفي لأقوم بتوزيعها على الطلاب كتعويض عن نسبة الزيادة في الأقساط، شرط إنهاء التحرك. آليت على نفسي ألا أستبدل بثقة الطلاب أي مقابل، وألا أحيد عن الالتزام بالشعارات التي طلبت

إليهم رفعها، وأهمها ضرورة إلغاء الزيادة، ولو أن مقاربتي للأمر لم تخلُ من المثالية.

كان توقف الدروس في الجامعة ذلك الأسبوع إثر التحرك قد حظي بتغطية إعلامية كبيرة، واستحوذ على اهتمام الأوساط المحلية والإقليمية، على مستوى الرؤساء والوزراء، مما وضع ساحة الجامعة في منطقة الضوء أكثر من ذي قبل، خصوصاً في ظلّ معرفة الجميع بأن العقل المدبّر لكل ما حدث شخص ينتمي إلى حزب الله. رافق ذلك إمكانية استغلال الحدث وتسييسه لصالح الحزب، بحسب انطباعات العديد من المحللين السياسيين في وسائل الإعلام المحلية والعربية.

ساعد على إشاعة مخاوف من هذا النوع وجود وزير الخارجية الأميركية وارن كريستوفر في المنطقة، ما أدّى إلى تجاوز صدى الأحداث حدود الجامعة والبلد، ليبلغ دوائر السياسة الأميركية، حيث كان لمساعد كريستوفر لشؤون الشرق الأوسط روبرت بلليترو تصريحات عديدة عبّرت عن عدم الرضا تجاه ما يحصل على ساحة الجامعة الأميركية في بيروت.

إن عجز الإدارة وضعفها اللذين دفعا بها إلى الاستعانة بالساسة والأمنيين ساهما في عدم إبقاء ما يحصل محصوراً بينها وبين الطلاب. تم إقحام قيادات ومرجعيات حزبية ورسمية في الأحداث التي تلت، ومنها قيادة حزب الله ورؤساء الجمهورية ومجلس النواب والحكومة إضافة إلى القيادات السورية. وبدا من الواضح لاحقاً أن الهمّ الأساسي للكثيرين كان كيفية التخلص من تأثير حزب الله المتنامي في الجامعة.



أفـرزت الأجواء محاولات لإشاعة الفتنة بين الطلاب لم أوفّر أي جهـد في التصدي لها، ووقفت بوجه كل محاولات التسييس، حتى لو أن ذلك لم يرق لبعض المسؤولين في الحزب.

انعكسـت طريقة مقاربة أحداث الجامعة بشكل جليّ على الكثير من المعالجات لقضايا طالبية تلت حادثة العاشر من تشرين الأول/ أكتوبـر، كانـت إحداهـا قضيـة عملت فيهـا، بالتنسيق مـع المعاون السياسي لأمين عام الحزب حسين الخليل ومستشار رئيس الحكومة رفيـق الحريـري مصطفـى ناصر، علـى تجنيب عدد مـن الطلاب الفصل من الجامعـة. كان الحل أنْ تكفّل الرئيس الحريري بالمبالغ اللازمـة لتغطية نفقات أقساطهم، والتي تجاوزت أربعين ألف دولار أميركـي. عندما حصلـت على المبلـغ، قمت بتوزيعـه على الطلاب المحتاجين، دون تمييز بين أولئك المنتمين للحزب وبين غيرهم، مما أثار حفيظة بعض المسؤولين في التعبئة التربوية لرغبتهم في أن توزع المبالغ على طلاب الحزب وحدهم.

تفاقم العلاقة مع التعبئة التربوية

إن للـكلام على تحرّك العاشـر من تشريـن الأول/أكتوبر نكهة خاصـة بالنسبة إليّ، ليس لـمـا تخلله من مجريات فحسب، بل كذلك لـمـا مثّله مـن نقطة تحوّل علـى صعيد حياتي الخاصـة، لجهة بداية الخروج من الإطار الحزبي الضيق، وترجمة ذلك في طريقة التعامل مع الآخرين من أهل وأصدقاء وغيرهم.

تبدّلت طريقة تواصلي معهم، فتحوّل الإحجام عن الاختلاط بهم والتحـدّث إليهم عن الشؤون المشتركـة لحياتنا اليومية إلى المبادرة إلى إلقـاء التحية والدعـوة إلى الجلوس معاً وتبـادل الأحاديث. لم

تكن القصة تتعلق بهذه الأشكال من التلاقي وحدها، بل كانت تكمن خصوصاً في اللهفة إلى مدّ جسور مع الغير، وفي الحاجة إلى التعويض عمّا سلف من ابتعاد عنهم وانكفاء.

بالعودة إلى العلاقة التنظيمية بالحزب، أتت استقالتي من جهاز التعبئة التربوية في وقت بلغت أنشطة الحزب في الجامعة أوجها، مع ارتباط اسمي بتلك الأنشطة. أثناء التحرّك، لم أقصّر في تلبية طلب المسؤولين في التعبئة التربوية عقد لقاء في مركز التعبئة في بئر العبد. على الرغم من تعب نهار حافل، ذهبت إلى المركز مساءً بعد انتهاء اعتصام الطلاب برفقة محمد هـ. وماهر ع.، لكنّ أحداً لم يكن ينتظرنا هناك، فاستغربت الأمر ورحلت.

علمت لاحقاً أنه كان من المفترض أن نتوجه جميعاً للقاء المعاون السياسي حسين الخليل الذي كان بانتظارنا. ربما قيل له إنني لم ألبِّ دعوة مسؤولي التعبئة فتمنعت بالتالي عن الحضور. وبعد أن دفعت الأحداث على مسرح الجامعة بشورى القرار لدى قيادة الحزب إلى عقد جلسات مفتوحة في بعض الأحيان لمتابعة التطورات، وجد المسؤولون في التعبئة أنفسهم محرجين أمام القيادة بسبب إسراعهم في قبول استقالتي من قبل. فإذا بهم يعودون ضمناً عن قرارهم بقبولها، إلى حدّ اعتباري في قائمة المتفرغين للعمل الحزبي ضمن جهاز التعبئة وتخصيص بدلات لتغطية مصاريف عديدة لهذه الغاية.

جاءت هذه العودة الضمنية أثناء لقاء مع السيّد حسن نصر الله في مكتب الأمانة العامة، دُعيتُ إليه مع مسؤولين في التعبئة التربوية وآخرين من قيادة الحزب مثل حسين ح. وحسين أ. وغيرهما. عندما بدأ النقاش حول وضع خطة عمل في الجامعة للفترة القادمة،



قلت للأمين العام إنني استقلت وقُبلت استقالتي، ولا يمكنني أن أكون جزءاً من الخطة، فقاطعني حسين ح.، قال: «إنسَ موضوع الاستقالة، وفكّر في العمل معنا كمتفرغ ضمن جهاز التعبئة». أيّده حسين أ. بالكلام والسيّد نصر الله بالابتسام، واستمر النقاش.

كان الراتب الذي تقاضيته يناهز مائتي دولار أميركي. لم يكن بالكثير، لكنه ساهم في تغطية جزء من مصاريف اعتدت أن أحصل على بدل لقاءها من والديّ. لقد ظهر لي، وبدا أكثر وضوحاً فيما بعد، أن قرارات القفز فوق الاستقالة والتفرغ والمخصصات المالية أتت على مضض، وتماشياً مع الأحداث الحاصلة، وليس عن قناعة لدى مسؤولين في التعبئة التربوية لم يفوّتوا لاحقاً فرصة لمحاولة تشويه صورتي لدى القيمين على مكتب الأمانة العامة، افتراءً عليّ، ولأسباب ذكرتها سابقاً.

هذه المرة، لم ينحصر أمر الخلاف بعلاقتي التنظيمية بجهاز التعبئة التربوية، بل تعداه إلى حد إخفاق القيمين على هذا الجهاز في إدارة عدد من الأزمات التي تلت تحرّك تشرين الأول/أكتوبر. دفعوا بي إلى الاستقالة مجدداً من جهاز التعبئة سنة ١٩٩٥ بغطاء من بعض المسؤولين النافذين في الحزب، وصاروا يتدخلون من دون دراية بتفاصيل العمل الحزبي في الجامعة. جاء هذا التدخل في وقت كانت فيه الإدارة المحلية، مدعومة من الإدارة الأميركية المركزية، على استعداد لاتخاذ تدابير قاسية ضد طلاب الحزب والمؤيدين لهم.

هكذا كان. فبعد أن دعا مسؤولون في التعبئة عدداً من الطلاب إلى تنفيذ تحرك طالبي يقوم على حثّ الطلاب على تعطيل الدروس وعدم دفع الأقساط المستحقة عليهم، قامت إدارة الجامعة بتعليق

تسجيـل أكثر من أربعين طالباً لمدة فصل دراسي واحد، كنت واحداً منهم، وبفصل أخي عادل عن الدراسة لمدة عام كامل وحرمانه دخول حرم الجامعة نهائياً أثناء هذه الفترة، نتيجة إثارته «الشغب».

علـى خط آخر، فإن عدداً من عمداء الكليات، ومنهم عميد كلية الآداب والعلـوم لطفي دياب، أخبروني بعـد عودتهم من اجتماعات مـع رئيـس الجامعـة الأصيل كانـت تعقـد في قبرص أو في سوريا بسبب حظـر سفر الأميركيين إلى لبنان، بـأن قسماً كبيراً من هذه الاجتماعـات كان يُخصّص لمناقشة الوسيلـة الفضلى للتخلص من وجـودي في الجامعة، لمـا تسبّبتُ به من إحراج لـلإدارة المحلية. لم يكـن هذا بالأمر السهل، كما قيـل لي، لأن طريقة إدارتي للأحداث جعلتنـي بمنأى عن إمـكان توجيه أي إنـذار أو قـرار بالفصل إليّ، خصوصـاً بفعل تفوّقي في الدراسة لدرجـة إدراج اسمي على لائحة الشرف للطلاب المتفوقين.

مواجهة مع الأمين العام

أدخـل تفاقـم الأحـداث بهـذا الشـكل العديـد مـن الحسابات السياسيـة إلى معادلـة العمل الطالبي في الجامعـة الأميركية. كان لهذه الحسابات تأثير على قرارات قياديين ومسؤولين في الحزب لم يكن فيها لحسابات الطلاب الشأن الكثير. وهنا أتحدث كطالب رأى العالم كله من خلال جامعته. مع تسارع وتيرة التطورات السياسية، بـادر رئيس الجامعة وعدد مـن أعضاء الإدارة، في ما يُعتبر سابقة، إلى زيارة السيـد حسن نصر الله للطلب إليه، كما اختصره بالقول عن لسانهم: «نرجوك أن تخلّصنا من رامي عليق».



لكن الأمين العام قال في لقاء لاحق إن الزيارة أتت بمثابة رسالة بوصـول الأمـور إلى عنق الزجاجة علـى المستـوى السياسي، الأمر الـذي بدا ظاهراً عندما دعا طلاب الحزب في الجامعة إلى اجتماع أخبرهم فيه، بشكل غير مباشر، عن طلب سوري بتهدئة الأمور على ساحة الجامعة يجب أخذه بعين الاعتبار.

لم تكن لديّ أي نية للتصادم مع المسؤولين في التعبئة التربوية أو مـع غيرهم في الحزب. كل ما سعيت إليه كان إيجاد صيغة تنظيمية لمعالجـة كل مستجـدات الجامعـة بطريقـة واضحـة. لم يرقني أن تتشـكّل حالة طوارئ في كل مرة يكون الحدث هناك مهماً. قد أفهم أن النشـاط الحزبـي في الجامعة تصاعد بوتيرة كبـيرة. لم أقصّر في التخطيـط ولا في التوقعات. منذ البداية، خـلال اللقاء الأول مع نائـب الأمـين العام، شرحت رؤيتـي بإسهاب ووضـوح، وعوّلت على خطـوات تنظيمية تواكب التطورات. لعـل الجميع لم يكونوا يتوقعون ما كان يُضخ من طاقة في النشاط هناك، لم تكفِ الإجراءات الموقتة لاستيعابها.

دافعـت عن مواقفي بإيمان وحدّة. لامني البعض بسبب أسلوبي، منهم مثلاً المسؤول المركزي للتعبئة التربوية حينذاك حسين ح. الذي قـال لي بعد اجتماع مع الأمين العام: «لا يمكنـك التكلّم مع سماحة الأمـين العام بهذه النبرة العالية». كنـت حينذاك مستاء من طريق إدارة الأمور، وأردت التعبير عن رأيي دون مواربة.

لم آبـه لاستخدام هـذا الأمر ضدي من جانب بعضـ المسؤولين الحاضرين الذين حاولوا التأثير على نظرة الأمين العام إليّ. سمعت الـكلام نفسه من حسين ح. بعد لقـاء مع القيادي في الحزب حسين أ.، إذ نعتنـي بالـ «وقـح» بسبب جرأتي في إثـارة مسألة معينة. أخذ

الأمين العام بـرأي بعض المسؤولين في جهاز التعبئة التربوية وأهمل رأيـي على الدوام، هذا ما بـدا لي على الأقل من خلال نمط العمل، مما دفع بي إلى رفض حضور اجتماع دعا إليه يوماً.

المجلة

سوف أنتقل لاحقاً إلى الحديث مطوّلاً عما تركته في كل الأحداث الآنفة الذكر من بصمات على المستوى الشخصي. بقي أن أخصّص هـذه الفقـرات القليلـة للحديث عـن أنشطة مختلفـة شاركت فيها بالتزامن مع العمل الطالبي على ساحة الجامعة. قبل حادثة العاشر مـن تشريـن الاول/أكتوبـر ١٩٩٤، كانـت النشاطـات الترفيهيـة، كرحلات الغداء أثناء العطـل، تقتصر على الحزبيين وحدهم. بعد ذلـك، صـارت تضمّ غـير الحزبيين من طـلاب وطالبـات، إضافة إلى الرحـلات إلى المواقع العسكريـة للمقاومة في الجنوب المذكورة سابقاً.

كان النشاط الأبرز إصدار مجلة طالبية تولّيت تنفيذها ونشرها مـع مجموعـة مـن الطـلاب. أطلقنـا عليهـا اسـم «Gate»، وقمتُ بإدارتها وتمويلها من المـال الذي حصلت عليه من أبي، بعد إقناعه بضـرورة تقديم الدعم المالي للمشروع، ثم من خلال الاقتراض من الأصدقاء.

ترافـق إصـدار المجلة مع متابعتي دراسـة الهندسة الزراعية في الجامعة الأميركية والحقـوق في الجامعة اللبنانية في الوقت نفسه، بالإضافة إلى العمل الحزبي. كانت المجلة في مرحلتها الأولى تهدف إلى نشـر الوعـي حول المواضيـع التي تصـب في مصلحة حزب الله بشـكل غـير مباشر، عـبر اتّباع أسلـوب مرن في الكتابـة والنقد، لا



طابـع حزبياً له، مما يساعـد على جذب الكثيريـن إلى تبنّي ثقافة الحزب.

جـاء الإصدار الثـاني للمجلة في مرحلـة لاحقة، أثنـاء تأسيس رابطـة للشبـاب الجامعي بعد تركي الحزب نهائيـاً. لم يكن إصدار المجلة بأعدادها الستة الأولى، وأعدادها الأربعة في المرحلة الثانية، بالأمـر السهـل، لكـثرة التفاصيل التـي اقتضى الاهتمـام بها، من كتابـة المقالات إلى ترتيبهـا وتصميمها وطباعتهـا، وإدارة المهمّات وتنسيقها...

مساحات

كذلـك كنا أول من أطلق في الجامعة شعـارات تدعو إلى إضفاء الطابع الوطني على المقاومـة الإسلامية ضد الاحتلال الإسرائيلي، عبر إطلاق شعار «كلنا للوطن، كلنا مقاومة». أتت دعواتنا للعمل مع الطلاب الآخرين غير الحزبيين نتيجة أجواء الجامعة التي تدفع في هـذا الاتجاه، ونتيجة تحرك تشريـن الاول/أكتوبر الذي خلق لدينا الحافـز الكبـير لنتشـارك في العمل مـع غيرنا، من خـارج الحزب والطائفـة والدين، ولِما شعرنا به من حاجـة إلى تعزيز التواصل مع بقية أبناء الوطن.

إن مـا دار في نفسـي من ميـل إلى التعـرف إلى الآخرين الذين فصلتنـا عنهـم حواجز التفرقـة والحرب، ونحـو التكامل معهم في إطـار المواطنـة، ساعدني على تشجيع طلاب الحـزب على الانفتاح علـى الآخريـن، في وقت كنـت ورفاقي لا نزال نـدور في فلك الإطار الحزبي كملاذ جامع لنا في مقابل انتماءات الآخرين.

لا شك في أن المستجدات في الجامعة الأميركية، انطلاقاً من تحرّك تشرين الاول/أكتوبر، أدخلتني إلى دائرة علاقات أكثر توازناً من ذي قبل.

بدأت علاقتي مع المرأة تأخذ طابعاً إنسانياً أكثر من كونه جنسياً، نتيجة بداية الاختلاط بالفتيات بشكل طبيعي في الحياة اليومية. تعرّفت إلى مها أثناء التحرك، وهي أول فتاة دغدغت عاطفتي. حضرنا الاجتماعات معاً، والتقينا مرات عديدة لتناول الطعام، وحركت فيّ رغبة طبيعية بريئة وعميقة في التحدث إلى الجنس الآخر. أدركتُ أن جزءاً من المشكلة التي كنت أعيشها يتمثل في غياب «فتاة الحبّ والمرح» عن فترة المراهقة.

تُرى هل إن ما أحسستُ به حينئذ كان كفيلاً بإطفاء نار العاطفة التي فاتت، أم أن ما فاتني اختباره أثناء المراهقة لن يعوّضه اشتعال عواطفي، لا الآن ولا غداً؟!

قرّرتُ الخروج عن صمتي. طلبت إلى مها أن نلتقي في موعد خاص. غفل عني أن حمل «العفة المقنّعة» الذي أثقلني حتى اللحظة سوف يخذلني هذه المرة أيضاً. لم أكن قد تخليت بعد عن فكرة «المتعة» وأعبائها، لكن مشكلتي مع مها بدت حتى أبعد من ذلك. سادت لحظات من الصمت بعد أن طلبت إليها عقد زواج، بعد «لفّ ودوران» بالطبع، وبعد أن قلت إنني لا أستطيع حتى مصافحتها من دونه.

أتى جوابها الممتزج بابتسامة رقيقة من وادٍ آخر. قالت: «لطالما اعتبرت الوصول إليك مستحيلاً». أرادتني في ذهنها رمزاً لثورة طالبية، ولم ترغب في أن تراني على حال أخرى. لم أدر ما أصدّق



ممـا قالته. رأيت نفسي غضّاً في تلك اللحظة، واشتعلت في صميمي نار ثورة على مبادئ وقناعات ومفاهيم ملؤها الازدواجية في التعبير والأحـكام. بدأت ثورتي تلك بالتأجج أكـثر فأكثر. تراجعت العلاقة مع مها منذ ذلك الموعد، ولم أعد ألتقي بها سوى في المناسبات.

ثالثاً- ما بعد أحداث الجامعة الأميركية

تركـت فيّ حادثـة العاشر مـن تشريـن الأول/أكتوبر أثـراً على صعيدين، الأول هو ما أحدثتـه على المستوى الشخصي لجهة قيادة الطـلاب والتفاعل معهـم خارج الإطـار الحزبي الضيـق؛ أما على الصعيـد الثاني، فكان تعزيز علاقتي بالعديـد من المسؤولين داخل الحزب الذي دخلت إلى ساحته الداخلية من الباب العريض.

انفتاح

بعـد أن انتهجت أسلوب الانغلاق الحزبي والمذهبي، وعملت على حـثّ الكثيرين علـى التقيد به، وبعـد أن غصـتُ في تفاصيل العمل الحزبـي إلى حدّ الاختناق، وجدت نفسي تنشـدُ الاندماج والتفاعل مع من كان خارج الأطر الحزبية والدينية التي سبق أن تبنّيتها. هذا مـا برز من خـلال نزعتي إلى تحمل المسؤولية تجـاه تمثيل الطلاب جميعاً والدفـاع عن مصالحهم دون تمييز بينهـم، ودون الأخذ بما كانت تفرضه عليّ الأنظمة الحزبية الجامدة.

انتقلت في العام ١٩٩٥، بعد التحرّك، إلى تشكيل صداقات متينة مـع عدد كبـير من الطـلاب اللبنانيـين ذوي الانتمـاءات المختلفة. اختلفـت الأحاديـث بيننا هذه المـرة عن تلك التـي كانت تجري مع

أخوتي في الحزب. غابت عنها الحدّة بغياب البعد الديني والحزبي. حلت محل ذلك كله تفاصيل من نسيج الحياة اليومية، حبكتها وحدة المواطنة المنطلقة من ضرورات العيش كمواطنين متساوين في وطننا ومن ضرورة أن نتعلم ونعمل ونحب ونلهو ونحسّ بالأمان. بدت الأحاديث واقعية وسلسة أكثر من قبل. ساعد جوّ الجامعة أيضاً على تشكيل صداقاتٍ أخرى مع طلاب عرب، فلسطينيين وأردنيين وسوريين وخليجيين، نتيجة الشعور بالامتداد الطبيعي والقواسم المشتركة.

بعد تطوّر علاقاتي، دعاني يوماً بعض طلاب الحزب في الجامعة، نضال وحسن وبلال، إلى ما سمّوه اجتماعاً طارئاً. كان ذلك إثر رؤيتهم لي أتناول طعام الغداء مع مها في كافتيريا الجامعة. احتجّوا لأنني جلست معها في الكافيتيريا أمام أعين الطلبة، فيما كانت ترتدي لباساً اعتبروه غير محتشم، وقالوا إنه لا يليق بي الجلوس مع فتاة بهذه الطريقة، بصفتي رمزاً من رموز الحزب في الجامعة.

في الحقيقة، كانت مها ترتدي ثياباً صيفية، «تنّورة» قصيرة و«بلوزة» رقيقة، وقد بدت عليها سمرة ذهبية أكسبها إياها التعرض للشمس على الشاطئ؛ رقيقة، معتدلة القامة، على وجهها ابتسامة لم تترك غشاوة في إلا واخترقتها، لتلامس عاطفة قلبي الغضّة.

ظهر التبدل في سلوكي سريعاً. صار رفضي لسلوك الغير، الذي اعتبرته بعيداً عن الدين والحشمة لدرجة أني فرضت عليهم أنماطاً معاكسة، توقاً إلى مماشاة ذلك السلوك.

إن هذا الانتقال، وإن حدث بسرعة مذهلة، هو حتماً نتيجة رواسب وتأملات تراكمت مع الوقت. كنت بحاجة إلى القيام



بخطـوات تنسجم مع ما كان يجول في خاطـري. سياسة المنوعات الدينيـة أو المحرّمـات اعتمدت الـردع أساساً لهـا، رسمت خطوطاً حمـراً على حدود «الواجب الديني»، لتعـزز الكبت في النفس وتزرع الحواجز الجامدة، بدل تهذيب الإرادة وتعزيز حس الاختيار. كانت النتيجـة أن أوجد كل ذلك لديّ حاجة لابتـكار طرق للالتفاف على المحرّمـات؛ حاجة طبيعية لم تتجـلّ من قبل، لكنهـا كانت موجودة ومكبوتة.

في هذه المرحلة، تأرجح سلوكي بين الالتزام بمفاعيل الردع الديني وبين التملّص منها. لم يكن الأمر ليدوم طويلاً. كان انسجامي أكبر مع ما سبق أن أعتبرته ممنوعاً أو محرماً. لم أعد أرى مبرراً للتلطّي وراء الخطـوط الحمر، بل شككت بأصـل المنوعات وبالمغزى منها. انتفضـت عليها بشكل جـذري، وأعترف بأن الأمـر لم يخلُ من ردة الفعل.

لم يكن مدّ جسور مع الآخرين بعيداً عن قناعاتي الشخصية، بل كان منطلِقاً من رغبة حقيقية بالانفتاح عليهم ومشاركتهم همومهم وأفراحهم. كانت هذه بداية رفض البقاء تحت ثقل الالتزام الحزبي الضيق في وقت صار لي باع في تعقيدات التنظيم وخفاياه.

تعمق في شؤون الحزب

شكلت لي نقاط الخلل التي اكتشفتها في أدوات التواصل الحزبي حافزاً للقيـام ببعض الخطوات الإصلاحية علـى الصعيد الداخلي المغلـق، وقد ساعد على ذلك تشعّب علاقاتي الحزبية. قبل الحديث عـن هذه الخطوات، لا بد من وصف طبيعة علاقاتي المستجدة تلك. فبالإضافـة إلى مجموعـة المعارف والأصدقـاء الحزبيين من خارج

التعبئة التربوية، والذين عرفتهم نتيجة التدرّج في النشاطات السابقة، كان لتداول اسمي داخل أروقة الحزب، مترافقاً مع وقع أحداث الجامعة الأميركية وأبعادها السياسية، أن خلق رغبة لدى عدد كبير من المسؤولين في الحزب بالتعرّف إليّ عن قرب. كان منهم من شغل مناصب رفيعة واضطلع بمسؤوليات منذ تأسيس الحزب. توطدت علاقتي بهؤلاء أمثال محمد ح. وحسين أ. وعامر ش. ومحمد ر. وخضر ن. ومحمد ف. وغيرهم.

إن الثقة التي بنيتها مع أولئك القادة والناشطين ساعدتني على الإطلاع على شؤون حزبية عدّة، تصوّرت بطبيعة الحال أنها محصورة بين قلة من أصحاب الشأن دون العناصر الحزبية العادية.

استطعت أن أكوّن للمرة الأولى صورة جليّة عن توزّع مواقع القوة والنفوذ بين التيارات والمجموعات والأفراد المختلفين، من معتدلين نسبياً أرادوا خلق هامش محليّ لأخذ القرار مع الالتزام بمؤسسة ولاية الفقيه، ومتطرفين نسبياً لم يبغوا الاحتفاظ بهذا الهامش، بل اعتقدوا بضرورة ترك شأن القرار للقيّمين على المؤسسة في إيران. كما تكوّنت لديّ قناعة بوجود توازن قوي، بحكم علاقات ذوي النفوذ ببعضهم البعض، فضلاً عن التأثير الحاسم للأجهزة الإيرانية، ولاحقاً السورية.

يقولون «المجالس بالأمانات». بقدر ما أشعر برغبة في الإسهاب في الحديث في هذا المقام، أحاول نقل الصورة دون الإساءة الشخصية إلى أحد، وفّقني الله في ذلك. لعل ما رآه في الأصدقاء من متنفس للتعبير عن شؤون وشجون كثيرة، سهّل عليّ تكوين فكرة واضحة عن الضعف الذي استبطنه البعض، في مقابل القوة التي تميّز بها البعض



الآخر، لا سيما عندما يتعلق الأمر بالقضايا الأساسية. وجدت مثالاً حياً على ذلك في تجربتي مع المسؤولين الحزبيين الذين تواصلت معهم إبان أحداث الجامعة.

مهما قيل، أدين بالكثير لأصدقائي، على الأخص ربيع ب. وحسين أ. وعامر ش. ونعمان ب.، للثقة التي أودعوني إياها، ولفتح أذرعهم لي بمحبة وتقدير. وأبقى الصديق الذي عرفوه وإن اختلفنا في فهم الدين وفي مقاربة الشأن العام وسبل تحقيق مصالح الناس. لا أنسى قول أحدهم لي مرة عندما كنت بصدد الاستقالة من عملي في جهاز التعبئة التربوية: «انطلق من اعتبارك بأن هذا الحزب هو لك بقدر ما هو لهم».

كنت مستمعاً ومراقباً خلال لقاءات كثيرة. عندما سألت أحدهم مرة عن سرّ الاحترام الكبير الذي لقيه شخص ما، أجابني بأن له ارتباطاً وثيقاً بمكتب القائد (الخامنئي) وبالحرس (الثوري). في لقاء آخر، كان اثنان من الإيرانيين حاضرَين، والكل يستمع إليهما باهتمام بالغ؛ سألتُ عنهما، فقيل لي: «يتبعان لوزارة الأمن، صاحبة النفوذ الأبرز على الحزب في هذه الأيام، بعد أن ضعف نفوذ وزارة الخارجية». أبقتني العلاقات الشخصية وجلسات «الدردشة» على تماس مع ما يدور في كواليس السياسة، وأشبعت حب المعرفة لديّ إلى حد كبير.

إن ارتباط المجموعات النافذة بمراكز القرار في إيران أعطى هذه المجموعات أفضلية في السيطرة على الأجهزة الحيوية الأساسية في الحزب، كجهازَي الاستخبارات أو الأمن والعسكر. تلقّى معظم أفرادها تعليمهم وإعدادهم مباشرة في إيران، إنّ عبر

الحوزة الدينية في مدينة قُم أو عبر أجهزة رسمية أخرى. منهم الأمين العام الحالي للحزب السيد نصر الله، على سبيل المثال.

أما الجماعات الأخرى التي عوّلت على الحوار كطريق لإيصال أفكارها واكتساب النفوذ فكانت أقل حظاً، وإن تبوّأ أفرادها مناصب بدت مهمة في الظاهر، لكنها لم ترقَ إلى حد التأثير في القرارات المركزية المهمة التي تتخذ في حلقات ضيقة. كان هؤلاء منتمين إلى أحزاب وتجمعات، كحزب الدعوة الإسلامية وحركة أمل وبعض أتباع الإمام موسى الصدر. أتوا إلى حزب الله مع أفكارهم، وكانوا يبحثون لها عن منبر أفضل. تفرقوا بين خطوط مختلفة، منها ما هو قريب من السيّد محمد حسين فضل الله، ومنها ما هو بعيد عنه. اتصفوا بالاعتدال إجمالاً، وبسلوك النقد البنّاء الهادئ. كانوا يدعون إلى إشراك القواعد الحزبية في آلية اتخاذ القرارات وإلى اعتماد البنى المؤسساتية داخل الحزب في مقابل طغيان نفوذ بعض الأفراد.

كانت مشكلة الجماعات المعتدلة تكمن في تشرذمها وتفرقها، مما ساهم في استيعاب أفرادها من قبل المجموعات النافذة، كلّ على حدة. كما كان لهذه الجماعات نظرة مختلفة إلى طبيعة العلاقة مع الأجهزة الإيرانية لجهة التنسيق معها بدل الذوبان فيها، مع المحافظة على حد أدنى من الطابع المحلي اللبناني لرزنامة الأنشطة في الحزب.

شاركتُ هؤلاء الأشخاص نظرتهم، خصوصاً بعد تعلقي بمفهوم «المجتمع اللبناني» وشعوري بأهمية الانضواء تحت لواء الوطن بفضل تجربة العمل الطالبي في الجامعة. لم أكتف بهذه المشاركة



النظرية، بل تعديتها إلى صياغة خطة عمل إصلاحية لم أوفّر جهداً في محاولة تطبيقها بالاشتراك مع المعتدلين في الحزب.

إصلاح

كانت أهم عناوين هذه الخطة على الشكل التالي: أولاً، أن يتخلص الحزبيون في الجماعات المعتدلة من حال التفرق والشرذمة ويستبدلوها بالتعاون في ما بينهم، بغية التمكن من خلق جبهة متراصة في وجه الحزبيين المتطرفين لاقتسام النفوذ معهم. ثانياً، أن يتمّ العمل على طرح برامج حزبية تقرّب الحزب أكثر من محيطه ومن واقعه اللبناني. ثالثاً، أن يتمّ الدفع باتجاه إرساء واقع مؤسساتي في الحزب على صعيد الهيكلية التنظيمية.

كان همّي الدائم دفع الحزبيين المعتدلين إلى التلاقي والتفاهم من أجل خلق جبهة موحدة في ما بينهم. حاولت كثيراً، وبإصرار حتى الملل، بالأخص مع محمد ح. ومحمود ق. وحسين أ. وعامر ش. وحسين ك. ومحمد ر. ومحمد ف. وغيرهم. وجدت لديهم آذاناً صاغية، لكنني وجدت أيضاً ضعفاً وخوفاً من صقور الأجهزة المتحكمة، شكّلا عاملاً معوّقاً بالنسبة إليهم. دأبت على المحاولة طوال العام ١٩٩٥ وخلال قسم من العام ١٩٩٦. لكن، للأسف، كانت الغلبة دائماً لصقور الأمن والعسكر، وكان نصيبي مزيداً من الإحباط.

في النهاية، وجدت نفسي أمام واقع صعب تمثّل بأمرين: الأول اصطدامي بجبهة مضادة من الحزبيين المتطرفين، يملكون الأدوات والوسائل الفعالة اللازمة والكافية لترهيب من اتفقت معهم في الرأي على ضرورة تطبيق الخطة التي طرحت، والذين وافقوني،

نظرياً على الأقل. غذى وصولي إلى هذه النتيجة تجربتي في الجامعة الأميركية. أما الأمر الثاني، فتمثّل بمحاولة استمالتي من قبل بعض الأشخاص التابعين لأجهزة إيرانية نافذة.

رحمة الله!

في خضم انشغالي بفكرة الإصلاح الداخلي، عرّفني صديق لي، حسين أ.، على أحد الإيرانيين ويدعى «رحمة الله». قال لي هذا الأخير بعد أن التقيته للمرة الأولى إنه يعمل لصالح وزارة الأمن في إيران. بعد أن اتصلت به، اقترح عليّ أن نلتقي في السفارة الإيرانية في بيروت. حضرت إلى هناك، وكان موعدنا الأول ظهيرة أحد الأيام في غرفة في الطابق الرابع كما أذكر.

بدا «رحمة الله» متواضعاً، خجولاً، حادّ النظرة، حسن الاستماع. أخبرني حسين في وقت سابق أنه من الأشخاص الذين «يملكون القدرة على الحل والربط». كان اللقاء أقرب إلى التعارف. أردته أن يكون محاولة مني لطرق باب لم أطرقه بعد، «باب الأبواب». تكلمنا في مواضيع حزبية ودينية عامة، وركّزت في سياق الكلام على أحداث الجامعة.

عرض عليّ رحمة الله أن نلتقي مجدداً في الجامعة الأميركية. حضر إلى هناك في موعد حدّدناه، تمشّينا في أرجاء المكان، وكنت أخبره عن المباني والأقسام التي كنا نمرّ بقربها، وسردت له قصص الأنشطة والتحركات الطالبية. اتفقنا على موعد آخر في السفارة، وتركّز الكلام هذه المرة على شؤون الحزب. كان وقتها بصحبة شاب آخر لم أعد أذكر اسمه، شارك في الحديث. أردت أن أرى إلى أي مدى يمكنه التأثير في القرارات الصادرة عن أصحاب النفوذ

في الحزب، فسألته عن ذلك. لا أنسى ابتسامته وجوابه: «نحن نقول للأمين العام إفعل هذا ولا تفعل ذاك».

عندها، عرضت فكرتي عن الإصلاح الداخلي، شددت على ضرورة اعتماد الشفافية وأنظمة محاسبة تطبّق على الجميع، بمن فيهم المسؤولون في مناصب رفيعة، وأصحاب التجاوزات من جهازَي الأمن والعسكر. تحدّثت عن الحاجة إلى وضوح الأنظمة الحزبية بالنسبة إلى أفراد الحزب جميعاً، وضرورة انسجام الخطاب السياسي المعلن مع القرارات الداخلية لتجنب استغلال الحزبيين والمؤيدين للحزب. طلب إليّ الاثنان صياغة أفكاري وربطها بممارسات حصلت، بشكل خطّي، ففعلت بعد بضعة أيام.

أحضرت لهما مسودة مؤلفة من إحدى عشرة صفحة، سلّمتها إليهما بانفعال واضح، متسائلاً عن مدى قدرتهما على المبادرة. كنا في شهر أيار/مايو ١٩٩٦، إن لم تخنّي الذاكرة، ونصحاني بزيارة ترفيهية إلى إيران في ذكرى رحيل الإمام الخميني، ووجّها إليّ دعوة سياحية مدفوعة التكاليف. بدت الدعوة محاولةً للتخفيف مما ظهر لديّ من توتر وانفعال.

سياحة

في أوائل شهر حزيران/يونيو، سافرت إلى إيران برفقة آخرين. كنت طلبت من «رحمة الله» ختم تأشيرة الدخول على ورقة مستقلة لئلا يشكل وجودها على جواز سفري عائقاً أمام حصولي على تأشيرة دخول إلى بلد آخر، فلبّى الطلب بتفهّم. استقبلنا على أرض المطار رجل يعتمر عمامة سوداء يدعى سيّد أبطحي. استمرت

الزيـارة أسبوعـاً، جلنـا خلالها على مـدن إيرانية مختلفـة، منها طهران وقُم ومشهد، وعلى أجملها، أصفهان.

كان لنـا في إحدى المحطات لقاء جمعنا ووفـداً إيرانياً مع الوليّ الفقيه علي الخامنئي الذي ألقى فينا خطبة قصيرة. عند الاحتفال بذكرى رحيل الإمام الخميني، حضرنا المناسبة وسط حشد كبير من الناس، وكنا نجلس في الصف الأول – كان طويلاً – أمام المنبر.

أطـلّ الخامنئي وسط هتافات عالية بحياته كالعادة وبدأ الكلام بالفارسيـة. لم أشعر باهتمـام للاستماع إلى لغة لا أفهمها، ففتحت كتابـاً من كتب منهج الحقوق للسنـة الرابعة كان معي طوال الوقت، وصـرت أطالعه. نهاني بعض الموجودين عـن الاستمرار في القراءة لمـا يظهر في الأمر من عدم اكتراث للخطبة، لكنني لم آبه، ربما لأن فكري كان في مكان آخـر: الجامعة، الطلاب، الامتحانات القادمة، الأصحاب الجدد، شؤون أخرى...

بعـد عودتي من الرحلة بقليل، التقينا مجدداً في السفارة. افتتح رحمة الله ورفيقه الحديث بالتركيـز على أهمية التمسّك بالإسلام «الأصيـل»، إسلام الأئمة الإثنـي عشر، وتجسّده في هذا الزمن على يـدي الإمام الخمينـي بإقامـة الجمهورية الإسلاميـة، التي أخذت علـى عاتقها دعم ثـورات المستضعفـين في أرجاء الأرض، وأهمها ثـورة حزب الله. قالا بأن الأخطـاء والتجاوزات تحدث هنا وهناك، لكـن الله يسدّد المسيرة، لا سيما في ظل وجـود قادة حريصين على الإسـلام كالسيّد الخامنئي والسيّد نصر الله. ثم أضافا بأنهما قرآ باهتمام مـا كتبته ولا ينكران وجهة نظري فيـه، وبأنهما على دراية بالكثـير مـن الممارسات التي ذكرت. لكن، كمـا أكملا، فكرتي حول الإصـلاح لا تتلاءم مع طبيعة المهام الجهادية التي أُعدّ لها الحزب،

ولا ضرورة لأن أحمل همّ الإصلاح بحدّة وانفعال، فهناك أمور أهمّ، وطرق عديدة لخدمة الإسلام.

سألاني أخيراً: «ما رأيك بمشروع مختلف؟» ثمّ عرضا عليّ العمل معهما من ضمن اقتراحات أقدّمها إليهما، يكون لي فيها هامش الابتكار والتأثير والتميّز، وأعربا عن استعدادهما لتقديم الدعم الماديّ والمعنويّ اللازم. شعرت بالصدمة.

كان همّي في واد آخر. لكي أكون منصفاً، لا أنكر أنني لقيت تقديراً واهتماماً بالغين من قبلهما، لكن هذا كان لقاءنا الأخير. خرجت من الاجتماع بغصّة منعتني من متابعة الحديث، وفي داخلي خيبة كبيرة، وحسرة لا أبالغ إذا قلت إن عيني دمعت بسببها بعد أن وصلت إلى سيارتي. اعتبرت عرضهما إرضاء لخاطري والتفافاً على ما أتيت إليهما من أجله.

لا أخفي أن ما حملتُه من نظرة للإصلاح نتج من انطباعات وكلام وشكاوى عبّر عنها آخرون وتبنّيت أنا مضامينها. فالكلّ كان يخبرني عما يحتقن في داخله من معاناة مصحوبة بقلة الحيلة في التأثير، بالرغم من تقلد المناصب الرفيعة. كلام كثير وغزير، أجّج فيّ فكرة الإصلاح من جهة، وفكرة لوم من كان في تلك المناصب والغضب منهم، لاستسلامهم للضعف، من جهة أخرى. ربما دار في خاطر هؤلاء الشاكين أنه يمكنني أن أنجز ما لم يستطيعوا إنجازه، فأولوني ثقتهم. في مآل الأمور، باتت عناوين ومقدسات تتهاوى أمامي كأوراق الخريف، وهي أمور كنت أستشرس في الدفاع عنها سابقاً.

في هذه المرحلة، لا أخفي وجود شيء من التناقض بين تبدّل الأفكار لديّ، انعكس سلوكاً تمثّل بالنزعة نحو الابتعاد عن الأجواء الحزبية، وبين الاستمرار في اللقاءات مع الإيرانيين. لعل الجواب يكمن في محاولتي دق هذا الباب الأخير، كما أسلفت، لتتأكد لدي قناعاتي المستجدة، قبل أن أدير ظهري للحزب، خصوصاً أن من اجتمعت بهم يشكلون أعلى مواقع القرار، ما يتوّج مشواري الطويل والمتشعّب في صفوف الحزب.

لو سنحت لي هذه الفرصة من قبل، لما كنت تردّدت في تلقفها. أما أن تتاح لي الآن في ظل اهتزاز قناعاتي والتقلب الحاد في أفكاري، فهذا لم يعنِ لي أكثر من الاطمئنان إلى بلوغ آخر المشوار. أردت حينذاك أن أكون أقرب إلى أصدقاء جدد، أشخاص يشبهونني أكثر، أشخاص يعنيهم الصدق وتعنيهم الأخلاق أكثر.

توقف المجلة

في تلك الأثناء، أي في منتصف العام ١٩٩٦، كنت قد أنهيت دراسة الهندسة الزراعية في الجامعة الأميركية والحقوق في الجامعة اللبنانية، لأنال شهادتَي الاختصاص في المجالين. بدأت مباشرةً دراسة الماجستير في الاقتصاد الزراعي في الجامعة الأميركية والتحضير للتدرج في مهنة المحاماة وللامتحانات المطلوبة للالتحاق بنقابة المحامين في بيروت.

في الوقت نفسه، دفعني التعلق بعالم تربية النحل إلى العمل في مجال الأبحاث العلمية في الجامعة الأميركية من أجل تطوير مهنة تربية النحل في لبنان. لم تكن مادة تربية النحل واردة في المنهج العلمي في كلية الزراعة أصلاً، ولا في مجال الأبحاث المتصلة بها.

حملت معي المبادرة، التي كان لأبي الفضل في إطلاقها في بلدات الجنوب اللبناني، إلى الجامعة الأميركية، لأكمل كباحث هناك ما بدأه أبي كمرشد زراعي في الجنوب.

كانت مجلة «Gate» لا تزال تصدر، ولكن بشكل متقطّع. وبفعل العقبات المتلاحقة، وأهمها تأمين التمويل اللازم، خصوصاً بعد استنزافي أموال الأسرة ووقوعي تحت ضغط الاستدانة من الأصدقاء، وبعد أن امتنع المسؤولون في التعبئة التربوية عن المساعدة في التمويل بعكس ما وعدوا به من قبل، جاء القرار بالتوقف عن الإصدار.

لم أساوم مع الإيرانيين ولا مع الحزبيين، حتى تحت وطأة الديون، لكي أبقى منسجماً مع نفسي في ما حملت من أفكار. لم ألِن لتحسين وضعي المالي، بل كان همي الأول أن أكون مخلصاً في ما طرحت، رافضاً أي ترضية أو مكسب جراء التنازل عنه.

كانت تجربة إصدار المجلة قد خلقت مناخاً مثالياً للاحتكاك والتفاعل مع اشخاص انتموا إلى معظم المشارب الدينية والاجتماعية والسياسية في لبنان، مما أدى إلى توسيع هامش فهمي لمنطلقات هؤلاء الأشخاص وعاداتهم ومبادئهم. عزّز هذا الفهم لدي التمسك بشكل أكبر بالانفتاح والتواصل مع الغير، وتغليب حسّ الانتماء إلى الوطن على ما دونه.

كانت المجلة متنفساً لي في مقابل ما عشته من ضغوط العمل الحزبي. صحيح أنني واجهت ضغوطاً من نوع آخر، لكن المجلة أشعرتني بالانتماء إلى رفاق الجامعة الجدد، ممن تفهموا مواقفي وبقوا إلى جانبي منذ تحرك تشرين الأول/أكتوبر.

لكن في النهاية، وبالرغم من المناخ الذي أوجدَته تلك المطبوعة، كنت أتمنى أن يتسع نطاقها ليشمل عدداً أكبر من الطلاب والخريجين المنتمين إلى الحزب، فيساعدهم ذلك على توسيع آفاقهم والاندماج أكثر مع أقرانهم من المواطنين. شكلت المجلة منبراً آخر لعرض وجهة نظري بخصوص إصلاح مفاسد المجتمع.

كتبنا عن القوة في اتحاد الطلاب، الفساد في الدوائر العامة، هموم الشباب، الحقوق والواجبات المدنية، آفات الطائفية، الانتماء للوطن، وغيرها من أولوياتنا كطلبة وخريجين. حال الضغط المادي دون الاستمرار، ورافق وقف إصدار المجلة أن أخذت على عاتقي الديون الناتجة من ذلك، والتي أثقلت كاهلي لسنوات تلت.

تأمل ورجوع إلى الذات

في تلك الأثناء أيضاً، نقلتني المناسبات والأحداث المتعددة من الأجواء الحزبية المغلقة إلى أجواء العيش والتفاعل مع مختلف الناس، بعد ما شهدته من خيبات الأمل على مستوى أولويات العمل الحزبي وآلياته البعيدة كل البعد عن الشفافية. أمضيت صيف العام ١٩٩٦ وأنا أقوم بالكثير من التفكير والتأمل في أمور الدين والحياة والخير والشرّ وغير ذلك. تشكلت لديّ فلسفة خاصة في الحياة سوف يأتي الحديث عن نواحٍ منها لاحقاً.

في أحيان كثيرة، رحلت بعيداً إلى البراري والجبال البعيدة في الجهات الأربع. كنت أتوق إلى رؤية أماكن جديدة لعلها تمدّني بالأمان الذي افتقدته في أنحاء المدينة وازدحام طرقاتها وتلاصق أبنيتها.



أثناء الليل، كنت أطيل التفكير في مدى تأثير البيئة والمجتمع والعائلة في طبع حياة الفرد بأنماط عيش معيّنة، وفي كيفية استغراق كل جماعة دينية أو مذهبية في ما أوجدت نفسها فيه من أطر مصطنعة تدفع بها إلى اعتبار كل ما لديها صواباً وحقاً، وكل ما لدى غيرها خطأً وضلالةً.

بدأت أفهم كيف يؤدي هذا الاستغراق في تصوّر ما يؤمن به الغير ويطبقه، من دون اختباره معه، إلى إيجاد بذور للتطرف في المواقف والمعتقدات، بدل التحلي بالاعتدال والتوازن وفهم ظروف الآخرين. كأنني أجري جردة حساب، لا بل أستجمع الحسابات السالفة، لأضيف إليها الحسابات الآتية، قبل أن أحصل على نتيجة الجردة.

ربما وردت هذه التساؤلات إلى ذهني انطلاقاً من تفاصيل الحياة اليومية التي عشتها؛ أو هي تعددت بعد أن جنحتُ في السابق إلى اتّباع التطرف الناتج من التمسّك بالانتماء الحزبي والطائفي، بدل اتّباع التعاليم الفضلى للدين والمذهب التي كان أجدادنا ينتهجونها. قامت تلك التعاليم على الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وليس بالفرض والقوة، باعتبار التديّن، أو بالأحرى الإيمان، أمراً بين الإنسان وربّه. الإيمان لا يقبل الاحتكار، وهو ليس إسقاطاً للمصالح السياسية على التفسيرات الدينية. ليس الإيمان إضفاءً للطابع الإلهي على أعمال نقوم بها كما يقوم بها غيرنا، ننسبها إلى الله وندّعي أنها صادرة باسمه.

الاستقالة من حزب الله

كانت خلاصة هذه التأملات أن اهتزّت قناعاتي الحزبية، بالرغم من تضحيات كادت أن تكلفني حياتي في بعض الأحيان. لكي لا يُساء

فهمي، أقول إن التبدل الحاصل في قناعاتي لم يؤدّ إلى رفض المبادئ والمعتقدات الحزبية جميعها، بل كنت ولا أزال أعتقد بارتقاء بعضها إلى ما فوق الجدل. كان عظيماً ما تحقق من منجزات على صعيد مقاومة الاحتلال الإسرائيلي التي اختزنت السموّ في الاستبسال في الدفاع عن الحق، وعاد الفضل فيها إلى شبان لم يترددوا في تقديم الغالي والنفيس في سبيلها. وهل هناك أسمى من الشهادة؟ لكنني تمنيت ألا يرافقها ما رافقها من تسييس وزج في حسابات لا تحمل في طياتها أخلاقيات الفكر الديني الذي خطّه أئمة الشيعة.

قررت ترك العمل بشكل نهائي ضمن جهاز التعبئة التربوية كممثل لحزب الله في الجامعة الأميركية. أعلنت قراري أمام الجميع هذه المرة. بعد عدة أشهر، قررت الاستقالة نهائياً من العمل في صفوف حزب الله، في أواخر العام ١٩٩٦، لأكون أكثر انسجاماً مع نفسي.

كان أول من صارحتهم بالأمر، وتحدثت عن شؤوني وشجوني إليهم، ذلك العدد القليل من الأصدقاء في الحزب. كانوا لا زالوا يشغلون مراكز حزبية، لكن كانت بيني وبينهم صداقة وثقة.

لا تغيب عن بالي العبارات التي سمعتها من عامر ش. وحسين أ. وربيع ب. بعد عرض الأمر عليهم: «لا تجعل مشكلتك مع البعض في التعبئة التربوية تؤدي بك إلى الحكم على كل الأمور»، «هل أنت مجنون؟ أتريد أن تترك الحزب في الوقت الذي راكمتَ فيه شعبية تجعلك تبلغ أعلى المراتب السياسية؟»، «ألا تعتقد أنه بإمكانك إحداث التغيير والإصلاح من داخل الحزب بعد أن تتبوأ مركزاً مهماً فيه؟»، «أنت على أبواب الدخول إلى المجلس النيابي على الأقل»، «ماذا تريد أن تفعل بالمقابل، أن تكون مصلحاً اجتماعياً؟» لكن جوابي كان أن تحقيق مكاسب معينة من خلال العمل الحزبي



لا يمكـن أن يكـون على حسـاب الالتزام بالقيم والأخـلاق، ولا على حسـاب الوقوف في وجه الخطأ بجرأة. قلت لهم أيضاً إنني لن أكون منسجماً مع ذاتي إذا بقيت، فخير لي أن أنخرط في عمل نظيف مع الناس، من أن أكون مغلوباً على أمري.

سجّلت تلك اللحظات نهاية عملي الحزبي، بعد أن أمضيت زهاء اثني عشر عاماً في العمل التنظيمي بمختلف أشكاله، منذ ١٩٨٥ حتى ١٩٩٦. قطعت على نفسي عهداً حينذاك بأن أبقي ما اختبرته داخل صفوف الحزب طيّ الكتمـان، وأن أترك ورائي المشاكل والخلافات جميعها.

عندمـا قمت بزيارة جهاز الأحوال الشخصية في الحزب، طلبت إجـراء مخالصة مالية لمـا لي بذمة الحزب أو عليّ له من أموال. لم يكـن عليّ درهـم واحد، بل كان لي مبلغ تعدّى ألفي دولار اميركي لم أحصـل عليه حتى بعد زيارة أخـرى، بسبب المماطلة في أخذ القرار بدفعه. بعد ذلك، قرّرت أن أنسى أمر المال.

في تلك الأثناء أيضاً، تلقيت اتصالاً من «رحمة الله»، قال فيه إن مهامه في لبنان قد انتهت، وإنه أراد أن يطمئن إلى صحتي ويودّعني. شكرت له اتصاله وتمنيت له الصحة والسلامة.

مرت سنة على تركي العمل ضمن صفوف الحزب، لم أقم خلالها بنشاطات عامّة تذكر، بـل أمضيتها في تعزيز علاقاتي بالعديد من الطـلاب والخريجـين. حاولـت الاقتراب أكـثر من الفتيـات؛ كنت بحاجـة إلى حضـن دافئ، لكنني لم أكن بعد علـى استعداد لخوض تجربة عاطفية.

بالرغم من أنني تركت العمل الحزبي نتيجة قناعة وإيمان عميقين، إلا أن فكرة الإصلاح من داخل الحزب بدل تركه ظلت تراودني، خصوصاً إثر النقاشات التي خضتها مع بعض الأصدقاء.

كنت أشعر بشيء من الغرابة أحياناً، كنبتة اقتُلعت من جذورها، توقّف نموها، أصبحَت من دون دفء كان يغمرها وأمان كان يحيط بها، بانتظار أن تزرع في مكان آخر. أحسست بأهمية الجماعة، أو المجموعة، بأهمية الشعور بالاطمئنان في ظلها، حتى لو كانت طائفة أو حزباً، خصوصاً عندما لا يؤمّن الانتماء إلى الوطن ذلك.

في النهاية، وجدت نفسي منسجماً مع ما قررته، كما شعرت بحاجة إلى الابتعاد عن المناخ الذي لازمني طوال الفترة السابقة. كنت أتطلع إلى خوض تجارب جديدة ومختلفة مع أناس آخرين، اتضح أنها شكلت لاحقاً مصدر غنى كبير لتجربتي في الحياة. لكن فوق ذلك كله، أردت أن أشعر بالأمان في وطني. هل تراه يقدّم لي أكثر مما قدّمه لي الحزب والطائفة؟

رابعاً- الرابطة

في النصف الثاني من العام ١٩٩٦، تطلعت إلى تأسيس تجمع للشباب من طلبة وخريجين. توليت وضع أسسه التي أتت نتيجة ما توصلت إليه من أفكار، كما توليت قيادته بما أوتيت من مقدرة وطاقة. كانت الخطوة الأولى محاولة خلق نواة من أشخاص منسجمين يملكون القدرة على تولي إدارة التجمع. كان من الطبيعي أن ألجأ إلى زملاء عرفتهم في الجامعة الأميركية خلال السنوات



القليلة الأخيرة، وخصوصاً أولئك الذين خاضوا معي تحرك تشرين الأول/أكتوبر والذين بقيت على تواصل معهم.

التأسيس

تألفت النواة في البداية من ثلاثة شبّان وفتاتين، علي ن.، زاهر و.، وسام أ.، كاتيا ن.، ودانة م. الذين كانوا جميعاً حديثي التخرج في الجامعة الأميركية، ضمن اختصاصات مختلفة. كان علي ووسام وكاتيا من المسلمين الشيعة، وزاهر ودانة من المسلمين السنة.

شعرنا بحاجة إلى انضمام أفراد آخرين إلى هذه النواة، من ديانات وطوائف مختلفة، وحتى من جامعات أخرى، في محاولة لإعطاء صورة مصغرة عن انتماءات المجتمع اللبناني المتنوعة.

تكفلت بصياغة وثيقة المبادئ والأسس والأهداف، وأدرجناها في كتيّب اطلقنا عليه اسم «إرادة التغيير». تمحورت الخطوات اللاحقة حول التوجه إلى جمهور الطلاب والخريجين بهدف نشر وثيقة المبادئ ودعوتهم إلى الانضمام إلى التجمع، بالترافق مع الاتفاق على قواعد تنظيم العمل. من أجل ذلك، كنا نذهب معاً، أو كنت أذهب منفرداً لفرط الحماسة، لزيارة مختلف الجامعات. بعد نقاشات لساعات مع عدد كبير من الطلاب كنا نختارهم بشكل عشوائي، انضمّ عدد منهم إلى الرابطة.

أدّت النقاشات المطولة التي جرت مع البعض إلى اختيار قسم منهم للالتحاق بنواة التجمع التي تحوّلت إلى هيئة إدارية في مرحلة لاحقة. فارتان ق. مسيحي أرمني كان يدرس في جامعة هايكازيان على ما أذكر، هنادي ك. مسيحية مارونية في كلية الإعلام في الجامعة اللبنانية – الفرع الثاني، زياد ر. مسيحي في الجامعة

اللبنانية، وداد أ. درزية في جامعة القديس يوسف، وجنى ز. مسيحية أرثوذكسية وباسل ك. درزي، والاثنان في الجامعة الأميركية. كما انضم عشرات الطلاب إلى الرابطة نتيجة الزيارات المتكررة إلى الجامعات، معظمهم طلاب أو خرّيجون جدد.

أطلقنا على التجمع اسم «رابطة نهضة الشباب». أضافت دائرة الجمعيات في وزارة الداخلية كلمة «الاجتماعية» إلى الاسم عند تقديم طلب الحصول على العلم والخبر، لإضفاء طابع العمل الاجتماعي وليس السياسي على الجمعية. في ظل القوانين والأنظمة المعمول بها في لبنان، اخترنا طريق الجمعيات الأهلية.

لم تكن الجمعية تشكل الإطار الأنسب الذي نتطلع إليه، لكننا عزونا هذا الاختيار إلى غياب قانون عصري للأحزاب يقوم على تحديد مصلحة الوطن العامة وما سواها من مصالح تدخل في عملية التنافس الحزبي. أما السبب الآخر، فكان سوء أداء الأحزاب الموجودة، بشكل دفع كلاً منها إلى إصدار قانونه الخاص ليختصر الوطن تحت سقفه الضيق، وليكيّف المصلحة العامة بحسب مصالحه الحزبية. كما لم نكن نريد الالتزام بأي منهج حزبي أو طائفي، ولا الاصطفاف وراء الموالاة أو المعارضة لأن الحل ليس لدى أي منهما، كما كنا نرى.

أفرزت التساؤلات والأفكار التي شغلت بالي في الفترة التي سبقت أواخر العام ١٩٩٦ مجموعة من المبادئ والقيم حملتها معي إلى الرابطة التي تبنّتها منهجاً لها. بقي تأثير العامل الشخصي واضحاً، ممّا جذب الكثيرين. المهم أن هذه المبادئ والقيم لا زالت هي هي إلى الآن، مع فارق نضوج التجربة في السنوات العديدة التي تلت.

كان تركيـزي منصبّـاً على الأخـلاق الإنسانية وعلـى مراعاتها في التعامـل مـع بعضنـا البعض. لم أكـن آبه لأي قالـب جاءت فيه، دينيـاً كان أو اجتماعيـاً أو علمانيـاً أو غير ذلـك. كانت ردات فعلي جميعها تقـوم على ما اختبرته من استغلال طبقـات معيّنة للناس، على طرح برامج تدعي رعاية مصالحهم في حين تكون في واد آخر، علـى المتاجرة بلقمة عيشهـم ودمائهم تحت أي ذريعـة كانت، على الاستخفاف بآرائهم. عنيـت الساسة جميعاً، لأنني نظرت إلى أبعد ممن أحاط بي وتعاملت معه خلال تجربتي السابقة.

رأيـت نمطاً من الفسـاد والشواذ منتشـراً في كل حزب وطائفة وجماعـة. تبدّل المحيط والأصدقاء، لكـن دوافعي لم تتبدّل، وبقيت على حنين إلى المدينة الفاضلة، ما اعتبرَه البعض مأخذاً عليّ.

مبادئ الرابطة

أجد من المفيد هنا أن ألخّص أفكاري كما بدت عند تشكيل نواة الرابطـة. انطلقت الفكرة من كوننا نرضـى بالقليل، نقبل بأن يمنّ علينـا مَن تولّوا زمام الأمور، نغـرق في تأملات وتساؤلات عن معنى اعتدادنا بانفسنا كمواطنين لهم الحق بأن يكونوا الركن الأساس في عمليـات التطوّر والرقي. فالإنسـان هـو المنطلق والهدف لأي ارتقاء أو حركة، ولكي توصف تلك الحركة بالحضارية، عليها أن تسعى إلى تعزيـز مكانتـه، وأن تؤمّن له رغد العيش، وأن تجعل ذلك في مقدمة أي اعتبار...

رأينا واقعنا الاجتماعي والسياسي فاسداً وعفناً، لما يشتمل عليه من تراكمـات شوهت صورتـه وجعلت الإنسان فيـه يعيش مواطنية هشـة تفتقر إلى أهم أركانها. في ظل هذا الواقع الباعث على اليأس

والإحباط، والذي أحس فيه الناس أنهم سُلبوا الإرادة وفقدوا الأمل في إصلاح ما فسد من شؤون بلدهم، احترنا ونحن نقف على أبواب التخرّج في الجامعة: هل نصبح جزءاً من هذا التردي، فنفقد ما تبقّى لدينا من أمل في التغيير إلى الأفضل، أو نحافظ على بذرة خيّرة حملناها معنا أثناء الدراسة، تدعونا إلى الانتفاض شعلةً مضيئةً في هذا الظلام الحالك والسكون المريب؟ إذا كان لأي مبادرة حسنة أن تقوم، فعلينا أن نكون في صلبها.

إن معظم الممارسات التي كنا نراها أو نسمع عنها في السياسة نمّت عن فساد متجذر أصبح لا يطاق. ها هي الجامعة تمنحك شهادة الاختصاص، معتبرة أن دورها قد انتهى عند هذا الحد، مغفلة ضرورة صقل شخصية الطالب وتهيئته لتحمل مسؤولياته الاجتماعية والسياسية. وها هي الأحزاب والحركات الحالية قد غرقت كلّ في بوتقتها وعرّفت المصلحة العامة على قياسها، لتنتج جيلاً لا يتمتع بنظرة شمولية إلى الأمور، بل ينظر إلى ما حوله من خلال الأطر الضيقة التي وضعتها له.

لا ينبغي لنا أن نرث عن أسلافنا حفنة من الأطر الجامدة نضيع في تفاصيلها؛ علينا أن نبحث عن منطلقات أعمّ، تزيل الحواجز المصطنعة بيننا وتكوّن أطراً جامعة لتوحيد جهودنا من أجل بناء غد أكثر إشراقاً.

كل إنسان ابن محيطه وبيئته، لكن لا يجوز أن تكون قوانينه وحدها مقياساً لعلاقته مع الآخرين. هذه البيئة تطبعه بطابعها وتورثه ما يكمن بين صفحاتها، فعلى كل منا تفهّم تصرفات غيره من خلال ما عاشه هذا الغير من ظروف ووقائع. عند ذلك يمكننا الحديث عن إمكانية الالتقاء في مشروع تتوافر فيه أهداف مشتركة

وصلات وروابط قوية، وليس تقاطع مصالح آنية فحسب. دعونا نترك الإيمان وتطبيقاته محصورة بين المرء وربه، ولنهتمّ بما من شأنه التأثير في علاقاتنا ببعضنا البعض، ضمن النسيج الاجتماعي الذي يجمعنا.

رأينا أن الإحباط أضحى سيّد المواقف بعد فشل تجارب عديدة لا نودّ تكرار أي منها. لا يجدينا نفعاً الاستغراق في أطر حزبية أو فئوية أو طائفية، لأن كل الأطر المعتمدة تشترك في مواطن الاهتراء والفساد التي أصابتها. طبيعة المرض تحدد نوع الدواء.

أصبح الشواذ قاعدة في مجتمعنا، وباتت مشكلتنا في الذهنية المريضة التي سيطرت على عقولنا، وجعلت حركتنا اليومية تصبّ في إذكاء الفساد. ليس الحل في المقابل إلا بتحلّينا بالوعي وبنشره، بالانتفاض العارم على الشواذ. لا جدوى من الاستغراق الكلي في خيار الموالاة أو في خيار المعارضة، لأنه لو افترضنا وجود المعارضة مكان الحكومة، هل كانت مشاكلنا ستحل؟ هل سيكون ذلك كافياً ليتوقف موظفو الإدارة والمواطنون عن الرشوة و«الواسطة» والاختلاس وضروب الأداء المنحرف الأخرى؟

لنأخذ مثالاً يساعد على تشخيص المشكلة بشكل أوضح. إن التمثيل الشعبي والانتخابات في لبنان تستحضر مباشرة إلى أذهاننا التشويه والتزوير و«التعليب» ورفض النتائج إذا لم تأت على أساس حسابات معينة. أما العملية الانتخابية في الدول المتطورة، فإنها تتعاطى مع الأمر بشكل مختلف، لأن الجميع هناك اتفقوا على عدم المساس بصالح المجتمع كله، مما يحدد حقوق المواطن وواجباته بوضوح، ولو أن العملية لا تخلو من الشوائب. لذا، فإن التنافس الحزبي يقتصر على ما دون هذه الحقوق والواجبات من

أمور نسبية فيها وجهات نظر مختلفة. أما في مجتمعنا، فقد حددت كل فئة الصالح العام على قياسها وطريقتها، وجعلت مصالح المواطنين الآخرين في مرتبة أدنى، فأصبح التنافس الحزبي حاداً في طبيعته نتج منه التمزق والتشرذم والتفكك الذي نشهد. من هنا، إذا حصلت عملية غش أمام أحدنا، صار يتغاضى عن اعتبارها عملاً شائناً، لربطه إياها بعوامل أخرى؛ ينظر إلى صفة الفاعل الحزبية أو الطائفية أو غيرها، فيسامحه أو يدينه.

سعينا إلى أن يأخذ الشباب المدرك والمثقف دوره في المجتمع، لما يتمتع به من مزايا وقدرات تؤهله لتصحيح مسار الأمور. كل حركة بحاجة إلى التطلع نحو البعيد لتستقي منه طموحاتها، ونحن نطمح إلى تطوير نظامنا السياسي بما يؤدي إلى إرساء قواعد الديمقراطية الصحيحة، وتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة في المواطنية، وإعمال الكفاءة والجدارة. هذه الأمور تشكّل طموحاتنا وأهدافنا البعيدة. نحن بحاجة إلى تضافر الجهود وإلى الاجتماع والتعاون من أجل تقويم الاعوجاج، بما لا يدع طارئاً يفرق بيننا ويزعزع الركائز التي انطلقنا منها.

أردنا أن نشيّد بناءً ذا أساس متين يستمر ويبقى، لا يهوي بعد تألق واتساع. آثرنا التركيز على النوعية لا على العدد لأننا آلينا على أنفسنا الاستمرار ومواجهة المشاكل والضغوط شتى، من دون أن نكون مجموعة كبيرة هي ثمرة تقاطع مصالح آنية، فننهار أمام الصعاب. أردنا أن نرسم طريقنا بغض النظر عن الظرف ومغرياته، فلا يكون هذا الظرف إلا عاملاً مساعداً. أردنا ألا ننتهي عندما ينتهي الظرف، فننطفئ حين ينطفئ. كذلك، اعتبرنا أن



مـا نحتاجه من صفات فينا هي أربـع: الصدق والصراحة والتفاني والالتزام، بغض النظر عن المعتقد والفكر والانتماء.

بقـي أن نتحـرك بشكل منظّـم، لا أن نكتفي بالعفويـة إذا كانت ستقودنا إلى الفوضـى. الشواذ بحد ذاته يمارس بشكل منظّم ومن خلال مقدرات هائلة تقوم على احتكار السلطة والمال والإيمان، وعلى مواجهته بالتالي أن تكون مدروسة ومحسوبة. المشكلة هي في تطبيق القوانين والأنظمة أكثر مما هي في نصوص هذه القوانين والأنظمة، ولـو لم يُسـأ تطبيقها لما آلـت الأوضاع إلى ما هي عليـه الآن. لذلك اخترنـا التغيير من داخل النظـام وليس من خارجـه، لأن القوانين الموجـودة مقبولة نسبياً، ولأن هذا الاختيـار يعزز التواصل مع أبناء المجتمع ويعطي الحركة شرعية وقبولاً من الجميع.

لم يقتصـر حديثنـا عـن التغيـير علـى السهـرات وأحاديـث الصالونـات، بل أردنـا أن نترجم قناعاتنا حركـة فاعلة على أرض الواقع، تجمع كل الشباب الواعي من طلبة وخريجين ومثقفين. سعينا إلى استثمـار هذه الفترة من أعمارنا خير استثمار بنشر الوعي بين أفـراد مجتمعنا، إلى أن تكـون حركتنا الجـواب الأسلم على هموم الشبـاب وتطلعاتهم. سعينا إلى خلق منـاخ من الالتزام بمشروعنا. في النهايـة، كنا ندعو كل شاب إلى المشاركة في هذا البناء، كمدخل وضمانة ينسجم فيهما مع نفسه ومع غيره، ويتحمل المسؤولية الملقاة على عاتقه.

نشر المبادئ

أعـود إلى ما آلت اليه أمور الرابطة. أتذكر انطباعات العديدين ممّـن دعوتهم إلى الانضمام إلينا؛ قالـوا لي إن جرأتي في التحدث

اليهم استفزتهم ودفعتهم إلى الاستفسار عن محتوى الدعوة وإلى الانضمام لاحقاً إلى الرابطة. كانوا أكثر من مائتي شاب وشابة من بيئات متعددة وأنماط عيش مختلفة وصلت إلى حد التناقض أحياناً، أتوا ليعملوا معاً تحت سقف واحد.

أرادوا للبنان أن يبقى وطناً فريداً يضم مواطنين يحملون عناصر الاختلاف في الدين والطائفة والثقافة والتربية. أرادوا أن يتحلّى الجميع بمناقب المواطنية الحسنة من أجل خلق مناخ من الحس الوطني الجامع وبناء وطن معافى، بدل ذلك الذي يرزح تحت وطأة الاحتلالات والانقسامات. لم يكن هؤلاء بالنسبة إليّ أعضاء في الرابطة فحسب، بل كان منهم أصدقاء وأحباء، وأقرب صديق وحبيب، كما ستبيّن هذه السطور لاحقاً.

نشطتُ في التجمع بإيمان واندفاع، بقدر ما كنت قد نشطت في عملي في حزب الله. كانت المرة الأولى التي نناقش فيها شؤوننا الخاصة والعامة بمنتهى الصدق والصراحة، لنتمكن، بعمق، من تشخيص مَواطن الخلل في بنية البلد المذهبية والاجتماعية والسياسية، عوضاً عن الاكتفاء بلغة المجاملة، لغة الكذب والتكاذب.

كانت الاجتماعات والجلسات على نوعين: اجتماعات إدارية وتنظيمية تعقد في أماكن عمل الأعضاء، أو في قاعات التدريس في الجامعة، أو حتى في المقاهي أحياناً. كانت تأخذ طابعاً جدياً، تتخللها كتابة المحاضر والملاحظات وخطط العمل، بالإضافة إلى النقاشات الطويلة والاستغراق في التفاصيل النظرية. والنوع الثاني لقاءات غير رسمية لتناول الطعام أو المرح أو ارتياد الشاطئ ودور



السينمـا. لم تخلُ هذه اللقاءات بدورها مـن التطرّق إلى الأحاديث السياسية والعقائدية والفكرية.

علـى الرغم من التفاوت بـين أفراد الرابطـة في درجة الالتزام والحماسـة، فإن ما شاع من جو جماعي ما لبث أن شكل حافزاً لدى الجميع للتنافس علـى العطاء. وغالباً ما حاولت المساعدة في الحثّ على أخذ المبادرات وتقليص المسافات بين الأعضاء.

كانت ترسبات من عملي الحزبي السابق تظهر أحياناً في جوانب من أسلوبي في العمل، منها توخّي الحذر الشديد عند انضمام أفراد جدد، خشية تسلل من يريد إشاعة البلبلة داخل الرابطة. بدا في هذا الأسلوب بعض التناقض مع مبدأ الشفافية في العمل الديمقراطي، لكـن اثنتي عشرة سنة من العمل الحزبي كان لا بد أن تترك آثارها عليّ.

من الأمثلة على ذلك كان ابتداع ما سمّيناه «قَسم الولاء للرابطة» الذي وضعناه شرطاً لتولي أيّ مهمّة في الهيئة الإدارية. ومن الأمثلة العمل على إبعـاد الأعضاء الذين دأبوا على إثارة النقاشات الحادة والجـدال عن تولي مسؤوليات في لجان العمـل؛ كذلك صياغة طلب انتسـاب مفصّل للتمكن مـن الاطلاع على تفاصيل حيـاة الأعضاء وإعداد ملفات موثقة عنهم.

لعل ما برّر هذه الخطوات تخوّفي الدائم من محاولات اختراقنا، خصوصـاً في ظـل غيـاب نظـام معلومـات نستعلم مـن خلاله عن الأفـراد. نما التجمع ببـطء، في ظل رفضنا الاصطفـاف السياسي خلف أي من التجمعات الموجودة على الساحة، ورفضنا الارتباط بأي منها من خلال التمويل. اعتمدنا على اشتراكات الأعضاء وعلى بعض

التبرعات المحدودة، وكنت أساهم شخصياً في تغطية التكاليف ممّا أحصل عليه من عملي. استأجرنا شقة في محلة الطيونة في بيروت لتكون مركزاً للرابطة ومكتباً لمجلة «Gate». عادت المجلة، بعد توقف دام حوالي سنتين، منبراً إعلامياً للشباب الجامعي ليعبّروا عن آرائهم ومشاكلهم بحرّية. استمرينا في المكتب من منتصف العام ١٩٩٧ حتى أواخر العام ١٩٩٨.

عقبات

من العقبات الكثيرة التي واجهتنا، التأخر في الحصول على العلم والخبر من وزارة الداخلية. في انتظار ذلك، قرّرنا أن نسلك القنوات الإدارية العادية، مثل الأمن العام ومحافظة بيروت، ناهيك عن دوائر وزارة الداخلية ومكتب المدير العام للوزارة، دون اللجوء إلى «الواسطة» أو الرشوة أو أي تجاوزات أخرى. أدى هذا «الترفّع» من قبلنا إلى أن واجهنا صعوبات جمّة. أذكر هنا تمنّعنا عن رشوة الموظف المشرف من قبل الوزارة على انتخابات الجمعية، مما أدى به إلى اختلاق عشرات الأعذار لعدم إتمام العملية. علّق علي ن.، قال: «كان رأسمال العملية خمسين ألف ليرة. سنتكلف الآن أضعاف هذا المبلغ في المتابعات وإضاعة الوقت».

جاءت العقبة الأكبر من بعض الأفراد في حزب الله، ممن اعتبروا التجمع مناهضاً للحزب. في الواقع، كانت لهؤلاء مشكلة شخصية معي ارتدت آثارها على الرابطة. وبحجة أنه لا يجوز لي قيادة أي تحرك جديد بعد ترك العمل الحزبي، عمد بعض المغرضين إلى الإساءة إلى سمعتي بين زملاء الجامعة، والادعاء أنني أحاول من خلال الرابطة تنفيذ ما عجزت عن تنفيذه في إطار عملي في الحزب. وعيتُ لاحقاً أن هؤلاء انطلقوا من اعتباري منافساً لهم



في العمل الحزبي من قَبل، كما أثار غيظهم أن أتخلى عن الحزب ببساطة. لكن علاقتي بقيت جيدة مع البعض الآخر. انضم إلى الرابطة عدد قليل من الأفراد كانوا على صلة بأولئك المغرضين، وحاولوا عبثاً إثارة أجواء من التفرقة بين الأعضاء.

صحيح أنني استطعت تخطي العديد من العقبات بنجاح، لكنني وجدت في ذلك صعوبة كان لها أثر في نفسي. وقف إلى جانبي أصدقاء مخلصون من أعضاء الرابطة، منهم جنى ز. وسوزان ر. وزياد ر.، وكذلك بعض الأصدقاء القدامى في الحزب، ربيع ب. وعامر ش. وحسين أ. وغيرهم. كان عليّ الاجتماع بكل فرد من أفراد الرابطة لإزالة أي التباس حول انتمائي السابق إلى الحزب، بعدما سبقني الأفراد المندسّون إلى زرع الشكوك حول هذا الانتماء، ما استغرق وقتاً وطاقة أرهقا أعصابي. كانت المحصّلة إقصاء عدد من الأشخاص عن الرابطة.

كما قام الأمن العام اللبناني، بقرار من مديره العام جميل السيد، بمصادرة أعداد المجلة في أوائل العام ١٩٩٨. اتصلت بي مديرة مكتبه التي قالت إنها مسؤول مكتب المدير العام على ما أذكر، وطلبت إليّ «التوقف عن لعب دور البطل»، وقالت بلغة التهديد: «أبلغك عن لسان اللواء السيّد بأنه لا يمكنك أن تعمل قبضاي». كما اتصل بي السيّد توني، المسؤول عن التوزيع في الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات، وقال إنه تلقّى تهديداً من الأمن العام، فلم يعد بإمكانه بالتالي الاستمرار في توزيع المجلة، لا بل عليه سحب كل أعدادها من الأسواق.

استطعت بعد فترة إثارة هذا الموضوع أمام الرئيس سليم الحص ونقيب الصحافة اللبنانية محمد بعلبكي وبعض الأصدقاء، لكن

لم تعد لي المقدرة على الاستمرار في الإصدار بسبب ضغوط مالية وأخرى نفسية.

أتت الضغوط عليّ من جهات ثلاث. مادياً، عبر انعدام التمويل اللازم لاستمرار الرابطة والمجلة، ولاضطراري إلى تحمل المزيد من النفقات الشخصية عبر الاستدانة من الأصدقاء وتحمّل ثقل الديون لإبقاء العمل متماسكاً إلى حد ما. ونفسياً، عبر جهد جسدي وفكري إضافي، إذ إنني، بعد حصولي على شهادة الماجستير من الجامعة الأميركية وأثناء فترة التدرج في مهنة المحاماة، عملت في مجال الأبحاث العلمية وفي مجال تربية النحل للحصول على دخل إضافي من أجل سداد قسم من هذه الديون، ممّا أشعرني بالإرهاق الشديد. وعاطفياً، عبر نكسة عاطفية مررت بها بعد فشلي في العلاقة مع الفتاة التي أحببت، الامر الذي سأخصه بالكلام في فقرات لاحقة.

تراجع وخيبة أمل

إن متابعة كل ما زخرت به نفسي من تفاصيل أنهكت أعصابي. بتّ عاجزاً عن الاستمرار في قيادة الرابطة، وتملّك مني الإحباط. عقدت آخر اجتماع مع رفاقي في التجمع في أواخر سنة ١٩٩٨، لأعبّر لهم عن امتناني لمرافقتهم لي طوال فترة عملنا معاً، ولأخبرهم بعدم قدرتي على الاستمرار.

لا تغيب عن ذاكرتي كلمات بعضهم عندما ألقوا اللوم عليّ لأنني زرعت في نفوسهم حلماً بالتغيير، في حين أنني، كما قالوا، وقفت عاجزاً عن تحقيقه معهم. بادرتني كاتيا ن. قائلة: «عندما أقنعتني بالعمل سوياً، كنت عازفة عن تعاطي الشأن العام، لكنك دفعتني

اليـه. لن أفكر في العودة إليه مطلقاً بعد الآن، حتى لو طلب إليّ الله ذلك».

هكـذا انتهـت تجربـة الرابطـة بعـد أن استمرت حـوالي ثلاث سنـوات. أخذتُ بعدها، قسراً، فترة وجيزة مـن الراحة خيّم عليها جـوّ من الإحباط والمـرارة، خصوصاً أنني لم أتحمّـل تلك المشقات جميعهـا مـن أجل مشـروع شخصيّ عـادي، كبناء أسـرة أو تشييد منـزل أو تأسيسـ مشروع إنتاجي أو غير ذلـك، بل من أجل مشروع يهـدف إلى تعزيـز انتمائي وانتمـاء رفاقي والأصدقـاء إلى وطننا، لنكـون لبنانيين قبل أي شيء آخر. كم هو مؤسف ومؤذ أن نعيش في وطـن لا يمنحنا الانتماء إليه أماناً، ويحرمنـا الحقوق التي تمنحها الأوطان لأبنائهـا، في حين نصطدم بحواجز وعقبات لا تحصى إذا ما حاولنا التقدم خطوة بذلك الاتجاه.

توّجـتُ هـذه الفـترة بابتعادي عـن الناس واللجـوء إلى الجبال النائيـة لمـدة أسبوعـين حافلـين بالتفكـير والتأمـل، قبـل أن أقرر السفـر إلى الولايات المتحدة الأميركية لمتابعـة دراسة الدكتوراه في الاقتصاد، في النصف الثاني من العام ١٩٩٩. على خط آخر، طرق بابي ما غفلت عنه لسنوات وسنوات؛ طرق بابي الحب. تساءلت كيف أمكنني أن أعيش حتى اللحظة من دون حبيب ولا أنيس أشكو اليه ما كنـت أكابده من تعب وعناء. إنها الفتاة، بحثتْ عني حين خلتُ أنني تخطيت الحاجة إلى البحث عنها. إنها ثورة من نوع آخر.

رحلة حبّ

اتصفـت رحلتي إلى الجبال في ربيع سنـة ١٩٩٨ بجمال خاص. بدأتها من جرود عكار في الشمال والتي وطأتها قدماي للمرة الأولى.

كنت أصحو في الصباح الباكر، بعدما تبثّ أشعة الشمس حرارتها إلى الأرض، وأنا مرتد ملابس البارحة نفسها، أضع على ظهري حقيبة تحوي اليسير من الملابس والطعام. كنت آكل قليلاً أثناء السير، أمشي بلا توقف في الحقول والشعاب من حيث انتهيت في اليوم السابق، لأصل إلى مكان جديد أبيت فيه عند المغيب، قد يكون بناء مهجوراً أو جذع شجرة أضع فرشة النوم الصغيرة بمحاذاته.

كنت اتمتع بأقساط قليلة من الراحة، خصوصاً أثناء فترة الظهيرة. شملت الرحلة جرود الجبال البعيدة في مناطق عكار والكورة والبترون وكسروان، وكانت المرة الأولى التي أقصد فيها معظم هذه الأماكن. لم يعكر المبيت في العراء صفو ما شعرت به من صفاء ذهن وأمان. خففت هذه الرحلة من شعوري بالإحباط في ذلك الوقت إثر النكسة العاطفية وفشل تجربة الرابطة وقبلها التجربة الحزبية.

أمضيت الأيام الثلاثة الأخيرة وحيداً في كنيسة قديمة في أعالي الجبال في منطقة جاج من جرود جبيل، اعتقدَ من مرّ بي فيها بأنني ناسك يقيم هناك. مررت بحالة من الصفاء والسلام الداخلي أوجدتْ عندي رغبة في التعرف بشكل أكبر إلى المسيح وفي الاطلاع أكثر على التعاليم المسيحية، وذلك من دون تخطيط مسبق. لعل حبي لهنادي، الفتاة المسيحية، أيقظ فيَّ جوانب روحية عميقة زادت إلى ما هو مخزون لديّ، وساهمت في تشكيل أفكاري وفلسفتي الجديدة.

في نهاية الرحلة، خلصت إلى قرار بالعزلة النهائية والعيش وحيداً في الجبال لأنني وجدت فيها سكينة رائعة ومريحة. خرجت من هناك بقصد زيارة الأهل وتوديعهم، قبل العودة مجدداً إلى

أحضــان الطبيعة. في طريقي إلى الجنــوب، قصدت مركز الرابطة في الطيونــة مساء ذلك اليوم، فصادف وجود صديقة غير تلك التي أحببــت، ميشــال ن.، والتي كانــت تحبّني. عندمــا رأت ثيابي وآثار البرّيــة عليهــا، وبشرتي وقد طبعتهــا الشمس سمــرةً، ولحيتي وقد طالت ولم تشــذّب، عانقتني فجأةً. عانقتني طويــلاً وبكينا. شعرت بحنــان وعطــف كبيريــن يغمرانــي. كنــت بحاجة عارمــة إلى من يواسيني، متجاوزاً الحب الذي أكنّه لحبيبتي.

بعــد زيــارة الأهــل وتوديعهم، قــدت السيارة إلى بــيروت برفقة أختــي وابنتها الصغــيرة، إلا أن حادث سير مروّعــاً وقع لنا، نجونا منه بفضل أحزمة الأمان. شكّل الحادث وانشغالي بتداعياته صدمة وإشارة بضرورة البقاء، فعدلت عن عودتي إلى الجبال.

فوضى المشاعر

دفعتني الحاجة إلى «الحنان عن قرب» إلى إقامة علاقة حميمة مــع ميشــال، استمــرت لثلاثة أشهــر وعنت لي الكثير. لكــن التعلق بهنــادي منعني مــن الاستمرار في هذه العلاقــة، لأنني لم أجد فيها الانسجــام الكافي مع ذاتــي. شكّكت هنادي بحبي لهــا؛ قالت لي إن مــن يحب لا يفعل ما فعلت. لا أدري مــا إذا أصابت في ذلك، أو أنها كانت ترى الأمور من منظارها فقط. ربما لم تستطع رؤية ما يختلج في أعماقــي مــن شكوى وأنين. صارت تعاملنــي بقسوة زادتني حزناً وغضباً، ولعلها زادتني حباً...

لم يكن في استطاعتي استيعاب مواقفها، ربما لأنني كنت بحاجة إلى من يستوعبنــي. تعاظم في داخلي كلّ ما هو سلبي، وسيطر عليّ الحــزن واليأس إضافة إلى الإحبــاط. اجتاحني السواد، بات غصّةً

تخنقني كل يوم، فقررت الرحيل عن الدنيا. أعددت مشهد الرحيل: مساء يوم جمعة من أسبوع حافل، بسمة متجمدة على وجهي، شمعة ووردة حمراء، جرح في الجهة اليسرى من الصدر تسيل منه الدماء، صوت يقول «هذا جرحك يا هنادي»، فرشة في زاوية الغرفة في مركز الرابطة، والكلّ في عطلة نهاية الأسبوع. تمدّدت أرضاً، اجترعت كأس الرحيل، واستسلمت لسبات عميق.

ظهر الأحد التالي، صادف مرور صديقتي جنى، أفضل أصدقائي، أمام مركز الرابطة. رأت سيارتي هناك، فاستغربت الأمر. قالت إنها صعدت إليّ، نادت، صرخت، دقت الباب بقوة، دخلت إلى شقة الجيران، ومن شباكها إلى شباك المركز ثم إلى الداخل. رأتني في حالة مزرية، دفعتني إلى الكلام، فردّدتُ كلمات ذات معنى عميق وأخرى من دون أي معنى. اتصلت بأخي عادل الذي حضر على وجه السرعة فحملاني إلى مستشفى الجامعة الأميركية. أمضيت هناك ثلاثة أيام لا أذكر منها الكثير، إذ لم أكن في كامل وعيي.

قال لي عادل إنها كانت أصعب أيام قضاها معي، إذ كانت لي فيها صولات وجولات من الانتفاض في ثورة حادة ومن السبات في سكون عميق. حاول أن يخفيني عن أعين الناس، لم يدرِ ما يقول لمن تعرّف إليّ، دفعاً للإحراج. لم يكن يريد أن يرى الناس رامي الضعيف، بعد أن غدا رمزاً للقوة والعناد.

أذكر أن هنادي حضرت إليّ في المستشفى بعد أن اتصل بها عادل. ربما لفظتُ اسمها أو طلبتُ منه أنا ذلك. لم يكن حضورها مفيداً. لقيتُ اهتماماً بالغاً من جنى التي رعتني إلى أقصى الحدود. كانت تحبّني كثيراً، وكانت تعلم بأمر هنادي. بعد خروجي من المستشفى، سرّتني زيارة صديقتي من الرابطة، سوزان، في منزل



أهلـي مطمئنة. بدأت علاقتي مع جنى تتحـوّل إلى علاقة عاطفية، لكن لم يُكتب لها الاستمرار لأكثر من ستة أشهر. كان حبّ هنادي لا يزال يجتاحني، فشعرت بالحاجة إلى الابتعاد.

في خلاصـة الأمـر، كنـت أنصهر وأعتصـر ألماً وأنـا أبحث عن نفس جديدة أتقمّصها. بدت هذه النفس وكأنها تتشكل متأثرة، من ناحية، بميزات الفتاة التي أحببت، ومن ناحية أخرى بالسكون الذي خلّفـه الصراع العنيف، ما قـذف بي بعيداً عن ميـدان المعركة إلى موطن الهوى الـذي لم أسكنه من قبل. بدأت تتشكل مع تلك النفس رؤيـةٌ لفكر وإيمـان متجددين، تصورت فيهما الكنـز الجديد الذي سوف أبدأ بالبحث عنه حتى إشعار آخر.

انطلاقة جديدة

كانت الرحلة إلى الجبال وقفة مع الذات نتيجة شعوري برغبة في الابتعـاد عن الناس والتأمل ملياً في ما آلـت إليه أموري. كان المكان في الطبيعـة مناسباً لمحاولة المصالحة مع الذات، وإن بدت العاصفة الهوجاء أقوى، عاصفة الحب التي كنت أصارع فيها وحيداً. إن كوني شخصاً سبق له أن عاش في جوّ من عدم الاستقرار والحرب والعنف والتطـرف الدينـي، وانتقل بعدهـا إلى أجواء مختلفـة من الانفتاح علـى الآخرين، وبخاصـة المسيحيين منهم، جعلنـي أشعر بتضارب كبير علـى صعيد الأفكار والأحاسيس التي أدت إلى تشكيل قناعاتي المستجدة، والتي أطلتُ الحديث عنها سابقاً.

وجـدت نفسـي أجنح بحدّة نحـو رفض العنـف ووسائله، كذلك رفض التطرف الديني الذي يؤدي إلى تنامي الأحقاد والكراهية بين الناس. رُبّ قائل إنه تطرّف من نوع آخر؛ لا ضير إذا كان تطرفاً في

التوق إلى معرفة الآخرين بشكل أفضل، لكون الإنسان عدو ما يجهل بطبيعته؛ لا ضير إذا كان تطرفاً في الدعوة إلى التسامح والتمسك بالسلام بين البشر. أستحضر هنا المرات المتكررة التي قصدت فيها مساجد المسلمين السنّة لأصلي معهم وأختلط بهم، كتعبير عن رفضي للتفرقة المفتعلة بين مواطن أتى من بيئة شيعيّة وآخر من بيئة سنّية أو غيرها. بعد ذلك قصدت الكنائس للغاية نفسها، وصليت فيها بإيمان وخشوع كاملين.

أذكر هنا أنني في تلك الفترة رافقت أهلي في نزهة إلى ضفاف نهر الليطاني في الجنوب مع مجموعة من الأصدقاء. نهضت وأدّيت الصلاة من ركوع وسجود أمامهم، دون قميص، والصليب متدلٍ من رقبتي. كان الوجوم على وجوه الحاضرين كافياً للتعبير عن شعورهم بالصدمة. صار وجه أبي أحمر داكناً لشدّة الحرج.

بعد حالة من الخيبة رمت بظلالها عليّ، قررت الابتعاد عما يحيط بي من أحداث لأخذ قسط من الراحة. بدا لي حينذاك أن متابعة الدراسة هي الملاذ الأنسب. كنت قد تقدمت بطلبات انتساب إلى عدد من الجامعات في الولايات المتحدة، وحصلت على ستّ إجابات بالقبول، إحداها من برنامج الدراسات العليا في قسم اقتصاد الموارد في جامعة فلوريدا.

توجهت إلى السفارة الأميركية في قبرص للحصول على تأشيرة دخول. شعرت بشيء من الاستغراب عندما جاء جواب القنصل إيجابياً، على الرغم من سعادتي بالأمر، إذ لم أكن أتوقع ذلك بسبب نشاطي الحزبي العلني في الجامعة الأميركية في السابق. اجتاحتني الرغبة في الدراسة في الولايات المتحدة، بعد طول اعتقاد بأن أميركا هي «الشيطان الأكبر»، وبأنها «عدوة الشعوب»، وما إلى ذلك



مـن نعوت أطلقها عليهـا رموز الثورة الإيرانيـة. كأن نموذج الحياة الأميركية، بتفوقه في رسم مسيرة حياة الإنسان على طريقة «الحلم الأميريكـي»، أدى إلى دغدغـة مشاعـري، كما مشاعـر الكثيرين، وجذبني إليه على الرغم من المساوئ العديدة التي تعتريه.

واجهتنـي مشكلـة ماديـة، إذ لم أوفّـق في الحصـول على منحة دراسيـة قبل سفري إلى فلوريـدا، وتكاليف الدراسـة مرتفعة. كان دعـم أسرتـي المادي لي، وإن على مراحل، هـو الحل الوحيد، مع ما شكّل ذلك من استنزاف إضافي لهذه الأسرة.

في شهر آب/أغسطس ١٩٩٩، انتقلت إلى الجامعة هناك، وكانت هـذه أول زيـارة لي إلى الولايـات المتحدة، أقدمتُ عليهـا وأنا مثقل بالكثـير من أعباء الماضـي. مرّت بي لحظات مؤثـرة، زادت الكثير إلى جعبة الأفكار عندي، ونتجت من التعرف إلى الناس هناك وإلى طريقة تنظيم حياتهم وتحمّل مسؤولياتهم تجاه مجتمعهم ووطنهم. ساعدني تأمل ما أحاط بي وما عشته على تشكيل فكرة أفضل وأكثر موضوعية عن الكثير مما يدور في تلك البلاد.

مما شجعني أيضاً باتجاه هذه الانطلاقة الجديدة إحباط آخر، أضافته إلى سلة الإحباط لديّ ممارسة مهنة المحاماة في لبنان.

على الرغم من تعلقي بالمهنة كرسالة، كانت لي زيارة إلى نقيب المحامين في تلك الأثناء، النقيب اقليموس على ما أذكر، لأشكو اليه التـدني في مستوى ممارسة المهنة مـن قبل عدد كبير من المحامين، ولأعرض عليه تشكيـل لجنة من المحامين المتدرّجـين تكون مهمتها تقـديم نموذج حَسن إلى باقي المحامين المتدرجين. أحببت أن يشكل الاقـتراح خطـوة للمحافظة علـى مناقبيـة المهنة. قـال لي النقيب

إن اقتراحـي مهم، لكن تطبيقـه من الصعوبة بمـكان في ظل تقدّم التبعيات السياسية للمحامين على حسن ممارسة مهنتهم. أثّر ذلك سلبـاً إلى حدّ ما على اندفاعي وتعلقـي بممارسة المهنة. بات السفر إلى الخارج متنفساً وملاذاً.

الإطار الثاني

الولايات المتحدة الأميركية

(١٩٩٩-٢٠٠٣)





المحطة الأولى

فلوريدا
(١٩٩٩-٢٠٠٢)

في اليوم العشرين من شهر آب/أغسطس ١٩٩٩، وطأت قدماي أرض فلوريدا. لم أكن مهتماً بالمكان بقدر اهتمامي بالتعرّف إلى الناس. لا أخفي سعادتي بالوصول إلى ذلك العالم الجديد، ورغبتي في التعرف إلى مكنوناته وأدق تفاصيله. وصلت مثقلاً بماضٍ خسرت فيه معاركي المتعددة، لكنني ربحت نفسي. قال لي زياد، صديقي في الرابطة، قبل أن أسافر: «أنت شخص يتخطى الفشل». عنى بذلك أن الفشل المتكرر لم يمنعني من التطلع إلى مشاريع أخرى بديلة.

أولاً- عالم جديد

مثل كل طالب ينضم إلى جامعة فلوريدا، حظيت بحفاوة في الاستقبال، وتم إرشادي إلى ما أحتاجه من معلومات وتوجيهات تجعل إقامتي على درجة عالية من الراحة، ولم أشعر أبداً بأي تمييز بيني وبين زملائي من الأميركيين أو غيرهم.



انسجام

في وقت قياسي، استطعت أن أتخطى ما يُسمى «صدمة الحضارة»، وأن أندمج في المجتمع الأميركي، حيث بتّ أتصرف كفرد من أفراده. تبنّيت عاداته وتقاليده، وأصبحت أتحدث بلغته وكأنها لغتي الأم بالرغم من أنه لم يكن قد مضى على وجودي هناك سوى بضعة أشهر. أتى اندفاعي للتعرف إلى تفاصيل الحياة الأميركية نتيجة شعور بالانجذاب إلى الكثير من أنماط تلك الحياة، كالانتظام الاجتماعي المرتبط بقوانين واضحة لا يتخطاها أي مواطن، والتربية الإنسانية، وتكافؤ الفرص، والتساوي في الحقوق والواجبات.

هكذا رأيت الحياة هناك للوهلة الأولى. ورأيت في حياة الجامعة صقلاً للشخصية وتعزيزاً للطموح، وأحببت تمضية أوقات الفراغ في اللهو والمرح والسهر وارتياد النوادي الليلية والتركيز على التمارين الرياضية. رأيت ما يضيفه التنافس في مباريات كرة القدم الأميركية بين الجامعات من حماسة كبيرة تجعل ما يرافق المباريات طقساً مهماً جداً. كما رأيت العديد من أنماط العيش التي لم يتسنّ لي التعبير عن حقيقة مواقفي منها سابقاً، بسبب التمترس وراء نمط من السلوك الزاخر بالشعارات المعادية للنموذج الحضاري الأميركي، في الظاهر، والمتعلق بكثير من مكوّناته، في الباطن، ممّا خلق عندي الرغبة في أن أندمج في ذلك المجتمع الذي كنت غريباً عنه طيلة سنوات حياتي.

تجلت سرعة اندماجي مع الناس في عقد صداقات مع عدد من زملائي وزميلاتي الأميركيين، أبرزهم مايك الآتي إلى الجامعة في فلوريدا، الولاية الشرقية، من كاليفورنيا، الولاية الغربية، وصديقتي كيلي الآتية من ولاية بنسلفانيا الوسطى، وآخرون. تعارفنا على

مقاعد الدراسة، وعقدنا في حرم الجامعة حلقات الدرس، وأجرينا الأبحاث، كما خرجنا معاً طلباً للمرح. اعتبرني أصدقائي الأميركيون أقـرب إليهم من بقيـة الطلبة الأجانب القادمين مـن آسيا وأميركا اللاتينية والشرق الأوسط وغيرها، والذين كانوا يحتاجون عادة إلى كثير من الوقت والجهد للانسجام مع الطلبة الأميركيين.

كان معظـم النـاس، مـن طلبـة وغيرهـم مـن سـكان الولاية، صادقين في التعامل وصدوقين، ولعلها سمة سكان الولايات الجنوبية بالمقارنـة مـع الولايات الشماليـة والمدن الكبرى، كمـا يقولون. كان لي أيضـاً نشاط محدود مع نواد وتجمعـات جامعية، كالنادي التابع لمنظمة العفـو الدولية – فرع الولايات المتحدة، وكذلك مع مجموعة إنجيليـة تضمّ طلبة من قسم الدراسات العليا، حضرتُ مع أفرادها بعضـ الاجتماعات وعـدداً من الاحتفالات وحلقـات الصلاة داخل الكنيسة.

إثر نقاشات عديدة، وجدت لدى بعض أفراد المجموعة نوعاً من التزمّت الديني لم أكن أتوقعه، إذ اعتبروا بحدّة أنه لا خلاص لأحد إلا بشخصـ المسيح، ممّا ذكّرني بمقولات كنـت أسمعها وأؤمن بها مـن قبل. الفرق أن هذه الحـدّة لم تمنعهم من التواصل الاجتماعي الإيجابي مع من يخالفهم المعتقد، ربما لحلول الأنظمة الاجتماعية في مرتبة تسبق التطبيقات الدينية، أو لفصل هؤلاء الناس ما بين البعد الشخصي للمعتقد الديني والبعد الاجتماعي للأنظمة المدنية.

كنـت أقيم في بلدة غينسفيل، في حيّ يبعد بضعة أميال عن حرم الجامعـة. سكنـت في غرفة من ضمن شقة صغـيرة استأجرتها من طالب فلسطيني اسمـه إيهاب يعيش أهله في السعودية، وقد تعرّفت إليـه عـن طريق إعـلان وضعه في صحيفـة الجامعـة «Alligator»



بخصوص الإيجار. كان إيهاب يسكن في غرفة ثانية في الشقة نفسها.

تقع البلدة، حيث الجامعة، في الوسط الشمالي لولاية فلوريدا، وهي تعتبر بلدة جامعية لكون القسم الأكبر من سكانها هم طلاب الجامعة. تضمّ البلدة نظام نقل عام بواسطة الباصات اعتمدته في تنقلاتي، كما معظم السكان الآخرين.

يجدر بي القول إن الفترة التي أمضيتها في الجامعة الأميركية في بيروت، وإن كانت توحي بوجود نمط حياة أميركي، إلا أنها لا توفر جواً من التفاعل مع مكونات الحياة الأميركية كتلك التي وفرها لي العيش في فلوريدا، نتيجة الاحتكاك الدائم بالمواطنين الأميركيين.

قبل أن أنتقل إلى الحديث عن تفاصيل الدراسة، لا بدّ من بضع كلمات عن الحنين الذي راودني إلى الحب الذي تركته في لبنان، هنادي.

لم أكن قد تخطيت قصة الحب معها، بل ظلت صورتها شاخصة أمامي كلما حاولت الاقتراب من فتاة. لم تكن لديّ الرغبة في دخول علاقة جديدة، إلا مع «هنادي أخرى». بحثت عمّا يذكرني بها في كل فتاة التقيتها، ولمّا لم أجده أدرت نظري إلى البعيد. اتصلت بها مرات عدّة من هناك، ولا أبالغ إذا قلت إنني كنت أحياناً أدفع كامل ما ادّخرته من مال، وكان قليلاً، ثمناً للاتصالات، ثم أعود وأستدين خمسين أو مائة دولار من صديقي مايك، لسداد بعض المصاريف الأساسية من طعام أو ثياب.

كنت كمن يتعلق بحبال الهواء. لكنها العاطفة، وكانت تتحكم بي.

مشاغل وحنين

كان تركيزي الأساسي منصباً على الدراسة، إذ لم أطق أن أواجه أي فشل، بل ربما شكل لي التفوق فيها ملاذاً في مقابل ما واجهني من صعوبات. حققت تفوّقاً على المستوى الأكاديمي في ذلك الفصل الدراسي، لكنني اصطدمت بمشكلة سداد تكاليف الدراسة في أوقاتها، بسبب تأخر الأهل في إرسال المال إليّ نتيجة صعوبات مادية طرأت أحياناً.

أدّى إكمالي لكل مواد منهج الفصل بنجاح إلى أن وعدني أساتذتي في قسم اقتصاد الموارد بمنحة دراسية في أقرب وقت، وقال مدير القسم كريس أندرو إنه سوف يبلغني بالأمر عند حدوثه. كان عليّ العودة إلى لبنان بعد انتهاء الفصل الدراسي، لأنتظر جهوز تلك المنحة لما يفوق سنة كاملة، قبل أن أعود مجدداً إلى الجامعة في فلوريدا.

على الرغم من اختياري دراسة الاقتصاد، إلا أنني استغليت فرصة وجودي في الجامعة هناك لأطّلع على برنامج تدريس تربية النحل وأتابع المحاضرات وأشارك في الأبحاث التطبيقية.

ساعدني المشرف على البرنامج مالكوم سانفورد الذي ذهبت بصحبته لاحقاً لحضور أحد أهم مؤتمرات علم النحل في أفريقيا الجنوبية، كما بقينا على اتصال دائم لتبادل المعلومات عن شؤون تربية النحل.

لم تكن مشكلة تأمين نفقات الدراسة هي العامل الوحيد الذي دفع بي للعودة إلى لبنان نهاية عام ١٩٩٩، إذ كان بإمكاني تدبّر أمر بقائي هناك من خلال الاستفادة من فرص العمل المحدودة



داخـل الجامعة لدفع تكاليف العيش والتسجيـل لعدد قليل من مواد المنهج العلمي. لا أخفي صعوبة المضي في هذا الخيار في ظلّ أقساط الجامعة المرتفعة وشحّ ما ادخره الأهل.

الأهـم هو أنني شعـرت بحنين عظيم إلى الوطـن – كنت لأقول بسبب اشتياقي لهنادي، لكن أذكر أنني بدأت أتخطى علاقتي بها في ذلك الحين – وبالحاجـة إلى القيام بشيء ما حيال تردي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في لبنان.

لا أخفـي كذلـك ما تملّكني من شعور بالاستفـزاز بسبب ما آلت اليـه أمور البلاد نتيجة وجود القوات السوريـة على ترابنا، في وقت كنـت أضع فيه اللـوم على المواطنـين اللبنانيين جميعـاً، بمن فيهم الساسة والحكام طبعاً، مستشهـداً بما أتذكره من قول للإمام علي في هذا المقام، «كما تكونوا يُوَلَّ عليكم».

ثانياً- استراحة لبنانية

عـدت إلى الأهـل والأصدقاء لأسمع الكثير مـن الأنين والشكوى إزاء تحكـم آلـة التسلط السورية علـى مقادير البـلاد. كنت أسمع الشكـوى باستمـرار، من المُـزارع والتاجر والمديـر والطالب وخرّيج الجامعـة، باستثناء أهل السياسة الذين كانت غالبيتهم تُظهر ما لا تفكّر به.

كان الجميـع يرددون، بمن فيهم الأهل والأصدقاء والجيران في الجنـوب، كلاماً على «سحب لقمة العيش من الأفواه»، وعلى الإذلال الذي يتعرض له الحكام.

رحلة غضب

بقدر عالٍ من التأثر بهذه الأجواء وبمناخ الحرية وتكافؤ الفرص والرخاء الاقتصادي في الولايات المتحدة والذي كنت قد اختبرته حديثاً، وإن لفترة قصيرة نسبياً، وجدت نفسي أبادر، بانفعال كالعادة، إلى دعوة عدد من أصدقائي بلغ حوالي الخمسين لرفض كل أشكال التسلط على البلد من قبل نظامَي العسكر والأمن السوريين.

طلبت إلى الأصدقاء، مايا ع. وفادي ن. وألبير د.، ومن بعض معارفي في الرابطة وغيرها، التجمّع في حلقات للحوار كنا نعقدها بين الحين والآخر. حدّثتهم عن ضرورة الثورة على التسلط والظلم اللذين نرزح تحتهما، ووجدت آذاناً صاغية وإدراكاً لما بلغته الأمور من التدهور، ولمست تعاطفاً كبيراً مع ما أثرته، لكنني وجدت أيضاً تردداً في التحرك الفعلي لرفع هذا الظلم. ربما كان ذلك يعود إلى الواقع الاقتصادي الضاغط الذي يحتّم التفرغ للعمل، أو بسبب الخوف من الاعتقال والتعذيب من جراء الاشتراك في تحركات من هذا القبيل.

لم أكن غافلاً عن سطوة الاحتلال الإسرائيلي، لكنه كان احتلالاً من قبل عدو واضح، في مقابل تسلط من قبل صديق في الظاهر ومحتل في الباطن، وهذا أسوأ. وكان الجيش الإسرائيلي وعملاؤه قد انسحبوا من المنطقة الحدودية في الجنوب تحت ضغط ضربات المقاومة المسلحة.

حزمت أمري وقررت الكلام بصوت مرتفع على الرغم من إدراكي لحالة التردد في المبادرة، وبالتالي لعدم استعداد أصدقائي



للمساهمة في أي تحرك علني ضد الوجود السوري في لبنان، وضد طريقة تعامل المسؤولين اللبنانيين المذلة معه. لا أخفي أنني كنت خائفاً بعض الشيء، حالي حال معظم الناس، لكنني أحسست برغبة جامحة في التعبير عن رفضي لما رأيته وسمعت عنه من أمور شاذة.

بالفعل، انتهى بي الأمر إلى إجراء لقاء أخير مع بضعة أصدقاء أعربوا خلاله عن استعدادهم للمشاركة. قررنا أن يقوم كل واحد منا برسم العلم اللبناني على قطعة من القماش ورفعها على عصا، كأننا أردنا أن نقول إن الأوطان لا تُعطى بل تبنى وتصنع. اتفقنا على أن نبدأ بالسير معاً في كل أنحاء الوطن، داعين الناس، كل الناس، إلى الثورة ضد التسلط السوري على لبنان.

في الموعد المحدد – بداية ربيع عام ٢٠٠٠ على ما أذكر – وصلت إلى غابة الأرز في بلدة جاج في قضاء جبيل، والتي حددناها كنقطة انطلاق رمزية. لم أجد أحداً هناك.

حاولت طرد فكرة أن لا أحد سيحضر غيري، وأنتظرت لدقائق، ولساعات لم تضف شيئاً إلى انتظاري، لكنها في الوقت نفسه لم تجعلني أتردد لناحية السير قدماً في هذه الخطوة ولو منفرداً. لم يكن تغيّب عدد من الأصدقاء كفادي وألبير ولبنى الذين لم يظهر أحد منهم، ليثبط من عزيمتي على بدء المسير.

انطلقت من هناك وحيداً، بدأت أجوب عدداً من القرى في جبيل والبترون والشمال عموماً، ثم في كسروان فبيروت فالجنوب، سيراً على الأقدام، لمدة ثمانية أيام متتالية.

سلكت الطرقات العامة ووصلت إلى الساحات حاملاً العلم وملوّحاً به. كنت أتوجه بالكلام إلى كل الذين التقيهم، أقول: «ماذا يعني لكم لبنان؟ هل أنتم راضون بالبلد على هذه الحال؟ هل أنتم راضون عن اقتصاده؟ ألا تريدون العيش بكرامة، أم أنكم أدمنتم الاحتلالات، من الجنوب إلى الشرق والشمال؟ لو لم ترضخوا، لَما تحكّموا بكم؛ هيا انتفضوا على من سلبنا مقدراتنا». هذا بيت القصيد الذي عبّرت عنه بكثير من الكلمات.

استوقفني الكثيرون، سألني البعض عن خطتي، وآخرون عن سبب سيري منفرداً، وغيرهم عمّا إذا كنت أعي عواقب عملي. قال لي البعض «وفقك الله»، والبعض «احترس»، والبعض الآخر «اعطنا رقم هاتفك لنتصل بك لاحقاً».اعتبرني قسم من الناس مجنوناً، لم تقلها ألسنتهم لكنني رأيتها على وجوههم، ولوّح لي قسم آخر وهتف للبنان.

لم يختلف حالي في المبيت مساءً والنهوض في الصباح الباكر، وتدبير شأن الطعام أثناء قطع المسافات الطويلة سيراً على الأقدام، عنه في الرحلة السابقة وما طغى عليها من انفعال وعفوية.

هذه المرة، كنت أبحث عن الناس للتحدث اليهم بإصرار شبيه بالإصرار في الحديث أيام الرابطة. كان الفرق أنني لم أتوقع تجاوباً هذه المرة، بل كنت أقرب إلى إعلان موقف شعرت أن قوله عالياً سيريحني ويرفع عبئاً عن صدري. مشيت كثيراً حتى كلّت قدماي. توجّهت إلى الخط الساحلي نزولاً عن طريق عجلتون في كسروان، ثم سرت باتجاه العاصمة، وبعدها إلى الجنوب باتجاه المناطق الحدودية عن طريق النبطية.



حجّة بعد غياب

في اليومين الأخيرين للرحلة، بلغت مشارف المناطق الحدودية في الجنوب على الطريق المؤدية من النبطية إلى مرجعيون. بالرغم من مضي أكثر من شهر على زوال الاحتلال الإسرائيلي عن هذه المناطق، فقد كنت أدخلها للمرة الأولى. لم ترقني طريقة السيطرة عليها، بعد رحيل الاحتلال مباشرة، من قِبل بعض الأحزاب المحلية، وما تخلل ذلك من سرقات وتخريب وتعدّ على أملاك الناس، ففضّلت أن أدخلها ولو متأخراً، رافعاً العلم اللبناني، وسط شعور بضرورة أن يرفرف هو، وليس أي علم آخر، فوق أرض الجنوب.

كانت الذكريات تعود إليّ، فهذه أرض طفولتي الأولى والثانية.

كانت الطفولة الأولى في مرجعيون، حيث أبصرت النور، وزحفت على الأرض قبل أن أخطو أولى خطواتي، ثم لعبت أمام المنزل قبل أن يحملني التهجير بعيداً. وكانت الطفولة الثانية في النبطية والقرى المجاورة، في المدرسة والحارة، في التنزه برفقة الأهل على ضفاف الليطاني عند منطقة جسر الخردلي التي أقف على مشارفها. كانت أيضاً في صحبة الطفولة والجامع، وفي محاور القتال والبطولات التي كانت تطل أيام الاحتلال على الأرض التي أسير عليها الآن؛ وكانت في الإخوة والأصدقاء.

شعرت بأنني أعبر جسراً بين محيطين في منطقة واحدة فصلت بينهما آلة الحرب. جسر عبّدته الدماء والدموع. إنها الأرض التي أحب.

قبل جسر الخردلي، استوقفتني سيارة لتلفزيون المستقبل ترجّلت منها مراسلة لم أعد أذكر اسمها وسألتني عمّا أفعل. طلبت

إليها الرحيل، وقلت إنني لا أريد للصحافة أن تتدخل في الأمر لأنها عادة لا تنقل الأخبار بصدق. ألحّت، أخبرتها، فأصرّت أن تورد النبأ في نشرة الأخبار، فاشترطتُ أن يبث كما هو. صوّر مرافقها بعض اللقطات، وتابعتُ أنا السير.

أخبرت الصحافية أحد مراسلي الوكالة الوطنية للإعلام، فحضر بعد حوالي ساعة لالتقاط الصور. واصلت السير حتى بلغت مرجعيون مساءً، مرجعيون التي تفتحت فيها عيناي على الطفولة.

استوقفتني سيارة أخرى. قال سائقها إنه سمع عن رحلتي قبل دقيقة على الراديو، ودعاني إلى المبيت عنده. لم أكن أعرفه، ذهبت معه إلى بيته حيث قضيت ليلتي مع عائلته المكونة من زوجته وولديه الصغيرين.

اتصلت بي بعد أسبوع مراسلة يومية «دايلي ستار» اللبنانية كتبت مقالاً معبّراً عن الرحلة، بعنوان ترجمته إلى العربية «رجل وحيد يحمل رسالته إلى الناس لينتفضوا ويثوروا».

في اليوم التالي والأخير للرحلة، وصلت إلى معتقل الخيام الذي كان تحت سيطرة الجيش الإسرائيلي زمن الاحتلال. طلب إليّ الحارس ترك العلم خارجاً قبل الدخول؛ قلت إنه علم لبنان، فسمح لي بإدخاله بعد نقاش طويل.

زيارة المعتقل كانت نهاية الرحلة. حضر أبي وأخي حيدر إلى بلدة الخيام بالسيارة لاصطحابي إلى المنزل في النبطية بعد أن أبلغهم بوجودي هناك شخص شاهدني على الطريق. قال لأبي: «ما به رامي؟ جنّ جنونه! يحمل علم لبنان ويسير كالتائه على الطرقات!»



حطّ الرحال

لكـي ألخّص الرحلة ببضع كلمات، أقول: أردت ألا أكون مقصّراً في حقـك يا لبنان. لم أدع شيئاً يردعني عن التعبير عن صرختي، لا الخيبة مـن تراجع الأصدقاء، ولا ردة فعل النـاس الذين التقيتهم، ولا حتـى ردة فعل الأهل الخجولة. لم أشك في أن الخطوة التي قمت بهـا استحقت ذلـك الجهد كله. كنت في موعد مـع الذات، كي أتفق معهـا على تأجيل الثورة حتـى إشعار آخر، ولو بالالتفاف عليها، إلى أن يحين الوقت، ربما بعد المزيد من النضج والمعرفة.

في الحقيقة، عدت إلى البيت، لففت العلم، وأخذت نفساً عميقاً. كان هـذا آخـر نشاط له طابع عـام أقوم به، لأحاول بعـده الابتعاد عن المسرح السياسي قدر الإمكان. صرت أفضل عدم الاستماع إلى الأخبار والشؤون السياسية، لما كانت تتركه لدي من إحساس بالأسى والغضـب. إلا أن شعوراً بالحزن والخيبـة لازمني منذ ذلك الوقت؛ حاولت الاحتفاظ بانفعالاتي وثورة غضبي لنفسي قدر ما استطعت، وكنت مدركاً في الوقت نفسه، وإنّ في أعماقي، أن ثورتي ليس مكتوباً لها التوقف عند ذلك الحد.

الدراسة والعمل والفتيات

استفـدت من عودتـي إلى لبنـان في العمل على جمـع المعلومات والإحصـاءات اللازمـة للبحـث الـذي اخترته كموضـوع لأطروحة الدكتوراه. كان البحث متعلقاً بالتوزيع الاقتصادي للدخل في لبنان، وارتباطـه بالتنمية الاقتصادية في هذا البلد. زاد على خيبات الأمل لـديّ عدم تمكّني مـن الحصول على أي دعم مـادي للبحث العلمي الـذي اخترتـه، بعد أن فضّلتـه على موضوع آخر عـن الاقتصاد في

فلوريـدا، توافر لـه كل الدعم المـادي. أردت أن أختار موضوع بحث يرتبـط بالاقتصـاد اللبنـاني تحديداً. حتـى هنا لم أوفّـق. قال لي صديق: «إنك تريد لبنان، لكن لبنان لا يريدك».

تابعـت العمل في مهنـة المحاماة، محاولاً الانتهـاء من متطلبات التـدرّج لأتمكـن مـن الالتحاق بالجـدول العام لنقابـة المحامين في بـيروت. كان حضـور المحاكمـات أقل الأمـور إثـارة في العمل، ربما بسبب طريقة تنظيم هذه الجلسات في معظم المحاكم اللبنانية، من انتظار لحضور القضاة قد يدوم لساعات، إلى عدد الدعاوى الكبير الـذي ينعكس على مواعيـد الجلسات، فتأتي متباعـدة لأشهر فيما بينهـا، إلى الكلمات المعهـودة عند المثول أمام القاضـي، «أستمهِل» و«أكـرِّر»، ومشـاكل التبليغ التي تـؤدي إلى تأجيـل الجلسات لأشهر وسنوات. أضف إلى ذلك كله «المحسوبية» و«الواسطة» والرشوة التي تنخر الجسم القضائي.

في حين تحتاج دراسة الحقوق وامتهان المحاماة الكثير من الجهد والمثابرة، ومن الطبيعي بالتالي أن تحمل مريدها إلى عالمها، دفعت بـي الأجواء المحيطة بهـذه المهنة إلى التركيز علـى هواية الاهتمام بعلـم تربية النحل. إن ما تعلمته في جامعة فلوريدا، وما سبقه وتلاه مـن خبرة وبحث علميّ في هذا المجال، شكلا لي حافزاً لإدخال هذا الحقل العلمي إلى منهج كلية الزراعة في الجامعة الأميركية في العام ٢٠٠٠. دفعني إلى ذلك تعلقي بروعة عالم النحل ودقة تنظيمه؛ عالم أنثويّ لا مكان فيه للكسالى، يجعلك على تماس مع الطبيعة في حركة النحلة بـين النباتات لتلعق رحيقها وتحوله عسلاً، وتمنحها بالمقابل خدمة تلقيح أزهارها.

شكّل نقل عالم تربية النحل معي إلى الجامعة مادة للتحدي والإبداع، بعدما تدرجت في الدخول اليه مع والدي منذ الصغر. بالنسبة إلى أسرتي، كانت تربية النحل عاملاً حيوياً ساهم في زيادة مدخولها، بعدما أضحى محفزاً لوالدي على ابتكار سبل أدت إلى تطوير هذه المهنة في أنحاء الجنوب اللبناني.

قمت بتدريس مادة تربية النحل في الجامعة الأميركية، وبإجراء الأبحاث العلمية وحلقات التدريب والإرشاد في هذا الحقل في مختلف المناطق اللبنانية، لا سيما الريفية منها. زرت قرى في البقاع وعكار والجنوب، اجتمعت بالناس هناك، وحاولت المساعدة على تطوير عمليات الإنتاج والتسويق لديهم عبر دفعهم إلى تبنّي السبل العلمية الحديثة. أحببت عالم الزراعة والتواجد بين المزارعين.

في أوقات الفراغ، واظبت على أداء التمارين الرياضية من خلال التردّد إلى ناد لكمال الأجسام في محلة سن الفيل في المنطقة المسيحية لبيروت. كما واظبت على رياضة المشي في الجبال أيام العطلة. ما بدأت القيام به بوتيرة كبيرة كان الخروج برفقة الأصحاب للسهر ليلاً، وكنت قد قمت، مع صديقي وأستاذي أيام الماجستير في الجامعة الأميركية راجي درويش، وصديقي زياد من الرابطة، باستئجار شاليه على شاطئ البحر في بلدة عمشيت في قضاء جبيل، قضينا فيه أهم لحظات المرح.

دخلت الفتاة إلى حياتي بشكل آخر هذه المرة، ليس من باب الغرام، بل من باب العلاقة البسيطة مع الجنس الآخر. أقمت علاقات كثيرة مع الفتيات، شكلت لي خروجاً من قصة حبي لهنادي، ودخولاً إلى عالم من السهر والحفلات الراقصة والمرح والجنس. كنت أقول لكل فتاة أخرج معها: «ليس في بالي أبداً أيّ نوع

من الارتبــاط»، وعندما كانت تبدو عليها علامــات التعلق بي، كنت أباشر بالانتقال إلى فتاة أخرى.

بعــد أكثر من عام على عودتــي إلى لبنان، أي في بداية ربيع سنة ٢٠٠١، اتصــل بي مدير قسم اقتصاد المصــادر في جامعة فلوريدا، كريس أنــدرو، مكلفاً من لجنة المنح، ليبلغني قــراراً اتخذته اللجنة بتأمــين منحة دراسية لي. كان أحد الطــلاب الحاصلين على منحة من القسم قد أنهى دراسته، فحللت محله في الاستفادة من المال.

ثالثاً- الناس في أميركا

غادرت مجدداً إلى الولايات المتحدة لأكمل دراسة المواد المطلوبة، وأنهيت هذه الدراسة بتفوق في خلال ثلاث سنوات. بعد الانتهاء من امتحانات الكفــاءة، انتقلت رسمياً إلى مرحلــة تحضير الأطروحة، بعد أن كنت قد بدأت العمل عليها فعلياً أثناء وجودي في لبنان.

الحياة في فلوريدا

كانت إقامتي في فلوريدا أكثر تشويقاً هذه المرة. لعل السبب زوال العبء المالي الناتج من تكاليف الجامعة، في ظلّ ما وفّرته لي المنحة من تكفّل بمصاريف التسجيل التي تعدت ثمانية آلاف دولار للفصل الدراســي، كما أمّنت لي ما زاد عــن ألف دولار شهرياً كمساهمة في نفقــات المعيشة. سكنت بصحبة اثنين مــن الطلاب، أميركي يدعى جوناثــان وآخر من التابعية الهندية يدعى هِيتاش، في بيت يبعد عن حــرم الجامعة عشرين دقيقة بالباص. أصبح مايك، زميل الدراسة



القـديم، أقرب الأصدقـاء إلي، وقضينا معاً معظـم أوقات المطالعة والمرح.

قـادني سـؤالي لموظفـة في قسم الطلبـة الأجانب عـن تجمعات لطـلاب لبنانيين وعرب إلى التعـرف إلى طلاب عرب، من التابعية الفلسطينيـة والأردنيـة والمصريـة والسورية والسعوديـة واليمنية، التقينا معاً في ناد للطلبة العرب في الجامعة. كما تعرفت إلى طلاب لبنانيين أسستُ وإياهم نادياً مستقلاً للطلبة اللبنانيين.

حملنـا همـوم لبنان إلى النـادي الذي ضمّ طلابـاً من المشارب اللبنانية المختلفة، لكنهم كانوا جميعاً أقرب إلى التوحد كلبنانيين في بيئة بعيدة عن لبنان؛ حبّذا لو كانوا كذلك على أرضهم. جمع النادي طلاباً لبنانيين قصدوا الجامعة من لبنان بهدف الدراسة، وآخرين أميركيين من أصول لبنانية. كان من أصدقائي اللبنانيين إيلي ورائد وحسن، ومن أقـرب أصدقائي العرب طالب مصري يدعى شريف، جمعتُهم بمايك وهيتاشـ في مناسبات عديدة. أخفيت عن الجميع، باستثناء مايك في وقت لاحق، حقيقة انتماءاتي ونشاطاتي السابقة، خشية أن تقف حائلاً أمام انطلاقتي الجديدة، خصوصاً أنه لم يكن في سلوكي ما دلّ على شيء منها.

أحببت أيضاً التعرف إلى الطلاب الأجانب وإلى أنماط عيشهم، فشاركت في أنشطة نـوادي الطلبة الهنـود والآسيويين والأوروبيين، مـن ضمـن أنشطة نظّمها قسـم الطلبة الأجانـب في الجامعة. كان الشعـار المرفوع على مدخل مبنى القسم مؤثـراً، وهو قول سقراط: «لسـتُ أثينياً ولا يونانياً، أنا مواطن عالمـي». جذبتني فكرة المواطن العالمـي، لدرجة جعلتني أردّدها أمام النـاس باستمرار. كما أبقيت علـى لقاءاتي مع عدد من أفراد المجموعة الإنجيلية، خصوصاً تيد،

وعرّفت إليهم مايك، المسيحي الإنجيلي. كنا نمضي أوقاتاً مسلية في مباريات «الصحن الطائر» كل يوم أحد، إضافة إلى البيسبول والغولف وكرة القدم الأميركية.

سهر وسمر

بعد أن انتهى فصل الربيع الدراسي، وعلى أبواب فصل الخريف، انتقلت للسكن في شقة أخرى أكبر مساحة. سكن معي طالبان هما جايسن، من جمهورية الدومينيك، والأميركي آندي. جاء هذا الانتقال في أجواء مليئة بالسهر والسمر، خصوصاً برفقة مايك وصاحبته زين، شريف وصاحبته الروسية ناديا، فيما كنت في معظم الأحيان برفقة كيلي.

كنت أقيم العديد من الحفلات الخاصة في الشقة في نهاية الأسبوع، أدعو اليها في كل مرة أكثر من عشرين طالباً من زملائي وأصحابهم، وكنت أعدّ الطعام للجميع – كانت الوجبة المفضلة تتألف من الكباب المشوي بالطحينة وأرزّ البسمتي. أجريت اختبار قيادة السيارات والدراجات النارية، وحصلت على رخصة القيادة من الولاية.

قال لي داميان، زميلي في قسم الاقتصاد، مرة: «أنت أميركي أكثر من الأميركيين». وقال لي في مرة ثانية عند رؤيته لي أستغرق في الرقص على وقع موسيقى الـ «راب»: «أنت مدمن على السهر والحفلات». ذكرت هاتين العبارتين لما تعبّران عنه من واقع حالي في تلك الفترة. تخلل الحفلات الخاصة تبادل الأحاديث بين الحاضرين، كان منها نقاش جرى بيني وبين زين حول الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان وأعمال المقاومة هناك.



كانت زين رئيسة نادي اتحاد الطلبة اليهود في الجامعة، ولها أقارب في الجيش الإسرائيلي. لا أذكر كيف بدأ النقاش، لكنني أذكر أنني انفعلت في الدفاع عن حقنا كلبنانيين في مقاومة الاحتلال، وقمت بتفنيد ادعاءاتها بأن الجيش الإسرائيلي كان يحمي حدوده بوجه مجموعة معتدين وإرهابيين، كما كانت تعتقد. بكت زين في نهاية النقاش وقالت: «لا أدري ما أصدّق».

انجذبت تماماً إلى نمط الحياة الأميركية. كان التعلق بهذا النمط والرغبة في اتّباعه سبباً في تكيفي مع عاداته وتقاليده بإتقان. تجلى ذلك في لكنتي وفي العبارات التي كنت أستخدمها في حالات المزاح والغضب، واللباس وحركات الجسد، إلى حدّ لم يشكّ من قابلني دون علمه بأصولي بكوني تربّيت خارج الولايات المتحدة. أصبحت المناسبات والعطل الأميركية ذات معنى بالنسبة إليّ، واعتبرت أهمها عيدَي الشكر والميلاد. شاركت الناس احتفالاتهم، وجلست معهم إلى موائد الطعام في تلك المناسبات.

قصدت مرة ولاية كنتاكي في وسط البلاد، في زيارة قصيرة إلى مصنع كيلي في بلدة كلاركسن، أحد أكبر معامل إنتاج لوازم تربية النحل في الولايات المتحدة. أعطتني الزيارة فكرة عن طبيعة الريف الأميركي لم يعطني إياها العيش في فلوريدا، باعتبار أن من يسكن هذه الولاية مجموعات مختلطة تأتي من ولايات مختلفة، لكون طقسها شبه الاستوائي يشجع أهل الشمال على القدوم اليها.

أثناء الزيارة، قدت سيارة استأجرتها من المطار إلى البلدة، حيث جلست إلى مائدة الغداء في أحد المطاعم برفقة مضيفي. عندما طلبت كأساً من البيرة، قاطعني المضيف قائلاً: «لا يسمح بتقديم المشروبات الكحولية في الأماكن العامة في هذه المقاطعة».

سألتـه عـن السبـب، فقـال: «تمّ استفتاء السـكان حـول الموضوع، فجاءت النتيجة أن طلبت الأكثرية ذلك». استغربت الأمر، إذ لطالما اعتـبرت أن أميركا هي ما نراه من خلال شاشات التلفزة، ما تنقله لنا هوليوود عن نيويورك ولوس أنجلس.

أحداث ١١ أيلول والحقوق المدنية

أثنـاء فترة الدراسـة، حصلت حادثـة الحادي عشر مـن أيلول الشهـيرة في الولايات المتحدة. نهضت مـن النوم صباح ذلك اليوم، كنـت أعد طعام الفطـور، وأدرت جهاز التلفزيـون لمشاهدة النشرة الجوية. ظهر على الشاشة مشهد واحد، طائرة تقتحم مبنى التجارة العالمـي وتنفجر فيه. اعتقدت الأمر خيالاً في البداية، ثم فهمت بعد دقائق. شعرت بالصدمـة وتملكني الغضب وتجمّدت في مكاني عند متابعتـي عرض المجريـات، كما انتابني انفعـال عميق. تخيلت حال ركاب الطائـرة والضحايا من المتواجديـن في المبنى، خصوصاً عند سقوطـه، والمبنى الآخر بقربه، ووددت لـو كان باستطاعتي أن أكون هناك للمساعدة.

لا شـك في أن إحساسي المستجد بالانتمـاء إلى مجتمع الجامعة في فلوريـدا كان وراء شعـوري هذا. لم تنته قصـة الاعتداء هنا، بل أصيبت أميركا بحالة مـن الهلع بعد الحادثة، كان من آثارها شعور العديد من الأميركيين بالتمييز ضد العرب، بعدما أشيعت معلومات مشاركـة أفـراد عرب من تنظيـم القاعدة في تنفيـذ الاعتداء وبعد إطلاق الأحكام المعمّمة بحقهم.

كانـت أخبار تشاع هنا وهناك، وصلت أصداؤها بقوة إلى أجواء الجامعـة وصار الطلبـة يتناقلونها، ومفادها أن مكتـب التحقيقات



الفـدرالي FBI وضـع خططـاً لتحديـد عناويـن الطـلاب الأجانب وتعقّبهـم واستجوابهـم، وتحديـداً أولئـك المتحدريـن مـن أصول شـرق أوسطية وعربية. كانت هـذه الأخبار تـتردّد أيضاً في وسائل الإعلام.

غادرت الولايات المتحدة إلى جمهورية أفريقيا الجنوبية لحضور مؤتمـر «Apimondia» حول تربية النحل بعد حـوالي شهرين على الحادثـة. انعقـد المؤتمر في مدينـة داربـن، ورافقني إليـه مالكوم سانفورد من قسم النحل في الجامعة، وعدنا معاً بعد أسبوع.

تكفّـل قسـم اقتصـاد المـوارد الذي أدرس فيه بـكل مصاريف المؤتمـر من تسجيل وتذاكر سفر ومبيـت وطعام وتنقلات، كتشجيع لي بعـد تفوّقي في الدراسة، وبعـد أن شاع شغفي بعالم النحل. شكل لي المؤتمـر مناسبـة للتعرف إلى حضارة مختلفـة، وعرضت خلاله خلاصة بحث علمي عن سبل تحسين سلالة النحل المحلية في لبنان، وكان لي قسـط وافر من السهـر والمرح بصحبة فتاة تدعى سيموني التقيتها في الليلة الأولى لوصولنا.

رابعاً- السلطات في أميركا

بـدا أن السلطـات الأميركية لم تكن قد اتخـذت تدابير صارمة في الأسابيع القليلة اللاحقـة لحادثة الاعتداء، كما فعلت بعد ذلك. لاحظـت مزيداً من التشدد في إجراءات السلامة في المطارات، لكن ليس إلى الحد الذي هو عليه الآن.

FBI

بعد عدة أشهر على اعتداءات أيلول، أي في أوائل سنة ٢٠٠٢، أخبرني زميلي مايك بأنه سمع صدفة، في مكتب الاستقبال في القسم الذي ندرس فيه، أحد رجال الشرطة يطرح الأسئلة على الموظفة هناك حول معلومات شخصية تتعلق بي. بعد فترة قصيرة، اتصل بي في مكان سكني أحد الأفراد التابعين لمكتب التحقيقات الفدرالي في البلدة، قال إن اسمه آدم، وسأل عن إمكانية أن نلتقي. كان الاتصال ودياً، لكنه أثار القلق لديّ. اتفقنا على اللقاء قرب مقهى يبعد عن حرم الجامعة مسافة عشرين دقيقة سيراً على الأقدام.

تملكتني حالة من الحيرة خلال اليومين اللذين سبقا اللقاء، حالة من الترقب الشديد منعت عني النوم. لعل ما تسبب بتلك الحالة على وجه الخصوص أن الاتصال أتى في فترة كنت فيها على درجة عالية من الانفعال والتبدل في القناعات والشعور بالتعلق بالمجتمع الأميركي، في وقت كنت لا أزال فيه تحت وطأة ماض انتهى إلى تحولات جذرية في التفكير والسلوك. في الحقيقة، كنت أتصوّر أن يثار موضوع ارتباطي السابق بحزب الله، وما كنت أخشاه هو صعوبة شرح كل هذه التحولات لأشخاص لم تتسنّ لهم مواكبتي خلالها، وإن كنت أرجح امتلاكهم لوثائق أو ملفات ذات صلة نظراً إلى طبيعة عملهم.

وصلت إلى ساحة صغيرة أمام المقهى، فوجدت شابين في زي رسمي. التقت نظراتنا، فعرّفا عن نفسهما، «آدم وجِف»، واستدرجاني إلى مكتب في مبنى مجاور لتلك الساحة. كان المكتب صغيراً، في الطابق الأول، ولاحظت وجود كاميرا فوق الباب.



تم اللقاء في غرفة صغيرة، وكان ودياً. سألاني عن دراستي وعن كيفية تمضيتي أوقات الفراغ وعن رأيي في مباريات كرة القدم. كان الهدف من إظهار الاهتمام بأموري الخاصة كسر الجليد بيننا. أثناء اللقاء، طرحا عليّ بعض الأسئلة العادية حول مكان إقامتي في لبنان، ومواعيد سفري إليه وعودتي إلى الجامعة، وغير ذلك من الأسئلة الشخصية. كما سألاني عما إذا كنت أعرف أي شخص على الأراضي الأميركية يمكن أن يشكل خطراً على السلامة العامة، فأجبت بالنفي لعدم علمي بشيء من هذا القبيل.

انتهى اللقاء بإظهارهما الحرص على أن أتابع دراستي بمثابرة ونجاح. بخلاف توقعاتي، لم يتطرق أيّ منهما إلى ما تعدى تلك الأمور البسيطة، ولم أبادر بدوري إلى الدخول في تفاصيل أخرى، لكنهما قالا إنهما سيبقيان على اتصال بي. على الرغم من المحادثة القصيرة التي حصلت، لم أكن مقتنعاً أن كل ما في الأمر مجرد تعارف وأسئلة بسيطة.

مطلب ومناورة

بالفعل، اتصل بي جِف بعد حوالي أسبوعين وطلب إجراء لقاء آخر لمزيد من التعارف، واقترح ألا يكون لهذا اللقاء طابع جدي. حضر الاثنان وأقلاني من أمام مكان سكني هذه المرة. قمنا بجولة في سيارتهما، وتوقفنا بعد ذلك لشرب القهوة في أحد المقاهي القريبة. تبادلنا أطراف الحديث بفكاهة ظاهرة، لكن بدا لي من بعض الأسئلة أنهما كانا على اطلاع على معلومات تختص بأنشطتي في لبنان قبل مجيئي إلى الجامعة، وبانتمائي السابق إلى حزب الله. سألاني عن منطقة إقامتي في لبنان، وإذا ما كان فيها تواجد

وتأثير للحزب، ثم بعد ردّي الصريح بالإيجاب، طلبا مني إعلامهما بتفاصيل حول الموضوع.

حاولت أن أبدي شيئاً من الودّ والتجاوب، لأنني لم أرد أن يقوما بما من شأنه الضغط عليّ أثناء تلك المرحلة من الدراسة، والتي كانت تتطلب مني تركيزاً مضاعفاً. حدّثتهما، كأي فرد يسكن في المناطق الشيعية في لبنان، عن الأوضاع السياسية العامة في البلاد، وعن اضطهاد مستمر يتعرض له أهل الجنوب اللبناني، وعبّرت عن حق الشعب والحزب في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي. قلت لهما أيضاً إن المقاومة ينبغي أن تبقى ضمن إطار وطني لبناني، وألا تعمل نتيجة إيعازات تصدر من سوريا أو إيران تلبية لمصالحهما على حساب مصلحة أبناء الجنوب. بدت أسئلتهما عامة، ولم أجد من حاجة على ضوئها لأن أتحدث عن شؤون تتعلق بتجربتي داخل صفوف الحزب.

تبع هذا اللقاء لقاء آخر مشابه بعد حوالي شهرين، في نيسان ٢٠٠٢، لكن مع جِف وحده. هذه المرة، تخلّى عن المقدمات، وسألني عن إمكانية العمل مع الأجهزة الحكومية الأميركية، مكتب التحقيقات الفدرالي بالتحديد، فأجبته بأن لا نية لديّ على الإطلاق لفعل ذلك، وطرحت في المقابل أن تبقى العلاقة بيننا إنسانية حضارية، للاستفادة من حوار بنّاء على الصعيد الفكري.

ظهر لي من خلال ردة فعله وتعابير وجهه أن الأمر لم يرق له. لمست ذلك بسبب استعماله لغة بدت مبطّنة، كاستعمال عبارات مثل «أتعتقد ذلك؟» و«نتمنى أن تفكر في الأمر»، ممّا أشعرني بنوع من التهديد المقنّع. لم أكن سعيداً بأسلوبه، فأجبته بشيء من الانفعال أدى إلى حدّة في النقاش، بأنني أصر على ألا تكون علاقتي به في



خانة العلاقة الرسمية مع جهازه، ولم نتوصل إلى تفاهم. غادرت السيارة منفعلاً ومستاءً. حصل ذلك قبل حوالي شهر من مغادرتي إلى لبنان لقضاء فترة العطلة الصيفية للعام ٢٠٠٢.

في الحقيقة، لم أكن أتوقع أن تنتهي القصة عند هذا الحد، لكنني في المقابل لم أعتقد أبداً أن يترجم التهديد فعلاً من أي نوع كان قد يؤثر على دراستي الجامعية، لما في ذلك من ابتزاز لم أتوقعه من قِبل هيئة رسمية في أميركا. عزّز هذه الثقة تأثري الحديث بمناخ العيش في فلوريدا، وانطلاقي في التفكير وفي طريقة التحدث إلى الرجل من مفهومي لأجواء الحرية في الرأي والتعبير، كما كنت مقتنعاً في ذلك الوقت.

عطلة صيفية

في ختام فصل الربيع الدراسي لذلك العام، غادرت فلوريدا عائداً إلى لبنان. كنت قد أنهيت دراسة المواد الأساسية في منهج برنامج الدكتوراه، ونجحت في امتحانات التأهيل المتعلقة بها بتفوّق، ليبقى عليّ إكمال الأبحاث المؤدية إلى إتمام كتابة الأطروحة. كان في نفسي توق لتمضية بعض الوقت في لبنان بعد موسم دراسي حافل. ظهر بشكل لافت في ذلك الصيف مدى تأثري الفعلي ببعض أنماط الحياة الأميركية، ممّا طبع بعض سلوكي وتصرفاتي بطابع تلك الحياة، إلى حد جعل العديدين ممن قابلتهم وتحدثت إليهم في الوطن يعتقدون بأنني ولدت وتربيت في أميركا.

انعكست هذه التصرفات من خلال تحدثي إلى الناس بلكنة أميركية باستمرار، ومن خلال صراحة في التعبير بلغت بي حد الوقاحة أحياناً، بالنظر إلى عدم تفهم الناس لي في مجتمع يأخذ

الحديث فيه طابع اللباقات والملاطفات الاجتماعية، وباعتمادي الأسلوب البسيط في اللباس، وتصرفات أخرى. قال لي أخي عادل مرة: «ما بك تتصرف كالسائح الذي يزور بلداً ما للمرة الأولى؟!» وذلك استهجاناً منه لسؤالي عن سبب بعض العادات التي كنت أمارسها في السابق، كأنها غريبة عني كلياً، ولتوجيهي الكلام باللغة الإنكليزية إلى امرأة كان واضحاً أنها لم تفهم كلمة ممّا أقول.

في الحقيقة، لم يكن سلوكي هذا ناتجاً من مجهود كنت أقوم به عن سابق تصميم لإظهار تعلقي بنمط الحياة الأميركية، بل كان نتيجة تكيّف وعفوية لم يخلوا من ردات فعل عديدة. لفتني عند عودتي قول أحد الأساتذة في الجامعة الأميركية، شادي حمادة: «عرفناك سابقاً كرمز من رموز حزب الله، وتأتينا الآن كأميركي أمضى حياته في الولايات المتحدة».

على الرغم من التصرفات الغريبة التي صدرت عني، إلا أنني لا أنكر أنني كنت أشعر في أعماقي بحنين لأكون بين أهلي وأصدقائي القدامى، لأشاركهم تجربتي المستجدة، وإن لم أقم بالتعبير عن ذلك في أي مناسبة في ذلك الوقت؛ لكن هذا الشعور تكشّف لي في أوقات عديدة لاحقة.

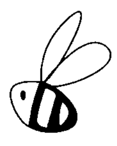
كانت عطلتي الصيفية حافلة. استأجرت شاليه في عمشيت ترددت إليه باستمرار بصحبة الأصدقاء من شبان وفتيات. قضينا الوقت في السباحة وجلسات السمر والسهر في النوادي الليلية في مدينة البترون الشمالية، وحافظت على القيام بالتمارين الرياضية وارتياد الأماكن الطبيعية. كانت عطلة صيف من نوع آخر، حاولت خلالها أن أدق باب الحب قليلاً، لكنني خرجتُ برفقة عدد كبير من



الفتيات لم أخف علاقاتي عن أيّ منهن. كنت صريحاً مع الجميع، لا أطيق ما يقوم به الشباب من محاولات كذب للإيقاع بالفتيات.

ربما كان الحظ إلى جانبي مع الفتيات حينئذ. كان شهر آب/أغسطس قد شارف على الانتهاء تاركاً فيّ ما عبّرت عنه بـ «فوضى المشاعر» في طبيعة العلاقة مع الفتيات اللواتي التقيت، من إعجاب أو تعلق أو حبّ.

قبل أن أهمّ بالعودة إلى الجامعة في فلوريدا، كنت قد أنهيت التسجيل لمواد البحث الخاص بأطروحة الدكتوراه، على أمل إنهاء البحث في وقت قريب. انطلقت في السابع من شهر أيلول/سبتمبر ٢٠٠٢ إلى فلوريدا عبر مطار كينيدي في نيويورك، حيث واجهت ما لم أتوقعه أبداً.



المحطة الثانية

الرحلة الأخيرة
(٢٠٠٢-٢٠٠٣)

لدى توجهي إلى دائرة الهجرة والجوازات في مطار كينيدي، طلب إليّ مدقق الجوازات أن أتوجه إلى باحة جانبية اكتظت بالوافدين، بعد أن نظر إلى شاشة الكمبيوتر ووضع الجواز في ملف وسلمه إلى موظف آخر.

قيد التحقيق

بعد الانتظار لوقت قليل، طلب إليّ الموظف الثاني الدخول إلى غرفة كبيرة والجلوس على كرسي من ضمن صفوف من حوالي ستين كرسياً. شغل الحاضرون حوالي أربعين منها، وبدا معظمهم من خلفيات أفريقية أو أميركية لاتينية. في صدر الغرفة سلسلة مكاتب محاطة بألواح زجاجية، جلس وراءها عدد من الموظفين بلباس أفراد الأمن، كانوا يستجوبون الحاضرين فرادى بعد مناداتهم بالاسم.

من خلال ما سمعت من أحاديث دارت بين موظفي الأمن والحاضرين، بدت لي حالات العديدين مرتبطة بدخول البلد بشكل



غـير شرعي، أو بملفات ناقصة لم يستكملـوا أوراقها، أو بمخالفات للقوانـين والأنظمة. كانت لهجة الموظفـين قاسية لا تفسح في المجال أمـام المستجوَبين للنقاش أو إبداء الرأي، ممّا أشعرني بالاستياء لما شاهدته من أساليب لا تمتّ إلى الحضارة وحقوق الإنسان بصِلة.

هالتنـي النبرة العالية في طرح الأسئلة والصراخ أحياناً في وجه المستجوبين، وعدم استعمال أي من عبارات «إذا سمحت» أو «الرجاء فعـل كذا وكـذا...»، وكأن الحاضرين مجموعـة من الخارجين على القانـون، يساقون بتسلط مـن سجّانيهم، وينتظـرون تبلغ الأحكام الصادرة مسبقاً بحقهم.

كان عليّ الانتظـار لفترة تجاوزت أربع ساعات، زاد من الضغط خلالها تواجد عدد من حراس الأمن الذين أحاطوا بنا والمسدسات علـى خصورهم. طلبت من أحدهم السمـاح لي بدخول دورة المياه، فرفض. لم يكن من السهل عليّ تقبّـل أن يحصل ذلك على أراضي الولايـات المتحدة، ولو بحجة الحفاظ على الأمـن، وإن كانت بضعة أيـام تفصلنا عن الذكرى السنوية لحادثة الحـادي عشر من أيلول المشؤومة.

عالم ثالث!

حضـر اثنان مـن عناصر الأمن يحمل أحدهمـا حقيبتي، وطلبا إليّ التقـدم باتجاههمـا، وبـدآ بتفتيشهـا على مرأى منـي. التقط أحدهما مفكرتي منهـا، وبدأ بتقليب صفحاتها وقراءة ما بداخلها. علـى الرغم من علمـي بعدم احتوائها على معلومـات أخشى من أن يتم الاطلاع عليها، شعرت في تصرفه هذا تعدياً سافراً على حريتي الشخصية، وكأنني مذنـب أو مشتبه به، فتقدمت نحوه وطلبت إليه

التوقف عن النظر في المفكرة، فإذا بزميله يدفعني بعيداً بقوة ويقول: «نحن نعرف ما نقوم به». تملكني امتعاض شديد وحزنت كثيراً.

بعد ذلك بقليل، نادتني إحدى موظفات الأمن من وراء الزجاج العازل لمكتبها. تقدمت صوبها، فطلبت إليّ الإجابة خطياً عن مجموعة من الأسئلة المكتوبة على ورقتين أو ثلاث سلمتني إياها، ففعلت وأعدتها إليها.

دارت الأسئلة حول سبب زيارتي للولايات المتحدة، وإبلاغي قسم الطلاب الأجانب في الجامعة عن رحلتي إلى لبنان، وإمكانية وجود خطر عليّ في حال إعادتي إلى بلدي... أجبت عنها بشكل طبيعي، وطلبت السماح لي بالاتصال بأشخاص في جامعتي لأشكو اليهم سوء المعاملة التي تعرّضت لها. قالت لي إنه بإمكاني إجراء اتصال واحد فقط، فقررت الاتصال بصديقي مايك الموجود في الجامعة في فلوريدا، لأسأله إبلاغ أساتذتي هناك بما كنت أتعرض له وطلب المساعدة إليهم.

لسوء الحظ، لم يكن مايك موجوداً في منزله، فتركت له رسالة على المجيب الصوتي، ظهر لاحقاً أنها لم تقدم أو تؤخر.

احتوت الأوراق في مقدمتها عبارات من نوع «إفادات مُحلّفة»، وإشارات أخرى إلى كون الشخص الموجّهة اليه غير مؤهّل لدخول أراضي الولايات المتحدة، وغيرها. استغربت الأمر لكوني حائزاً على تأشيرة قانونية. قامت الموظفة بطباعة الأجوبة، وطلبت إليّ أن أوقّع. قرأت الأجوبة المطبوعة، وطلبت إليها بدوري، بكل تهذيب، تغيير الجواب الأخير بسبب عدم مطابقته لما كتبت.



كان السؤال عادياً، يتعلّق بما إذا كنت أرغب بإضافة أية معلومات أخـرى، فأجبت بجملـة تفيد بأننـي تعرضت للإهانــة، وأنني أريد أن أعـرف أسماء الذيـن تعاملوا معي كي أتمكّن مـن تقديم شكوى بحقهم. أذكر هنا أنها قامت بطباعة الجواب ناقصاً، ربما لأن طول السطر تعدّى هامش الورقة، أو لأنها أرادت حذف العبارة الأخيرة.

علـى أيّ حال، ثارت ثائرتها، وبادرتنـي بالقول بنبرة عالية: «لا وقـت لدي لفعل ذلك، هيا وقّع». أجبتها: «لم أطلب إليك سوى تغيير عبـارة صغيرة لأوقّع على شيء قلته في الواقع، إذ من غير الصحيح التوقيع على ما لم أقله». عندها، وبشيء من السخط، ردَّت: «وقّع أو أوقّـع عنك بنفسي». ما كان مني، تحـت الضغط، إلا أن كتبت جملة مفادها أن جوابي الأخير غير مكتمل أو غير دقيق، ووقّعت. ما هي إلا لحظة، حتى قامت بسحب الورقة من يدي بسرعة ووقّعت عليها.

لا يسعنـي وصف حجم الخيبة التي أصبت بها. لم أستطع ضبط أعصابي بعد تلك المعاملة، فرفعت صوتي، عاجزاً عن حسر الدمعة في عيني، وردّدت في وجهها عبارات الرفض، مثل: «لا يجوز أن تفعلي ذلك»، و«ما قمتِ به معيب». ثم أضفت أنني لم آتِ إلى أميركا لأشعر بالمذلـة وسوء المعاملة، بـدل أن أشعر بالتقديـر، وباحترام لحريتي الشخصية وحقوقي المدنية.

اعتـبرت أنني تعرّضت للحرمان مـن أبسط حقوقي الشخصية، ولم أكـن أتوقع أن يحصل مــا حصل، ليس في أميركا فقط، بل حتى في دولة من الدول التي تطلق عليها تسمية دول العالم الثالث.

الاحتجاز

لعل نبرة صوتي المرتفعة أشعرتها بشيء من الإرباك، مما دفعها إلى استدعــاء عناصر الأمن على الفور. رأيت اثنين منهما يتقدمان نحــوي وهمــا يحملان السلاســل والأصفــاد، فاستدرت علــى الأثر نحوهما وباشرتهما بالقول: «إياكما والتقدم باتجاهي أكثر، فلم آتِ إلى هــذه الأرضــ لألقى هذه المعاملة السيئــة، وخير لي أن أعود إلى ديــاري، حتى وإن حرمني ذلك مــن الحصول على شهادة الدكتوراه التــي أتيت لأجلها». ما كان بهمــا إلا أن تجمّدا في مكانهما على بعد أمتار مني، وتراجعا خطوات إلى الوراء.

تقدم باتجاهــي شخص يرتدي زيّاً مدنياً وربطة عنق تدلت فوق قميصــه. ارتسمــت على وجهــه ابتسامة، وبادرني بالقــول: «أعتذر إليــك عما حصل، تفضل معي لو سمحت». ثم طلب إليّ التوجه معه إلى مكتبه للتحدث هناك بهدوء، ففعلت. أثناء سيرنا معاً في ممشى طويــل، فتح باب غرفة ودعاني إلى الدخــول. قبل أن يتاح لي النظر إلى مــا بداخلهــا، وبعد خطــوة واحــدة خطوتها، دفعنــي فجأة إلى الداخــل وأقفــل الباب، فوجدت نفسي محتجــزاً وحدي داخل غرفة مغلقة.

تبيّن لي أنه لجأ إلى أسلوب الاحتيال، ما لم أتنبه إليه إلا متأخراً، وكأنــه لم يكفني ســوء المعاملــة المستمرة الذي سبــق. كانت الغرفة خاليــة من الأثاث، في داخلها مقعد حديــدي يصلح للاستلقاء، وفي زاويتها كرسي حمّام حديدية. كانت في الواقع غرفة اعتقال.

بقيت في هذه الغرفة الباردة حوالي أربع ساعات، قدّم لي خلالها أحدهــم، من خلال فتحة ضيقة في البــاب، سندويشاً صغيراً وعلبة



فيهـا بعض شرائـح البطاطا المقليـة. تملكني شعـور بالترقب على مدى الساعـة الأولى من الاحتجاز، تبعه شعـور بالغضب والاستياء الشديدين في الساعات الثلاث اللاحقة، وصرت أركل الباب بقدمي وأضربـه بيدي وأصرخ. كان الباب حديديـاً توسّطت القسم الأعلى منـه قطعة زجـاج سميك، وقـد صُمّـم ليؤمن العزل عـن الخارج. شعرت بفقـدان أي رغبة في التواجد على الأراضي الأميركية، تحت أي طائل.

الترحيل

في نهايـة الساعـات الأربـع، حضـر عـدد مـن موظفـي الأمن، واقتادني اثنان منهما أمسـكا بذراعيّ. كنت منهكاً ومصدوماً، فلم أقاومهما البتة. وصلنا إلى غرفة صغيرة، أخذا بصمات أصابعي ثم سلّمـاني ظرفاً حوى جواز سفري الـذي تم إلغاء التأشيرة منه، كما أوراقـاً تشير إلى أننـي خضعت لاستجواب قضائـي، وإلى أن قراراً صدر بناء عليه بحرمـاني من دخول الأراضي الأميركية لمدة خمس سنـوات. بعد ذلك، اقتاداني إلى طائـرة للخطوط الجوية المصرية وصلـتُ سابقاً إلى نيويـورك على متنها، وكانت علـى وشك الإقلاع باتجاه الأراضي المصرية.

لم يكن على متن الطائرة عدد كبير من الركاب، ففضّلت الجلوس في القسـم الخلفي وحيـداً. حطت الطائرة في مطـار القاهرة. كان عناصر مـن الأمن العام المصري بانتظاري عنـد الباب؛ طلبوا إليّ مرافقتهـم لاستجوابي، وسألـوني عن سبب ترحيلي عـن الأراضي الأميركيـة. تعدّت فترة الاستجـواب ساعة من الزمـن، وُجّهت إليّ خلالهـا اسئلة عمّا إذا كنت أقدمت علـى أي فعل من شأنه المساس

بالأمن هنــاك أو بسلامة المواطنين الأميركيين، أو بالأمن المصري، بالإضافة إلى أسئلة شخصية عادية.

بعــد ساعــات قليلة، اقتــادوني إلى قاعة انتظار، ثــم إلى طائرة أخــرى متوجهة إلى بيروت. عند باب الطائرة في مطار بيروت أيضاً عناصر من الأمن العام اللبناني، وجّهوا إليّ بعض الأسئلة عن سبب ترحيلــي عن الأراضــي الأميركية، أجبتهم عنهــا باختصار، ولمست تفهمهم السريع.

توجهــت عائــداً إلى منــزلي القريب مــن طريق المطــار بعد أن اتصلت بصهري علي وطلبت إليه أن يحضر لي مفتاح المنزل. وصل مصدوماً لعودتي السريعة، ورآني في حالة من التعب الشديد. قرأت في عينيه تساؤلات عديدة لم يطرحها حينذاك. طلبت إليه ألا يخبر أحداً بعودتي.

حتــى تلــك اللحظة، كنت لا أزال أتصــور أن ما حصل معي ليس استهدافاً شخصياً، بل هو ناتج بشكل عام من سوء معاملة الأجانب، بخاصة العرب والمسلمين، من قبل سلطات الأمن الأميركية.

بقيــت في المنزل ليومين أو ثلاثة للراحــة، لم أُعلم أثناءها الأهل بعودتــي لما كان الأمر سيسببه من قلق لهــم؛ ولا الأصدقاء، لما كنت سأشعــر به من حرج أمامهــم. تدبّرت الأمر لاحقــاً بالادعاء بأنني أستغــل تواجــدي في لبنــان من أجــل إتمــام الإحصــاءات المتعلقة بأطروحة الدكتوراه. في الحقيقة، إن جلّ ما كنت أخشاه من النــاس، في حــال الكشــف لهم عمّا حل بي، هــو لسان حالهم كمــا تصوّرته: «أميركي ورُحِّل عن أميركا».



في هذه الأثناء، اتصل بي أحدهم من الخطوط الجوية المصرية طالباً إليّ تسديد ثمن تذكرة العودة من نيويورك إلى بيروت. أجبته بأن يطالب السلطات الأميركية بذلك.

وقف المنحة الدراسية

تركت لدي هذه الأحداث الأخيرة خيبة أمل على الصعيد النفسي، لم يكن تأثيرها أقل على صعيد متابعة دراستي. بعد أن اتصلت بأساتذتي وزملائي في جامعة فلوريدا، وأطلعتهم على ما حصل معي وأدى إلى ترحيلي، عبّروا جميعاً عن صدمتهم وعن استعدادهم لتقديم كل ما بوسعهم لمساعدتي على العودة إلى الجامعة. قال لي مايك إنه تلقى رسالتي متأخراً، وعرض جميع أشكال المساعدة الممكنة.

كذلك، أرسل إليّ مدير القسم كريس أندرو والمشرف على بحث الأطروحة روبرت إميرسون ومديرة قسم الطلبة الأجانب دِيبرا أندرسون رسائل دعم واستهجان لما حصل، قالوا فيها إنهم حاولوا الاتصال بالسلطات المختصة للمساعدة. بالفعل، لمست منهم تعاطفاً واهتماماً بالغَين. وصفت الرسائل ما قام به موظفو دائرة الجوازات والهجرة بأنه غير قانوني وغير أخلاقي، وعبرت عن أنه من غير الجائز أن يتذرع هؤلاء الموظفون بالأمن القومي للتعدي على حقوق الأفراد وحرياتهم.

قالت ديبرا في رسالتها: «لا يمكنهم معاملة الطلاب الأجانب بهذا الشكل السيئ والمهين، وباسم القانون!» يبدو أنها كانت مطلعة تماماً على تجاوزات السلطات في التعامل مع الطلاب الأجانب.

كذلـك كتـب لي شريـف ودواميان وهيتاشـ وآخرون مـن الأصدقاء الذين بقيت على اتصال بهم.

قبـل العـودة إلى لبنان لقضاء العطلة الصيفيـة، كنت قد قرأت في صحيفة «Alligator» اليوميـة في الجامعة عن «قانون المواطنية» الجديـد الذي صدر بعـد أحداث الحادي عشر مـن أيلول، وتضمّن إجـراءات تـؤدي إلى تجريـد شبـه كامـل للمواطنـين الأجانب من حقوقهـم، وللمواطنين الأميركيين بدرجة أقـل. لم أعِ جيداً مفاعيل هذا القانون إلا بعد ما واجهته من ضروب تطبيقه.

لم تفلـح محـاولات الأساتـذة والإداريين في جامعـة فلوريدا في إيجـاد حل ناجع. جميع الاتصالات بدائرة الهجرة وبدوائر حكومية أخرى، وبأعضاء في الكونغرسـ عن ولاية فلوريدا وغيرهم، لم تكن لتجدي نفعاً بالنظر إلى ضعف هذه السلطات جميعاً أمام السلطات الأمنيـة الفدرالية. كانت النتيجـة عدم قدرتي على العـودة سريعاً إلى فلوريـدا، فاضطر قسم اقتصـاد الموارد في الجامعة إلى إيقاف مفعول المنحة الدراسية عملاً بالأنظمة التي تضمنت شرط تواجدي الفعلي ضمن الحرم الجامعي لاستحقاقها.

تبع إلغاء المنحة إلغـاء تسجيلي لفصل الخريف للسنة الدراسية ٢٠٠٢ - ٢٠٠٣. ازدادت الأمور صعوبة، لكن أستاذي روبرت إيمرسون عرضـ المساعدة في الإشراف على تطـوّر البحث المتعلق بالأطروحة عـن بُعـد، بفعل انتهائـي من امتحانـات الكفاءة في المـواد العلمية. أمضيـت فـترة تعـدّت السنة أحـاول خلالها التقـدم في العمل على البحـث لتعويض الغياب عن الجامعة. سيطر عليّ نوع من الإحباط، إذ لم أكـن أعمل إلا بشكل متفرق ومحـدود، وشعرت بالعبء المادي بعد أن كرّست معظم وقتي للعمل الأكاديمي.



خـلال الأسبوعين اللذين تليا عودتـي القسرية إلى لبنان، كتبت رسالة قصيرة إلى جِف العضو في مكتب التحقيقات الفدرالي، بعثت بها اليه بواسطة البريد الإلكتروني، بعد أن وجدت عنوانه على ورقة كنـت أحتفظ بها. شرحت له باختصـار ما تعرّضت له، وطلبت إليه مساعدتـي في العودة إلى الجامعة إذا أمكن. بعـد أسبوع، بعث إلي بـردّ مختصر قال فيه إنـه يشعر بالأسف لما حصل معي، وإنه يعتذر عن عدم قدرته على المساعدة.

أما بالنسبة إلى معظم الأشخاص الذين عرفوني في لبنان، فقد قـررت الاستمرار في إخفـاء ما حصل معي عنهـم، باستثناء الأهل وقلة مـن الأصدقـاء. واصلت الادعاء بـأن وجـودي في لبنان مفيد لمتابعـة البحث حول أطروحة الدكتوراه المتعلقة بالاقتصاد اللبنـاني، ما أوحى إليهم بأن بقائي نابع من قرار حرّ.

بَطُلَ العجب

مـن أجل التعامل مع الوضـع القائم، وبحسـب نصائح أستاذي إميرسون، كان عليّ الحصول مجدداً على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحـدة من السفـارة الأميركية في لبنان. بعد مـا يقارب الشهرين على عودتي، أي في أوائل شهر كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٢، توجهت إلى مبنـى السفارة في عوكر لمقابلة موظفي القنصلية. قمت بتقديم الطلبات اللازمة، وأخـبرني الموظف المسؤول، وقال إن اسمه آندي، بـأن شخصاً سوف يتصل بي لاحقاً بهـذا الشأن. كان الموظف شاباً أميركياً، مائلاً إلى الطول، في بداية الثلاثينيات من العمر، ذا بشرة بيضاء وشعر أشقر.

بالفعل، وبعد أسبوع، اتصل بي الشخص نفسه وطلب إليّ الحضور لمقابلته في السفارة. وجدته ينتظرني أمام مدخل السفارة الخارجي بمحاذاة الطريق، واستقبلني بحفاوة لافتة شعرت بالريبة حيالها. دخلنا حرم السفارة ووصلنا إلى مبنى صغير كان لنا في إحدى غرفه لقاء ثنائي استمر لأكثر من ساعة. إن جوّ الود وما أبداه من ثقة تجاهي، على الأقل في الظاهر، تركا أثرهما على الجلسة التي طغى على نصفها الأول حديث عن أجواء الجامعة في فلوريدا ومباريات كرة القدم وتمضية الوقت هناك، بالمقارنة مع تمضية الوقت في لبنان.

بعد الأحاديث الشخصية، شرحت له ما حصل معي على أرض المطار في نيويورك، بعد أن سألني عن الأمر. بادرت إلى تصنيف ما تعرّضت له من معاملة في خانة إجراءات الأمن العامة التي لا تفرق بين شخص وآخر، نتيجة اعتداءات أيلول/سبتمبر، وأخبرته بأنني لا أزال تحت تأثير الصدمة إزاء ما مررت به. ثم طلبت إليه إعادة منحي التأشيرة لأتمكن من إكمال مناقشة رسالة الدكتوراه في جامعة فلوريدا، خصوصاً أنني لم أقم بأيّ خرق للقوانين ولا بأيّ أمر يهدد سلامة أحد على الأراضي الأميركية.

أثناء الحديث الذي تخلله الكثير من المزاح، طرح عليّ آندي بعض الأسئلة المتعلقة بأنشطة حزب الله تجنبت الإجابة عنها بشيء من اللباقة. سألني عن مكان إقامة أهلي في النبطية، كأنه يعرف أحياءها، وعما إذا كان لي أو لأحد من أفراد أسرتي نشاط حاليّ أو سابق مع الحزب، وما إذا تضمن النشاط شؤوناً عسكرية. لم أرد الخوض معه في هذا الموضوع لئلا يكون مادة للأخذ والرد بيننا بدل التركيز على موضوع الدراسة. لكنه كان يعيد طرح تلك الأسئلة



بطريقة أو بأخرى، كأنه أراد سماع أجوبة محدّدة. في المقابل، كنت أركز في حديثي على ضرورة حصولي على التأشيرة لإنهاء دراستي.

أجبته أن حالنا كحال أي أسرة تعيش في الجنوب، وأن الجميع يتعاطفون مع الحزب. عندما لم يجد لديّ رغبة في الإجابة عن الأسئلة المحدّدة التي طرحها، أو في التحدث عن شؤون تتعلق بنشاطات حزبية، صمت قليلاً، ثم أخبرني بأن سبب ترحيلي عن الأراضي الأميركية كان عدم تعاوني مع مكتب التحقيقات الفدرالي هناك، وبأن حصولي على التأشيرة لن يكون صعباً إذا ما قبلت بإرساء صيغة تعاون للعمل معه بالتنسيق مع وزارة الخارجية الأميركية.

في هذه اللحظة بالذات، سيطر عليّ الصمت، ولم يسهل عليّ تصديق ما سمعت. شعرت بحالة من تراكم الغضب والاحتقان في داخلي من الصعب وصفها، أجّجها الغليان الذي انعكس في الألوان الداكنة على وجهي. لم أكن أتوقع أبداً أن كل ما حصل على أرض المطار في نيويورك كان مدبراً على سبيل الابتزاز المنظم، وعلى ذلك النحو السافل، لدفعي إلى العمل مع السلطات الأميركية تحت ضغط حاجتي إلى الحصول على شهادة الدكتوراه.

نهضت عن الكرسي وقلت له بحدّة ظاهرة: «كان بإمكانكم التعامل معي بحد أدنى من التقدير والاحترام. لا أصدّق ما تسمعه أذناي. إن لجوءكم إلى هذا الأسلوب الرخيص من الابتزاز أمر لا أستطيع تحمله ولا الخضوع له تحت أي ذريعة. أقول لك، أخطأتم في اختيار الشخص، فخير لي ألا أتمكن من مناقشة الأطروحة من أن أفعل ذلك تحت الابتزاز».

تحت وقع الصدمة، هممت بالرحيل، ولم تجدِ محاولاته لتهدئتي نفعاً. طلب مني ألا آخذ الموضوع بانفعال، وأضاف أن وصفي للحادثة علـى أنها انتهاك للقيـم الأخلاقية فيه شيء من المثالية. ثم قال إنه ببعضـ اللين يمكن تسوية الأمـور، لكن ردة فعلي لم تترك أي مجال لمتابعـة الحديث بشكل هادئ. لم يرُق لي مسار اللقاء، فتوجهت نحو باب الغرفة. قبل خروجي، طلب إليّ الاحتفاظ برقم هاتفه الخاص. دونته بعد تردد على ورقة صغيرة، إذ لم أشعر بحاجة إلى استعماله بعد ما جرى.

بعـد حوالي أسبوعين، اتصل بي مجدّداً، وطلب إجراء لقاء آخر بيننـا. قلت له إنني لا أريد الذهاب إلى السفارة هذه المرة، فتقابلنا في موقـف للسيـارات قرب أوتوسـتراد مدينة جونيـة، بعدما ركنت سيارتي في الموقف، وركبت معه في سيارة الجيب خاصته.

قمنـا بجولـة في السيـارة لم يتخللها أي جديـد في الحديث، إلا ذكـره بأنه بعث برسالة إلى مكتب الـ FBI في واشنطن يحثهم فيها علـى الرجوع عـن قرارهم بعدم السمـاح لي بالعـودة إلى الولايات المتحدة، كمحاولة لمساعدتي في هذا الشأن.

لم أشعـر بالارتياح لكلامه، إذ اعتبرت أن فيه شيئاً من التحايل مـن أجـل تليين موقفـي، وطالبته مجـدداً بإعادة منحـي التأشيرة لأتمكـن مـن السفـر ومتابعة الدراسة كبـادرة حسن نيـة من قبله. شرحـت له الصعوبات المادية والنفسية التي تعرّضت لها، خصوصاً أن فرصة الاحتفاظ بالمنحة الدراسية الممنوحة لي من قبل الجامعة سوف تضيع إذا لم أكن متواجداً في حرمها في وقت قريب جداً.



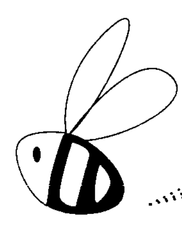
لم أسمـع أخبـاره بعد هذا اللقاء، لكنني اتصلـت به بعد أشهر، عندمـا اتضحـت لي صعوبة العـودة إلى فلوريدا. حصـل الاتصال قبيل الحرب على العـراق على ما أذكر، وسألته عن موضوع تجديد التأشيرة، فردّ بالسلب بنبرة لا تخلو من الغضب، كأنه كان يتوقع أن أخبره شيئاً آخر.

كانت الخاتمة. لم يتصل بي ولم أسمع منه بعد ذلك.

الإطار الثالث

لبنان من جديد

(٢٠٠٣-٢٠٠٧)



إتمام الأطروحة

بعد ما حصل إثر تمسّكي بموقفي، كان علي التعامل مع الواقع الجديد. طلبت إلى أساتذتي وإلى إدارة القسم في جامعة فلوريدا أن يساعدوني على إيجاد مخرج لإنهاء الدراسة. كانت صعوبة الموقف بالنسبة إليهم تتمثل في كون وجودي في حرم الجامعة شرطاً من شروط التخرج، إلا أن إتمامي لدراسة مواد المنهج الأساسية بتفوق ساعد كثيراً على إيجاد المخرج.

بعد العديد من المراسلات والمراجعات التي تطلبت وقتاً غير قليل، حصلت من أستاذي المشرف روبرت إميرسون، وبشكل رسمي، على تطمينات بخصوص تخرجي بشكل استثنائي، دون الحاجة إلى الحضور إلى حرم الجامعة، بشرط الانتهاء من كتابة الأطروحة بشكل كامل ودفع رسوم التسجيل بسبب إيقاف المنحة المالية. كان ذلك في النصف الثاني من العام ٢٠٠٣.

كانت كلفة أرصدة البحث المتعلق بالأطروحة باهظة، قاربت ثلاثين ألف دولار أميركي. باشرت بإجراءات التسجيل من خلال الإنترنت والبريد الإلكتروني، وساعدتني المسؤولة عن ملفات الطلاب في القسم، جيسيكا هيرمان، في إنجاز المتطلبات التقنية.

كذلك كان بقي لي مادتان تتعلقان بموضوع البحث، تدبّرت أمر تسجيلهما وإنجاز متطلباتهما بمساعدة أستاذي إميرسون الذي طلب إلى أستاذَي المادتين مساعدتي أيضاً. رافق ذلك صعوبات وضغوط كبيرة، بسبب اضطراري للتوفيق بين كتابة البحث والعمل لكسب المال الذي كان عليّ تخصيص قسم كبير منه لدفع مصاريف التسجيل في الجامعة. بقي تحديد موعد مناقشة الأطروحة التي



انتهيت من كتابتها بعد تصحيحها وتدقيقها لمرات بحسب ملاحظات لجنة الأساتذة المشرفين.

أما على الصعيد النفسي، فكنت، ولا أزال، أشعر وأتصرف كمن انتمى إلى ذلك المجتمع الرائع في فلوريدا، كأنه لا يمكنني إلا أن أختزن كل المعاني الجيدة التي ارتسمت في مخيلتي هناك. وفي الوقت نفسه، أختزنُ جميع أحاسيس الرفض للتجاوزات والاعتداء على الحقوق، والتي تمارسها زمرة متسلطة من أفراد الحكومة الأميركية، إذ كان لي نصيب وافر منها.

على إثر ما تصوّرته من انطباعات في أذهان من عرفني من جمهور جامعة فلوريدا، من جراء تناقل الأخبار على ألسنتهم، بقي أن أذكر أن عدم تمكني من الذهاب إلى هناك ترك في نفسي هماً يتعلق بشرح وجهة نظري لهم. كما شعرت بالحاجة إلى وجود أحد منهم إلى جانبي، بعد أن تم اقتلاعي من بينهم من دون سابق إنذار. وقع الخيار على أقرب أصدقائي، مايك، الذي اتصلت به وطلبت اليه الحضور لزيارتي في لبنان. استغرب مايك الدعوة، لكنني أصريت لمعرفتي أيضاً بأنه كان يرغب في الزيارة بعد أن أخبرته الكثير عن بلدي.

حضر مايك إلى لبنان في أواخر ربيع ٢٠٠٣، وأقمنا في منزلي لمدة أسبوع. أخبرته قصتي بالتفصيل، تعاطف معي كثيراً، ووصف مواظبتي في التقدم نحو الأهداف التي وضعتها لنفسي، على إثر ما مررتُ به، بالاستثنائية. ارتحت لوجوده إلى جانبي؛ دعوته إلى بيت أهلي ليتعرف إليهم، وزرنا المناطق والمعالم الأثرية اللبنانية المختلفة، من قلعة بعلبك إلى معتقل الخيام في الجنوب، وسهرنا في وسط بيروت. ضحك مايك عندما رأى نبع «الوزاني»، بعدما سمع

عنــه في إحدى نشرات الأخبار الأميركيــة، قال: «اعتقدته أكبر. إنه بحجم نبع في الأرض التي يملكها أبي في كاليفورنيا».

تنقلنا في أرجاء الجامعة الأميركية في بيروت، والتي عرّفته إليها بتشــوّق. استحضــرت معه فيهــا الكثير من الذكريــات، من دخولي اليهــا كطالب مشاغــب، إلى عودتي اليها كمدرّسـ. طلبت إليه قبل رحيله أن يسأل جِف، من مكتب التحقيقات الفدرالي في غاينسفيل، إذا سنحــت له الفرصــة، عن سبب اتّباع الابتــزاز في التعامل معي. اتصــل بي بعد أسبــوع أو اثنين وأخبرني بأنه تحدّث مطولاً إلى جِف بواسطــة الهاتف. قال له إنني لم أقم بما يبرّر ترحيلي عن الأراضي الأميركية وعن الجامعــة في فلوريدا. في المحصلة، نقل لي مايك أن جِف قال له: «لقد عاملَنا رامي بازدراء».

من الجامعة الأميركية وإليها

بين المتطلبات الرسمية للانتهاء من صياغة الأطروحة في جامعة فلوريــدا وضغــط الحيــاة المعيشيــة، كان لا بــد لي مــن تأمين دخل مستقر يساعدني على تحمل نفقات الحياة وعلى سداد ما تبقّى من مصاريف الدراسة في فلوريدا.

التحقت بالجدول العام لنقابــة المحامين في بيروت في ربيع سنة ٢٠٠٣، ممّــا ساعدني علــى إكمال مشوار العمــل في مهنة المحاماة. إلى جانــب متابعة الدعاوى لدى المحاكــم، خصّصت وقتاً للأبحاث الحقوقية المتعلقة بأنظمــة أدوات التنمية الاقتصادية، كالتعاونيات الزراعية والشركات التجارية الخاصة والجمعيات الأهلية والمنظمات غير الحكومية. هكذا استطعت الجمع بين العمل في إعداد الدراسات



القانونيـة لتلك الأنظمة وبين العمل في التنمية الاقتصادية، موضوع اختصاصي في جامعة فلوريدا.

علـى خط مـواز، شـدّني الشـوق مجـدداً إلى ساحـة الجامعة الأميركيـة في بيروت. لم تنتهِ قصتـي مع هذه الجامعة بانتهاء فترة دراستـي فيها كطالب، بـل عدت اليها كأستـاذ محاضر في موضوع تربية النحل، في النصـف الثاني من العام ٢٠٠٣. اخترت التدريس في هذا الحقل بدل حقل الاقتصاد لشغفي بعالم النحل. انطلقت من رغبـة في التركيز على علم تربية النحل بعـد إدخاله إلى منهج كلية الزراعة لتطويـر المواد والأبحاث المتعلقة بـه. لم أكتفِ بهذا القدر، بل عملت على جعل تربية النحل وسيلة الإنتاج التي اخترتها لمشاريع التنميـة الاقتصاديـة، وأعـددت دراسات نظريـة وتطبيقية حولها. شملت هذه المشاريع مختلف أرجاء لبنان، وكان للجنوب قسط وافر منها.

كان علـيّ أن أوليَ حياتـي الاجتماعيـة اهتمامـاً، بعدمـا آلـت بـي الأمـور إلى البقاء في لبنـان. مع بدايات سنـة ٢٠٠٤، عدت إلى المواظبـة على النشـاط الرياضي، مـن انتظام في الـتردّد على نادٍ لكمـال الأجسـام في محلة رأس بيروت قرب الجامعـة، إلى متابعة رياضة المشـي في الجبال والتخييم هناك. عدت إلى السمر والسهر والحفـلات الليلية في ملاهـي وسط بيروت وشـارع «مونو» في محلة الأشرفية في العاصمة.

كانـت لي أيام الرابطة لحظـات قضيتها في التأمل أمام محبسة القديس شربل في بلدة عنايا، في أعالي جرود جبيل. أحببت حينذاك أن أنـأى بنفسـي عن العالم في منتصف الليـل، لساعات كانت تمتد أحياناً حتى الصبـاح. استمرّ ترددي إلى هناك، ولو بوتيرة أقل. في

إحدى الليـالي، تعرفت صدفة إلى ريمون ناضـر، شاب ترك العمل التنظيمـي مع القوات اللبنانية. استمـرت صداقتنا بعد أن أتينا من عالمين مختلفين.

كانـت علاقة «أبويـة» تربطني بالمطران غريغـوار حداد مؤسس الحركـة الاجتماعيـة. عرفته أيـام الرابطـة، انضممـت إلى «تيار المجتمـع المدني» الـذي أسسه، ووجدت فيه أهـم داعية للعلمانية في لبنان، بما يتناسب مع خصوصيات البلد الاجتماعية والسياسية.

حبـذا لو ينهج نهجه دعاة الدين والسياسة والاجتماع في لبنان. كان لي أيضـاً بعض النشاطات الاجتماعية المحدودة مع جمعية فرح العطـاء، بعـد أن تعرفت إلى مؤسسها المحامـي ملحم خلف. جميلة كانت كلمات ملحم، يقول: «ليس الجمال في أن تعطي فحسب، بل أن تعطي بفرح أيضاً».

اختلفـت قصتي مع الحب والفتـاة في هذه الأثناء. وجدت الأنسَ في العلاقـات المتنقلة من فتاة إلى أخـرى، لكن تخلل ذلك محطات مـن الحب، البسيـط أحياناً، والعميق دون الوصـول إلى حد الغرام أحيانـاً أخرى. كانت أقصر هـذه المحطات شهراً واحـداً، وأطولها سبعة أشهر، رافقتني فيها سمر وسالي وريما ورلى وكورين وساندي وغيرهن.

لم أعزم على إنهاء أية علاقة عن سابق تصميم، بل على العكس، كنـت أحاول التمسّك بكل ما هو جميل مـع الفتاة التي أحببت، لكن مـآل الأمور كان دومـاً الانفصال. أدمنتُ الفتـاة، وجدت فيها دفئاً أضحى عندي حاجة دائمة، ولربما شكّل الملاذ الآمن لانفعالاتي بعد عزوفي عن شؤون السياسة.



المحاماة والنحل

كنت أعتبر مهنة المحاماة رسالة قبل كل شيء. اخترت أن أتجنب الانزلاق إلى ما من شأنه أن يدفعني إلى تعاطي المهنة بعيداً عن الأخلاق، على ضوء الفساد المتفشي في البلاد، والمتمثل باعتماد أساليب الرشوة و«الواسطة» والمحاصصة واختلاس المال العام، وما لذلك من تأثير على إرساء العدالة بين المواطنين وعلى إيصال الحق إلى أصحابه ودفع التعدي عن أصحاب الحقوق المهدورة، وغيرها من الحالات. من هنا، شكّل التدريس في الجامعة الأميركية متنفساً أعبّر من خلاله عن رؤيتي المثالية لطريقة بناء وطن من قبل أبنائه الشباب.

صحيح أن عالم النحل مادة تدريس بالنسبة إليّ، لكنه كان المدخل إلى علاقة مسؤولة مع الطلاب، حافظت فيها على واجبات العمل بشكل دقيق، وفرّقت فيها بين ما تمليه عليّ حياتي المهنية وبين شؤون حياتي الخاصة. أحببت أن أكون بين الطلاب على الدوام، في قاعة المحاضرات وفي الحقل والرحلات الدراسية أثناء الكشف على خلايا النحل، كما في ما تسنى لي من وقت لتناول الطعام أو القهوة معهم. أردت إدخال جمهور الجامعة إلى عالم النحل، فكان نشاط «يوم العسل السنوي». أشعرني وجودي بين الطلاب بحياة جديدة في داخلي، لم تكن إلا امتداداً لتلك الحياة التي عشتها في الجامعة كتلميذ لسنين خلت.

أطلّت سنة ٢٠٠٥ بعد أن حفلت سابقتها بالتطورات السياسية. كانت البلاد تحت وطأة التجاذبات السياسية التي ظهرت جلياً في فترة التمديد لرئيس الجمهورية اللبنانية تحت ضغط النفوذ السوري. في تلك المرحلة، بان المدى الذي وصل اليه تحكم الساسة

السوريـين بشـؤون البلد الداخليـة، ليظهر بالأخص مـدى هشاشة تصرفـات الحـكام اللبنانيـين عندما يتعلـق الأمـر بالحفاظ على مصالـح البلد. لم يكونـوا برأيي على مستوى عظمـة لبنان وطموح شبابه، وشعرت بالاشمئزاز مثل أي مواطن يؤمن بوطنه ويراه أسير تقلبات ساسة لم يرقوا إلى مستواه.

لعل تعلقي بالجامعة الأميركيـة ظهر من خلال تفاصيل صغيرة ولحظـات عشتها مع التلاميذ كصديق لهم لا كأستاذ. اختزلَت هذه التفاصيـل بدورهـا الأسباب الأساسيـة التي دفعتنـي إلى التواجد بينهـم. فإضافةً إلى المنهج العلمي لمواد عالم النحل وما تعالجه من تنظيم لامتناه لهذا العـالم وما يوحيه من جمال ومعان تكفي للتعلق بـه بحد ذاتـه، كنت أتخطـى مضمون المنهج لأتحـدّث إلى الطلاب عـن صفات «المواطن الصالح» البسيطة. كنت أقول لهم إن التمسك بالأخـلاق أساس لقيام أي وطن معافى، وإنـه من الخطأ استسهال الغشـ في الامتحـان، أو الاعتماد على مجهود بذلـه طالب لكي ينال طالب آخر تقديراً عليـه، أو استعمال العلاقات الشخصية لتفضيل طالب على غيره، أو سلوك غير ذلك من الأساليب الملتوية.

حدثتهم باستمرار عن أن سلوك الشباب المنحرف أيام الجامعة لـه أثرسلبي جداً في بناء الأوطـان وتطورها، خصوصاً بالنسبة إلى من هم علـى وشك الانتقال من مقاعد الدراسـة إلى ساحة العمل، ساحة الواقع البعيد عن تلك المقاعد.

لم أكـن غريباً عن انعكاسـات تلك الفترة التي عاشها لبنان، ولا عـن تأثيرها علـى سلوك الطـلاب وتصرفاتهم، هـم الذين حملوا معهـم أعباء مـا يـدور في منتديـات السياسة إلى ساحـة الجامعة وصفـوف الدراسة فيهـا. بدأت هذه الفترة مع صـدور قرار مجلس



الأمـن الدولي رقم ١٥٥٩ وما تبعه من أحداث أبرزها اغتيال رئيس حكومـة لبنـان رفيق الحريـري في ١٤ شبـاط ٢٠٠٥. تكرّست بهذا الحدث الانقسامـات بين اللبنانيين، واكتنزت أنمـاط سلوك قائمة على التطـرف ورفض الآخرين وتصنيف المواطنـين، كأننا لا نعيش في وطـن، بل في غابـة سكانها في مهب الريـح، لا يتردّدون في قضم مواردها حتى لو افترس بعضهم بعضاً.

قلق دائم

لم يترك تواتر الأحداث فيّ إلا مرارة لم تفارقني، كنت أشعر بها علـى الدوام عند اختلاطـي بالطلبة. رأيتهـم يصطفون في طوابير التبعية لمن أمسكوا بمقدرات البلاد، بدل أن يكتبوا مستقبلهم بأحرف لامعة من صنع أيديهـم. بعد اغتيال الحريري، انطلقت المظاهرات والمظاهـرات المقابلة، شـكّل الطلبة الثقل فيها، وكانـت انعكاساتها تصل إلى ساحة الجامعة، حيث بتنا في شبه تعطيل للتدريس عندما كانـت المجابهـات تشتد بـين الأفرقـاء. انقسـم المواطنـون ما بين معسكرين صارا أشهر من نار على علم: ٨ و١٤ آذار.

بصراحة، استفزتني الحماسـة التي أبداها الطلاب في التعبير عـن آرائهم، بغض النظر عن الفريـق الذي ينتمون إليـه، لكونهم يختزنـون بـذور التصميم وإرادة التغيير، لكننـي في الوقت عينه لم أكن أرى الحل عبر ممارسات أي من الفريقين.

كما العديد مـن الأشخاص، أردت المشاركـة والتعبير عن رأيي، فصرت أحاول مماشـاة التلاميذ في ما يقومون به. على الرغم من أننـي شعرت بالرغبـة في أن أكون ناشطاً بينهـم، إلا أن انقسامهم أذكـى إحساسـي بالحيرة، ممّـا لم يساعدني علـى ترجمة مواقفي

إلى مشاركة أو أفعال ملموسة. استمر مسلسل الاعتصامات والتظاهرات، وتخلله العديد من الاغتيالات السياسية والتفجيرات المتنقلة كانت تحصل بوتيرة تتصاعد حيناً وتتراجع حيناً آخر وتتنقل بين المناطق. زادت تلك الأحداث من توقد نيران السياسة المشتعلة بسبب حدة الانقسام بين الأفرقاء، ليدفع المواطن اللبناني أثماناً باهظة لتردي الأوضاع. ازداد اشمئزازي وتململي، وعبّرت عن ذلك غير مرة أمام التلاميذ في الجامعة عندما كنا نتبادل أطراف الحديث.

تواجدتُ على ساحة الجامعة الأميركية، باستمرار أو بتقطع، من يوم انضمامي إلى صفوف الطلاب فيها إلى ما بعد تخرجي وعودتي مجدداً اليها كمدرّس. شمل ذلك أكثر من تجربة ومجال عمل، في جو أثقلته الانقسامات والحروب الأخيرة في لبنان والمنطقة، وزادت من حدته النفوس الحبلى بالأحقاد والكراهية في غياب حسّ المواطنية.

إن الأحداث المتتالية في لبنان زادتني قناعة بأن معظم مشاكلنا تولدت من أنماط في التفكير والأداء، بشكل طائفي وفئوي مغلق، تربينا في ظلها؛ وليست مشاكلنا وليدة خلافات سياسية بحت، كما يتراءى لنا أو كما يصوره البعض. ترسخت القناعة لديّ بأن مفتاح الحل لمشاكلنا هو في تمسكنا بالحد الأدنى من القيم الأخلاقية والوطنية في تعاملنا مع بعضنا البعض، أو في تعاطينا بالشأن العام.

شكلت لدي تجربة الجامعة الأميركية، أو تجاربها، مصدر قلق دائم نتيجة ابتعاد الطلاب عن الأعمال المسؤولة كمواطنين. ربما لم أكن أريد رؤيتهم ينجرفون إلى ما من شأنه المسّ بسلوكهم السليم

كطلاب في الجامعة، كما انجرفت أنا في مرحلة من مراحل حياتي، بما سيرتد عليهم إفساداً في الوطن مستقبلاً. من هنا، كنت أبدو كمن فقد صوابه إذا ما قام تلميذ بمحاولة غش في امتحان ما، ليس لما في هذا التصرف من مخالفة لأنظمة الجامعة فحسب، بل كذلك يتضمن من زعزعة لثقة لا تنمو وتثمر إلا إذا كانت متبادلة بيننا.

هذه قصتي

في السنوات الأربع الأخيرة، وحتى تاريخ كتابة هذه الأسطر، كانت لي تجربة رائعة في عالم التدريس في الجامعة الأميركية. تجربة مليئة بالتفاعل مع الطلاب وبانطباعات لا أنساها، دفعت بي وبهم إلى إبقاء التواصل قائماً بيننا، حتى بعد انتهاء فصول الدراسة أو بعد تخرجهم. كأن لقاءنا الأول في قاعة التدريس شكّل بداية لمشوار لم يقدّر له أن ينتهي عند انتهاء الفصل الدراسي، بل ليستمر، ولو بأشكال مختلفة تجمعنا فيها وحدة الهموم، وفي نفسي أمل أن ننطلق معاً من الجامعة، الجامعة الأميركية في بيروت، لإصلاح ما فسد من شؤون وطننا.

تحت وطأة الأحداث المتسارعة، من الحرب في العراق إلى الأحداث في فلسطين إلى التطورات المتتابعة في لبنان، وجدت نفسي، كما هي الحال دائماً، شديد التأثر بكل ما يدور من حولي.

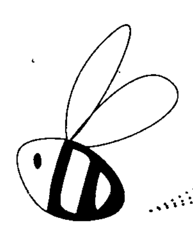
حاولت الابتعاد عن متابعة التطورات السياسية، واتبعت نمطاً هادئاً من الحياة اليومية قائماً على الابتكار وتحقيق التقدم والتفوق من خلال العمل اليومي في مهنة المحاماة، وفي الأبحاث الاقتصادية والتعليم، كما على المحافظة على اللياقة الجسدية وتمضية أوقات الترفيه الضرورية. إلا أن شعوراً عميقاً بقي طاغياً عليّ: حنين لم

ينقطع إلى الأهل والأصدقاء في الجنوب، والى زملاء الدراسة في الجامعة الأميركية.

كأن الحنين إلى رفاق الماضي هو قدري الأزلي. أودّ لو أكون بينهم، ولكن بصورتي الجديدة. فلو رحلت إلى أقصى أرجاء الأرض، وعشت حياة هانئة، وخضت التجارب والغمار، لا بد لي أن أعود محمّلاً بكل كنوز الخبرة والمعرفة لأنتهي حيث بدأت، ولأبذل كل كنز في سبيل المجتمع الذي تربّيت فيه وحضنني. هذا هو الغنى الحقيقي الذي لا يعلو عليه أي غنى آخر.

وجدت في قصتي هذه تشابهاً كبيراً مع ما قرأته وتأثرت به في قصة «الخيميائي» الرائعة للكاتب البرازيلي باولو كويلو. ربما حان الوقت لتجربة جديدة تختزن جميع دروس التجارب السابقة. ربما دقت ساعة الانطلاق من الجامعة الأميركية مجدداً، لبناء وطن حقيقي.

الإطار الحالي



لماذا أكتب الآن؟

قد تبدو قصتي في بعض جوانبها رواية تصويرية تتعلق بفتى جنوبي انتقل إلى المدينة محمّلاً بأثقال الريف. والريف هو الوجه الأول للحياة؛ لا أعني هنا ريف صفاء الطبيعة والحياة البسيطة، بل ما عكّر ذلك الصفاء من أعباء الدين والسياسة والقيم السائدة. ومن المدينة، وهي الوجه الآخر للحياة، حيث تتداخل الأعباء نفسها وتتصادم، انتقل هذا الفتى إلى بلاد جديدة، محمّلاً كذلك بأثقال أخرى.

عاد إلى بلاده وبجعبته مشاهدات كثيرة لم تخلُ من أثقال إضافية. محطات عديدة، لكن القواسم المشتركة بينها قلق دائم وهموم جعلت جمال الإقامة فيها دون مستوى التوقعات. أقول جمال الإقامة، لأن الأعباء والأثقال ذهبت مع الزمن، وبقي جمال الذكرى والذكريات. بقيت «الطاقة الإيجابية» هي المحرك، فهناك جمال ما في كل شيء.

في الحقيقة، لم يكن قصدي من الكتابة صياغة رواية تصويرية، لكن الصور دخلت إلى القصة للتخفيف من حدّة المواقف الاجتماعية والسياسية والدينية في السرد، وإن كانت هذه الصور تختزن حدّة من نوع آخر: التطرّف في الحب.

ولست في صدد كتابة سيرة ذاتية على طريقة المذكرات التي تكتب في خريف العمر. هذه سيرة ذاتية أو تجربة شخصية أو شهادة حياة كُتبت في ربيع العمر، الهدف منها مراجعة الذات من أجل تصويب الانتقال إلى مرحلة جديدة.



أردت كتابة تجربة خاصة، شخصية لكنها من صنع الشارع الذي فاق تأثيره تأثير البيت والمدرسة. هذا الشارع هو انعكاس للسياسة وآلة الحرب، للإعلام ووسائله ولأحاديث الناس، لمآثر الحضارة وإفرازاتها الاجتماعية والدينية. وفي ذلك كله وجدت أنماطاً معينة من السلوك الفردي والاجتماعي أضحت أنماط حياة. لأجل الإضاءة على هذه الأنماط كتبت، لعل في قصتي كما كان لي في قراءتي لِذاتي، عبرةً.

ولعل العبرة في نبذ التعصب الأعمى للدين أو المذهب أو الحزب أو الجماعة، والاستعاضة عنه بقليل من الاطلاع على ما رفضْنا الغير من أجله، وبدعوتنا له ليطّلع على ما رفضَنا من أجله، فالإنسان بطبيعته عدوٌّ لما يجهل. ببساطة، أنشد الحب والأخلاق والسلام، لكنني لا أنشد الطوباوية، فأنا أريد أن أصنع نفسي وقناعاتي وأحلامي على أرض الواقع.

أريد وطناً

أريد وطناً. أريد وطناً يحبني قبل أن أحبه، يحضنني قبل أن أضحي لأجله، ويكون لي ملاذاً قبل طائفتي وحزبي. أريد وطناً يعود فيه حقوقاً لي ما أؤديه من واجبات، ومقابلاً ما أدفعه من ضريبة، وأماناً ما أعيشه من انتماء ومواطنية. أريد وطناً لا يعثو فيه الفساد ولا تقطع أوصاله الاختلافات. يقولون: «وطن في غربة خير من غربة في وطن.» لا أريد أن أكون غريباً في وطني.

أفهم أن لبنان بلد صغير. درست في علم الاقتصاد عن الدول الصغيرة والدول الكبيرة، وشاهدت أثر ذلك في السياسة. أفهم ما يعنيه تأثر البلدان الصغيرة بمحيطها القريب والبعيد، وأجنح

إلى الواقعية في فهمي. لكنني لا أفهم أن يذوب وطن بالكامل في تناقضات المحيط وتأثيراته، فتتحوّل نعمه إلى نقمات على أبنائه.

أنا لبناني، أريد أن أنتفض وأن ينتفض معي أصدقائي وزملائي وإخوتي وأهلي وجيراني وشركائي في الوطن كافة. كتبت قصتي لتخبر عن ثوراتي، الأولى والثانية والآتية. أريدها ثورة بيضاء، سلاحها شباب لبنان، «لبنان غداً».

أريدها الآن. الآن أكثر من أي وقت مضى. رُبّ قائل إن الظرف غير مؤات؛ أقول إن وطني أضحى «وطن الظرف». متى انكفأ الظرف عنا؟ متى توقفت عن تقاذفنا المراهنات؟ لم يوقف الظرف ولا المراهنات عجلة الحياة. الانقسام يحتدّ، واليأس يتفشى، والبؤس يعمّ. الشباب هاجر، والآمال تبخرت، والنفوس حبلى. إلى متى أنتظر وننتظر؟ عفواً، فلم تعد تعنيني خلافاتكم وشعاراتكم، ولا وعودكم ورهاناتكم.

فيما تبقّى من صفحات، دعوني أفرَغ من المصالحة مع ذاتي، نقداً أكثر منه إطراء، لأنظر بعين الحاضر إلى ما مررت به من محطات، وما عشته من قضايا.

مع الأهل

عند الحديث عن الأهل، تدور في ذهني ثلاثة عناوين: تصادم مع الأب، وتأكيد للذات، واستفزاز للطموح. بين أبي وأمي في التعامل معي هوة؛ أبي بطبيعته متردد في قبول أي جديد أو مستجد، يصارع في رفضه، على الأقل في الظاهر، فكيف بالنسبة إلى ابنه الذي لم يتطلع إلى اقتباس ما استجد فحسب، بل أطلق كذلك العنان لجديد المغامرة، أو المغامرات. وجدت في كلام أبي وعباراته، «إياك»



و«ممنــوع عليك» قمعاً لروح المغامرة لديّ، وممانعة دائمة، فكنت في مواجهة مستمرة معه.

مــن ناحية، أرادت أمي أن تشجعني، لكنني لم أسمع منها كلاماً مباشــراً في هذا السياق، بل عبــارات مثل «انتبه» و«الله يوفقك»، في إشارة إلى تمنياتها لي بالنجاح. من ناحية ثانية، كانت تحسب كثيراً لــ «خط الرجعة»، لذلك تراها تلتــفّ على ممانعة أبي خوفاً من ردة فعله، خصوصــاً إذا كان الفشل نصيب ولدها في مغامراته، لأن لها نصيبها من اللوم. دائماً.

أمــا إخوتي، عــادل ورلى وحيدر، فــكان لهم أثنــاء طفولتي دور المراقــب أكــثر منــه دور المتدخّــل. ارتدّ عليهــم التصــادم مع الأب استفــزازاً لمشاعرهم، فسلكــوا طريق أخيهم البكــر، بشكل هادئ، ودون الحاجة عموماً إلى التصادم مع أبي. سعيت جاهداً لإلحاقهم بالجامعــة الأميركيــة التي راقني مناخها، فــأردت لهم أن يدخلوها ليجربوا ما جربت، وهكذا كان.

في المحصّلة، استفزّني أمران: سطوة أبي، وتعاطف أمي وإخوتي معي. في كلا الأمرين، أردت تأكيد ذاتي من خلال المغامرة، الوسيلة التي عبرت بها عن طموحاتي. تحولت المغامرة إلى تطرف في رفض جو الأسرة الــذي خلقه تأثير الأب، كنتيجــة طبيعية لتجلّي السلطة في مجتمع ذكوري. لم أجد أفضل من الشارع للاستجابة لما يدور في خاطري ولإذكاء حس الرفض والتحدي لديّ. قادني هذا الشارع إلى الحزب، وسيكون لي وقفة عنده في الفقرات الآتية.

لم يمنــع فشلي والديّ من مواساتي ومنحــي الحضن الدافئ لي باستمــرار، وكان الاثنان داعمَين بمــال الأسرة على حساب ما أرادا

تحقيقه. ربما أقنعهما الإصرار الذي أبديته بتبني مواقفي، ولو دون أن يعلنـا عن ذلك، أو ربما أحييت فيهما آمـالاً استغنيا عنها سابقاً لصالـح الاهتمام بالأسرة، أو ربمـا هي ببساطة عاطفة الأم والأب. رفضـا آرائي كما رفضها الآخرون، لكنهما لم يستغنيا عني كما فعل أولئك.

أعتقد أننـي أثّرت على أبي، لدرجة أنـه تخلّى حتى عن امتلاك منزل خاص بالأسرة، في سبيل تقديم الدعم إليّ، وأمل في أن أحقق ما عجز هو عنه. صحيح أنني تنقلت بين تجارب عديدة، لم أصل إلى خواتمهـا كما كان أبي يأمل، لكنني علـى الأقل لم أخذله في مسالك عـدة سلكتها. اجتهدت في دراستي وتفوّقت، أكملت ما بدأه، فحملت معـي إلى الجامعة عشقه لعـالم النحل، وحققت في هـذا المجال ما طالما أرادني أن أحقق.

أديـن لأهلي بالكثير، وفقنـي الله في تحقيق المزيد من مرادهم. أتطلـع إلى رضـا والديّ والى رؤيـة إخوتي إلى جانبـي على الدوام. أعلـم أن ثورتي الآتية سوف تكون مصدراً آخر للقلق، لكننـي آمل أن تترك لي مجالاً للتعويض عمّا لم أستطع تقديمه لهم من قبل.

مع الحزب

أميّـز هنا بين أمرين: الحـزب كتنظيم، والحـزب كجماعة من البشر. علاقتي بالتنظيم هي اليوم في عداد الماضي، مع كل ما رافقها مـن أفعـال وأنشطة ومحـاولات إصـلاح. بالنسبـة إلـيّ، «الحزب»، حـزب الله أو غيره، خصوصـاً في لبنان، هو إطـار يحدّ من حريتي الشخصية لأنه لا يتطلب مني الالتزام ببرنامج عمل جامد فحسب، بل يفرض علي كذلك نمطاً من الحياة والعلاقات بالآخرين.



يـا أهل الأمـر والنهي في الحزب، مبروك عليكـم هذا التنظيم. مـبروك عليكم السلطة والمال. ولكن لا تنسوا أن منبع قوتكم شهداء ودمـاء ووطن وشعب حاضن. لا تحتكـروا طريق الإيمان، ولا الدرب إلى الله وإلى الشهادة، فأنا وغيري كثرٌ أيضاً امتدادٌ للشهداء ورفاقٌ لهم.

من كان يعنيني ولا يزال هم الأفراد في الحزب وفي محيطه، من أصدقاء ومناصرين وأناسـ يعيشون بينهم. من هم هؤلاء الأفراد؟ هم في البداية الأهل والأقارب والجيران، هم بعد ذلك الأصحاب في الحي والحارة والبلدة والمنطقة والبلد، ثم سائر سكان تلك الأماكن. هؤلاء هم من أحبّ، ولو كنت في مقلب آخر.

بالأمسـ، اعتدت أن أحكـم على الناس من خـلال الإطار الذي كنت أراهم فيه. لم يعد الإطار يعني لي الكثير، بعكس ما بقي يعنيه لكثيريـن من إخـوة الحزب القدامى. مـا أدرتُ ظهري لأحد منهم، حتـى لـو أداروا ظهورهم لي. بالأمسـ القريب، سألنـي صديق من أصدقاء الحـزب: «متى ستعود إلى رشدك وتعـود؟» أجبته: «أتفهّم سؤالـك لأنني كنت حيث أنـت الآن، لكنك لن تتفهم جوابي لأنك لم تأتِ إلى حيث أنا الآن».

في الحقيقـة، إن مشكلتـي مع الكثيرين في الحـزب، أو بالأحرى مشكلتهـم معـي، هـي انتماؤهم إلى مجتمـع أكثر منـه إلى حزب. ثقافة المجتمع قامت على تصنيف الناس واحتكار الآراء وتغليب حس الجماعـة على حس الفـرد. من بقي منهم صديقـاً لي؟ بقي أولئك الذيـن ربطهم بي، أو ربطني بهم، عامـل شخصي. بقي الذين ظل يهمّهـم الشخصـ، عناهم «المعـدن» فيه، بغض النظـر عن المَركب الذي ركبه. بقي أولئك كما بقي الأهل.

في قصتي وفي مقدمتها نصيب وافر لرحلتي وانطباعاتي في غياهب الحزب، لا تزال لديّ الآن، وإن حاولت إقصاءها أحياناً عن القصة. لا أريد أن أكرّر نفسي. أريد أن أقول فحسب أن الفرق بين الأهل والحزبيين، كما اختبرته، هو أن الأهل رفضوا مواقفي لكنهم لم يستغنوا عني، فيما الحزبيون رفضوا واستغنوا، لأنهم لم يقرأوا إلا البطاقة الحزبية، وعجزوا عن قراءة البطاقة الشخصية.

مع المجتمع

بين المجتمع الشرقي الكبير، والمجتمع الصغير، البلدة، مروراً بالوطن، جوامع وفوارق. في الجوامع نرى جمال الشرق وحضارته وثقافته، ونرى قيم المجتمع والعائلة، لكننا نرى أيضاً نمطاً من التربية والسلوك أنتج نفاقاً في التعبير عن الذات، وذوباناً زائفاً في الجماعة تحت ألف قناع وقناع. ماذا سيقول الناس عنا؟ كيف سينظرون إلى عائلتنا؟ افعل ما شئت، لكن لا تدع الآخرين يعلمون به. الكذب ملح الرجال، وغيرها عبارات تملأ المكان.

أنتج ذلك النمط أيضاً كبتاً في التعبير عن المشاعر، نفسية كانت أو جنسية، بذريعة الهروب من «العيب». بقيت الأنا فينا مكبوتة، وافتقرت أنظمتنا إلى المحفزات الفردية، وتقلص الطموح وحس الإبداع. لم نعش المراهقة السليمة، وبعد المراهقة، وجد الكبت طريقه في الاختباء بعيداً عن عيون الناس. صرنا نبطن ما لا نعلن بعد أن أقنعنا أنفسنا بأن ذلك يحقق لنا الأمان الاجتماعي. لم نكتفِ بالاحتفاظ بنمط التفكير الأعوج هذا، بل حملناه إلى عائلاتنا وربّينا أولادنا عليه.



أمـا الفوارق بين مجتمع الشرق ومجتمع البلدة اللبنانية، فتكمن في تنـوع لبنـان في غناه وغنـاه في تنوعـه. بشكل عـام، الجماعات المسيحية في لبنان، أو غيره، أقرب إلى الغرب بنظر معظم الناس – الغرب يستحضر نموذج حياة متفوقاً في أذهانهم – وأكثر انسجاماً مـع أنمـاط الحياة فيـه. الجماعـات المسلمـة تعدّ بنظـر الكثيرين أكـثر «شرقية»، أو محافظـة في التمسك بتراثها المحلي، في مواجهة الانفتاح على ما هو «مستورد».

أستطـرد لأقول إن هذا التنوع في لبنان سوف يرتدّ علينا تمزقاً، والغنى فقراً، إذا لم يقم في هذا البلد مجتمع مدني حقيقي، يتخطى أطر تلك الجماعات ويؤمّن المساواة بين المواطنين، وحيث يتغلب فيه الانتمـاء إلى مجتمع علـى الانتماء إلى جماعة. سـوف يساعد هذا الأمـر على التخفيف مـن هاجس الوقـوع فريسة لنظريـة المؤامرة وإفرازاتها، والتي غذتها الجماعات في تعاملها مع بعضها.

أعـود إلى الحديـث عـن الأصدقـاء، وأتذكـر ما قالـه لي أحد الأصحـاب مـرة: «أنـت صديق صعـب». قالها لأنني لم أكن أجنب أصدقائـي ردات فعلي تجـاه سلـوك المجتمع، فقـد أردت الصديق المثـالي الذي يصدقني وأصدقه، ولأنه لم تكن لديّ النية في المهادنة بخصوص الصداقة. نسيـت أننا لا نعيش في مجتمـع مثالي، وأننا جميعاً خطأة، كل على طريقته.

في النهاية، لست من الذين يتخلون عن أصدقائهم، ولا من الذين يسعدون من دونهم. أسأل، من باب الاستطراد، هل سيترك لي هذا الكتاب أصحاباً؟ ربما لا، لكن لا أشك في أنه سيترك لي أصدقاء.

مع الدين والإيمان

قال لي صديق مرة: «أنا لست رجل دين، بل رجل إيمان». لكل إنسان طريقته في التواصل مع ما يؤمن به، فلا حق وباطل، ولا صح وخطأ في تلك الطرق. يُنقل عن الإمام علي قوله: «تعدّدت السبل إلى الله كتعدّد أنفاس الخلائق». كلمة «المؤمنون» التي أحببت سماعها وردّدتها كثيراً من قبل، أثناء الصلاة في الجامع واجتماعات الحزب، وحتى أثناء التردّد إلى الكنيسة لاحقاً، صارت تخلق لديّ نفوراً دفعني إلى استبدالها بكلمة «الملتزمون» أو «المتدينون».

من أنتم ومن نحن لنتدخل في الإيمان؟ هذا شأن بين المرء وربه. أما المؤسسة الدينية، فهي شأن آخر، هي طقوس وقواعد ونظم من صنع البشر، فيها الصالح وفيها الطالح، فيها الحديث وفيها البالي. اؤمن بأن صانعي الأديان أرادوا من ذلك إنارة الدرب إلى الإيمان، أرادوا بعض التنظيم للعلاقة بين الفرد وربه، فإذا بمن خلفوهم يجدون في الدين أفضل سلطة على البشر، فزجوا الدين في السياسة والاجتماع والاقتصاد والحرب.

أرى أن التديّن أصبح في الواقع انتماءً اجتماعياً وسياسياً وعقائدياً، أكثر منه انتماءً «دينياً»، وأضحى الدين هو الحامي لمصلحة الجماعة في مقابل مصالح الجماعات الأخرى. كان الدين من أجل أن يجتمع الناس على «كلمة سواء»، لكن، للأسف، فرقت المؤسسة الدينية أكثر مما جمعت. ثم ما دخل الدين بالعلمانية؟ لكل أرضيته المختلفة عن الأخرى، فالدين، أصلاً، وجِد لتنظيم العلاقة مع الله وصون القيم الإنسانية، أما العلمانية فهي لتنظيم العقد الاجتماعي بين أبناء مجتمع مدني ما.



علـى أبواب الحجّ أكتب هذه الفقـرات، لأختم كلامي عن الدين بشـيء من الحنين، الحنـين إلى سمـاع قصة النبـي إبراهيم، أبي الأديـان. ترى مـاذا عساه يفعـل، إذا عاد ليرى أمتـه تفرّقت أمماً وشيعـاً ومذاهب متناحرة؟ أحجّ إليك يا نبي الله بهذه الشكوى، لعل صوتي، صوت الحاج، يصل إليك عبر مكة وأرجائها!

مع الأنثى

مظلومـة هي الأنثـى في مجتمعنا، لأننا أردناهـا فقط في رمزية المرأة الوالدة، أو الأخت المساندة. أين بقية حياتها؟ كيف حقّ لنا أن نجرّدها من أنوثتها وحاجاتها ومشاعرها وحبها وكرهها؟ وتمادينا في الذكوريـة، إلى حـدّ أن ارتضينا لبنات الآخريـن وأخواتهم ما لا نرتضيه لبناتنا وأخواتنا، والى حدّ احتكار الدفاع عن العرض، ليس عرض المرأة وحدها، بل عرض العائلة بأكملها.

أعـي أن القضيـة ليست بهـذه البساطـة، لأنها قضيـة حضارة وثقافة، قاربتُ بعض مكنوناتها في كلماتي عن المجتمع، لكن في قلبي الكثـير لأقوله عن الأنثى وموقعي منها، الأمر الذي يحتاج إلى كتاب مستقل. لكـن إذا صح القول إن المرأة هي ضحية المجتمع الذكوري، أقـول أيضاً إنها ضحية عدم اعتدادهـا بقوتها. تظلم نفسها بسبب قلـة ثقتها بنفسها، وثقتهـا المفرطة بالذكر، المـلاذ عند انكشافها، القوي عند ضعفها، الحامي عند قلة حيلتها.

فيما يخصّني، أقول إنني أؤمن بالمرأة وبقوتها، وأرى في الأمومة قداسـة. فعاطفة المرأة التي تتألق في علاقتهـا بولدها مستمدة من الله، وليس أهم ما يرمز إلى الله من الحب، ومن الأمان الذي أنشده في عاطفته نحوي. لا أخفي أنني أرى في قوة المرأة دفعاً لثورتي.

فيمـا يخصنـي أيضـاً، صحيح أننـي في كل أهوائـي أسير وفقاً لمقولـة «اتبع قلبك»، إلا أن هـذه المقولة هي سيدة الموقف في علاقتي بالفتـاة. معها، انطلقت مـن أحاسيسي دائمـاً، ورفضت الاستقرار «الاجتماعي» لأنني لم أجد في الزواج، حتى الآن، الاستقرار النفسي والجنسـي الـذي أنشـد. لا أريد القيـام بخطوة ناقصـة، كالسواد الأعظم من الشباب الذين يحاولـون أن يعوضوا النقص في الأسرة بالتفلـت من قيود الـزواج. أرى في الارتباط بامـرأة سمواً لا بد من إيفائه حقه. لذلك أتوق إلى حب مستقر مكتمل.

مع أميركا

لست هنا بصدد تصنيف الإديولوجيات، فبعيداً عنها أرى أميركا نموذجاً للتفوق. الكثيرون منا رفضوه في الظاهر، لذريعة ما، لكنهم تبنوه في الباطن. بصراحـة، أحببت أميركا في فترة سابقة إلى حد التماهـي، إلى درجة أنني بدوت كالسائـح في بلدي ومجتمعي، كمن نسي لغته وخصائصه.

بعـد عودتي من إقامة قصـيرة هناك، كنت عفوياً في ظهوري في بلـدي بمظهر الغريب، في ردّة فعلي الطبيعيـة، إذ لم أبغِ أي تصنع. نعم، كنت صادقاً في عفويتي، لكن الواقع ردّ عليّ: انظر إلى نفسك، إلى من تشبههم، إلى أهلك وناسِك الذين طالما حضنوك.

الأهـم بالنسبة إلي أن قصتي مع أميركا هي قصتي مع الحرية. ذهبـت إلى هنـاك أنشدها، فاصطدمت بمن سلبنـي إياها. بعد أن بـدت أميركا لي سلة واحـدة، تبدّل المشهد، فظهـرت سلطة مقابل أفراد، منهـم زملائي وأساتذتي وأصحابـي في فلوريدا. أقول لهم: «شكـراً على كل ما قدمتم لي، لن يضيـع صنيعكم عندي أبداً. لكن



قفوا بوجه من فرّقنا كما وقفتُ أنا، وحاسبوا من ادعى كذباً تمثيلكم باسم الحرية والديموقراطية والقانون». أريد أن أعود لأكون حراً في ما يطلق عليها اسم «بلاد الحرية».

مع الجامعة الأميركية

اختلفت الحال مع الجامعة بين أيام الدراسة وأيام التدريس. بعد الأهل والحزب، تكررت حالة الرفض والتصادم والاستفزاز في العلاقة مع إدارة الجامعة أيام «التلمذة»، أيام أتيتها من الجنوب. تبدّلت هذه الحالة إلى تفهّم واحتضان أيام «الأستذة»، أيام أتيتها من فلوريدا. شعرت حينذاك، كما شعرت من قبل، بأهمية مناخها المنفتح العلماني في مقابل المناخات الأخرى.

أكثر ما لفتني في الجامعة هو صياغتها لما يسمى «مجتمع الجامعة»، صيغة نموذجية تلتقي فيها طبقات الجامعة على اختلافها، من طلاب وإداريين وأساتذة وعمال وخريجين. ترى كل هذه المكونات في ترابط مستمر، يتفاعل بعضها مع بعض، فتجد أبناء العمال تلامذة إلى جانب أبناء الأكاديميين وأبناء أثرياء المجتمع. كما تجد تبرعات الخريجين السخية تساهم في تحديث مرافق الجامعة أو تساعد الطلبة غير الميسورين على تحمّل نفقات الدراسة.

عدت إلى الجامعة ولم أعد بعد إلى الجنوب، إلى الضيعة، إلى الأهل والأصحاب هناك. لن تكتمل العودة إلا بحطّ الرحال حيث بدأت، حيث تكوّنت في براعم الرفض والتمرد. الجامعة الأميركية هي الآن بوابتي إلى لبنان.

مع لبنان

لبناننـــا هذا مهشم مقسّم تتقاذفه الويلات. سأترك العموميات لألامس واقع لبنان الآن. جميلة هي الشعارات الكثيرة المرفوعة، من معسكـرَي الرابع عشــر والثامن من آذار. لكن مــا أراه يخبرني بأن محركي المعسكرين قد ضلوا الطريق، ولو عن غير قصد، إن لم يكن نظرياً فعملياً. إن لبنـــان ناء بكم حملاً، أعطوا الفرصة لدم جديد، لخيـــار بديل، لمسار جامــع عماده حركة شبابيـــة طالبية تحدث أثراً يشبه في قوّته الأثر الذي غيّر الجمهورية في فرنسا سنة ١٩٦٨.

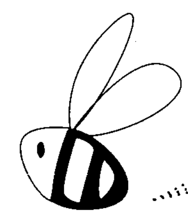
عندمــا يسألني الأصحاب عن ثورتي، أقول لهم إنها ثورة «طالب مــدى الحيـــاة». أقـــول لهم أيضـــاً إنني مراهـــق إلى الأبـد، لأن روح المراهقـــة المندفعـــة بعفوية ما زالـــت تلازمني، مع فـــارق النضج في التجربـــة بالطبـــع. آمل أن يلطّـــف هذا النضج النـــزاع في نفسي بين المثاليـــة والواقع، فأعـــي أن «ما لا يدرك كلّه، لا يترك جلّه»، وأنا على طريق الذوبان في فكرتي، وخدمتها حتى النهاية.

أخيراً، يقولون: «إذا لم تتواصل مع ماضيك، فإنه سوف يتواصل معـــك». حركـــت فيّ كتابة هـــذه الصفحـــات الكثير مـــن الذكريات. لكـــن الأهم في كتابتها هو أننـــي أردت رفع أي غموض أو التباس عن صورتي. لبرهة، قد أبـــدو صاحب شخصيات متعددة، ملأى رحلتي بمحطـــات وتناقضـــات، يختلط فيها الثابت بالمتغير. مـــا آمله هو أن يكون الثابت كافياً لخلق ثقة بيننا، لا يطيح بها وبأهلها.

أردت القـــدوم بنظافة وصفاء إلى بدايتـــي أو محطتي الجديدة، مع غنى الماضي ووعي الحاضر. ألفظ كل ما ضقت به، وأرمي ورائي كل ما أزعجني، لأكمل ثورتي على طريق النحل.

شهادات

بقلم أشخاص عرفوا
رامي عليق في مراحل متعددة...



وجهٌ فطريّ لم يترهل

في النصف الأول من عقد تسعينيات القرن الماضي، دارت الحركة الطالبية في الجامعة الأميركية حول طالب واحد هو رامي عليّق. إذا علا نجمه ارتفعت به الحركة الطالبية عالياً، وإذا خفَت أصابها الموات. لا أعلم إن كان ذلك أمراً يُحمد أو يذمّ، لكن الخاص والعام لم يلتقيا في تاريخ الحركة الطالبية كما التقيا معه وبه.

الغريب في رامي أنه سيّد من أضاع الفرص السهلة الهينة، وسيّد من اقتنص الفرص الصعبة وخطفها من فم الأسد، فالطريق الأقصر بين نقطتين لا يمكن أن يكون الخطّ المستقيم، وإنّ تصيير الهزائم انتصارات، والانتصارات انكسارات هي لعبته المفضّلة.

قد تختلف مع رامي وقد تتّفق، ولعل الاتفاق أصلٌ والاختلاف فرعٌ، غير أنك لا يمكن بحال أن تبقى غير مبال. سرّه ليس في قوة الحجة، وتماسك المنطق، وليس في حسن اطّلاع فاق به أقرانه (قلت له يومًا وقد استبدّ بي الحماس: إننا نصنع معك اليوم ٨ أيّار الخاصّ بنا، في إشارةٍ منّي إلى أحداث ٦٨ في باريس، فأجابني: وما هي تلك؟) ليس سرّه في «كاريزما» تعوّدنا – نحن المحيطين به – أن ننسبها إليه بوصفها كلمة سحرية قادرة على التفسير، إذا عزّ التفسير. كلا. اليوم أجزم أن سرّ رامي لم يكن في شيء من ذلك، بل كان في عزيمة جبّارة وإرادة تفلّ الحديد، وفي سلطة تامة يمارسها على نفسه، ويوجّه بها إرادته وعزيمته حيثما شاء.



لم يجترح رامي المعجزات، ولعل إخفاقاته كانت أكثر من نجاحاته، ولعله خلق من الخصوم ما جعل من أصدقائه الكثر قلّة. لكنه حتماً كان «مالئ الدنيا وشاغل الناس» لكل من عايش تلك الفترة الأكثر خصوبة في تاريخ الحركة الطالبية الحديث.

اليوم يقف رامي في مقلب آخر، لا يشبه موقعه القديم، ويختلف جذرياً عن الأرض التي أقف عليها – إذا كان لي أن أقحم نفسي– غير أنّي لا أملك إلا أن أراه هو هو: نغيّر أقنعتنا ألف مرة، لكنك إذا أمعنت النظر، سترى خلف الأقنعة وجهًا فطرياً بِكراً لم يترهّل، وما بدلته السنون.

عبد الله صوفان
مدرّس في كلية الآداب والعلوم - الجامعة الأميركية في بيروت
تشرين الأول – أكتوبر، ٢٠٠٧

الأستاذ الصديق

عرفته أستاذاً لمادة «تربية النحل» وأنا تلميذة في قاعة الدراسة في الجامعة الأميركية في بيروت.

الأستاذ الشاب الذي ينبض بالحياة، عباراته لا تزال حاضرة في مسامعي «لا تحيدوا عن الالتزام بميثاق الصدق أثناء دراستكم في الجامعة»، «إياكم والغش في الامتحانات فإنكم بذلك تحصلون على ما لا تستحقون وهذه من كبرى الآثام»، «إذا فسد جيلكم فسلام على الأوطان»، وغيرها الكثير من العبارات التي انطبعت في ذهني أكثر ممّا انطبعت تفاصيل المادة ذاتها. لم تبدُ لي هذه العبارات وليدة ساعتها. اعتقدت حينها، وقد أصبت في اعتقادي، بأن ما كان يردده ذلك الأستاذ كان يخفي وراءه سراً ما أو تجربة تركت أثرها في شخصه. وبالفعل، دفع بي فضولي إلى محاولة الإلمام بما خفي عني فيه، وبعد الأخذ والرد، قصّ الأستاذ علي قصته التي ترويها صفحات الكتاب هذه.

قال لنا رامي عليق في الصف مرة: «أن تعلّم، هو أن تخلق شهيّة للتعلم». أوجد لديّ هذه الشهية فعلاً. شغفه بعالم النحل وانفعاله في التحدث عنه جعلاني أعشق هذا العالم.

في الصف والرحلات الدراسية ونشاط «يوم العسل» في الجامعة، هو متفان، مرِح، لا يطيق الكذب، عادل في تقييم الطلاب، يتعاطى معهم كأنهم أصدقاؤه الدائمون، وفي صفه تعرّفت إلى أقرب أصدقائي من الطلبة.



أثّـر فيّ، كفتـاة، شبابـه المتميز. يفصل مـا بين واجبـات التدريس وعلاقاته خارج قاعات الجامعة، بالرغم من كل ما يشاع عنه.

جمـع بين المحامـاة والاقتصاد وعلم النحل، وواظـب على التمارين الرياضيـة والاختـلاء في الطبيعة والسهر الدائـم، ووجد وقتاً لهذه النشاطات جميعها.

عندمـا كنـت في طريقي إلى مكتبه لأسأله عن المـادة التي يدرّسها، سألـت عنه من باب المصادفة اثنين من أصدقائي في الجامعة. قال لي الأول إنـه كان «قائـد ثورة حزب الله في الجامعـة»، والثاني قال إنـه «يقضي وقته في السهـر مع الفتيات». نقيضان أظهرا لي أن كلاً منهمـا عرف عنه جانباً واحداً مغايـراً للجانب الآخر. تُرى لمَ ترك رامي انطباعات مختلفة عند من عرفه؟!

أقول بعـد معرفتي به وسماعي لقصته إنه شاب استثنائي، لم تكتب عنه الأقلام إلا اللمم. ولكن، في رأيي أن ما سيأتي من الأيام والسنين سوف يحكي حكاية رامي عليق...

ميس سليمان
طالبة في كلية الآداب والعلوم - الجامعة الأميركية في بيروت
تشرين الأول – أكتوبر ٢٠٠٧

حالم بلا حدود

كان ذلـك عام ١٩٩٨. كنـت واقفة علـى كورنيش الروشـة أنتظر رجلاً لا أعرفـه. أطـلّ بيديه الطويلتين وقامته المديـدة وسلّم علي بجديّة تكاد تلامس البرودة. لم أكن أعرف عنه شيئاً. كنت قد لمحته في كلية الإعلام في الفنـار، حيـث كنت أتخصصـ في الصحافة، يتحـدث إلى مجموعة من الطـلاب في الكافتيريا ويملأ الاستمارات. كان يحثّهم يومذاك على الانضمـام إلى رابطة أسسها بهدف تغيير المجتمع اللبناني، وقد سمّاها «رابطـة نهضة الشباب الاجتماعيـة». بعدها بأيام طلبت رقم هاتفه من زميلتـي واتصلت به للاستفسار عن مشروعـه الذي وجدت فيه متنفساً لأحلامي. تلك الأحلام التي تكفّلت الحياة باعتقالها فيما بعد.

هنـاك باختصار محرّك مـا يتحكّم برامي عليّق منـذ عرفته. لا أعرف إن كان هـذا إرادة صلبـة، عنـاداً يأبـى الانكسـار أو مثاليـة بعيدة عن البراغماتية. في الأحوال شتى، هو يشعر وكأنه مكلف بإعادة ترتيب نظام هـذا العـالم، أو كما نقـول بالفرنسيـة Avoir le monde à refaire.

هكـذا كان يخاطـب الشباب بإصرار لافت وبقوة إقنـاع أكيدة عن آفات مجتمعـه كما يـراه، وأبرزها برأيه الطائفيـة والمحسوبية، ويدفعهم إلى الاتحـاد تحـت مظلّة الرابطة التـي أسّسها لتغيـير ذاك الواقع. في هذا الإطـار جلت معه وبعض الرفاق على أكثر مـن جامعة في مختلف أنحاء الوطن، حيث كان يبشّر بمشروعه بشغف قلّ نظيره.

حلـم رامي كبير، كبير جداً، ويبدو لي من النجاحات المنقرضة، في زمن لم يعـد للأحـلام الجماعية مكان، كمـا يقول الأستاذ غسـان تويني في كتابه، «سرّ المهنة وأسرار اخرى».

كوزيت كرم الأندري

من أعضاء الرابطة - جعيتا، كسروان، جبل لبنان

تشرين الثاني، ٢٠٠٧

تفانٍ وصراع مع الذات

بسم الله الرحمن الرحيم

«والذين جَاهَدُوا فِيْنَا لنهْدِيَنَّهُم سُبُلَنَا».

أحببت أن أفتتح كلامي بهذه الآية الكريمة التي ستكون مدخلاً للحديث عن رامي عليّق.

رامي الذي أعرفه منذ نعومة أظفاره، صابراً ومتفانياً إلى أقصى حدّ في أي نشاط، يساوي الآخرين بنفسه، مقداماً وجريئاً وشجاعاً، وليس هذا من باب التملق أو المداهنة، بل هي حقيقة ما أعنيه. بالرغم من المراحل التي مرّ بها، لا زلت أعوّل على اللطف الإلهي الذي سيشمله ويعيده إلى الصراط المستقيم.

يستحق رامي أن يكتب تاريخه على أساس التجربة والصراع الذي خاضه مع نفسه أولاً، ومع الآخرين في التجربة اليومية ثانياً.

أستطيع بصدق أن أقول إن السبب الرئيس الذي جعل رامي يشذّ عن القاعدة العامة للالتزام الديني هو حدّته وإخلاصه لمعتقداته التي اصطدم بأناس أساؤوا تطبيقها، بعد أن اعتقد – وهذا خطأ – بأنهم قديسون، فواجه صراعاً نفسياً عميقاً أطاح بكل شخصيته المسلكية الجهادية.

لا يمكنني أن أفي رامي حقه ببضع كلمات، لكن أقصر الطرق إلى الحقيقة هو قول الحقيقة. أقول إن الإسلام بحاجة إلى أمثال رامي والإخلاص الذي لديه.

رشيد بيطار

ناشط في حزب الله منذ تأسيسه - النبطية، جنوب لبنان

تشرين الثاني، ٢٠٠٧

إيمان وتمرّد

طُرد رامي علّيق من المدرسة الإنجيلية في النبطية وهو في المرحلة المتوسطة، بسبب بعض النشاطات والأفكار التي تتناقض مع سياسة المدرسة. التحق بمدرسة حبّوش الدولية، لكنه ما لبث أن طُرد، كذلك بسبب أفكاره وقناعاته وبعض النشاطات التي قام بها بقرار من جهاز التعبئة التربوية في حزب الله، رغماً عن قرار الإدارة.

في صيف العام ١٩٨٧، لم يتردّد في الذهاب في رحلة كشفية مع التعبئة لعدة أيام في البقاع، دون إبلاغ أهله بالأمر، والذين بعد معرفة مكانه ذهبوا اليه طالبين منه العودة معهم. إلا أنه أصرّ على البقاء في المخيم الكشفي. كما أنه في صيف العام ١٩٨٨ لم يتردد في الذهاب للمرابطة على محاور المقاومة في جبل صافي، دون إعلام أهله بالأمر أيضاً.

لقد كان رامي في هذه المرحلة شديد الالتزام بالواجبات الدينية من صلاة ودعاء وارتياد للمسجد. أما أهله، فكانوا يصرون على اهتمامه بواجباته المدرسية والأكاديمية، دون التعاطي بالعمل السياسي، الأمر الذي رفضه وتمرد عليه.

كانت تصرفاته حينذاك مزيجاً من الإيمان الراسخ والقناعة الثابتة من جهة، ونوعاً من ردة الفعل والرفض والتمرد على ما يُفرض عليه داخل منزله، من جهة أخرى.

صائب نصّار

أول مسؤول عنه في حزب الله - النبطية، جنوب لبنان

تشرين الثاني، ٢٠٠٧



فهرس

فهرس



فهرس

فهرس

رامـي علَيـق. مواجهـة مـع الأهـل. وإدارة المدرسـة. والأحزاب المنافسـة. وإسرائيـل. وأميركا. والدولة الفاسدة... ومع الذات. «مع» و«ضد» إلى النهاية. ولا وقت للاحتمالات الأخرى.

نقـل الضاحيـة الجنوبية معه إلى الجامعـة الأميركية. تجـرأ على المقامات الكبيرة. تطلع إلى ثورة على مقاسه. أتقن اللعبة ليكون خارجها فيما بعد. خطا الخطوة التي ليست بالنسبة إلى سواه إلا قفزة في المكان الخطر.

رامـي علـى طريق الرفض. خـرج إلى المجهول. ارتمى في حضـن المرأة. ثار على العادات والتقاليد والمعتقدات. بات في مواجهة مع محطّاته الماضية نفسها. جديد إلى آخر الحدود. مختلف بالكامل.

لم تطلقه الحرية التي لامس أقصاها. ولا الأفكار التي تمسك بأكثرها جرأة. ولا القيـم التي حملهـا. ولا الحب الذي امتلكه. ولا البرية التي لجـأ إليها أياماً وأسابيـع. حتى المـوت لفظه بعـد الانتحار. أميركا. عدوته السابقـة وحبيبته اللاحقـة. لم تطلقـه فطردته مـن أرضها. عـاد إلى الوطن ليختـار الثورة من جديد.

ثـورات رامـي عليق المتعددة هي في الحقيقة ثورة واحـدة. هو نفسه لا يعرف سرّهـا ولا المـكان الذي ستودي به إليـه. أصبح الآن أكثر نضجـاً. لكنه لا يزال حراً. أو يحاول.

عجرم عجرم

